

من تاريخ الطب الإسلامى

تحرير

دكتور أحمد إبراهيم الهوارى

من تاريخ الطب الإسلامى

من تاريخ الطب الإسلامى
دكتور قاسم غنى

تاريخ البيمارستانات فى الإسلام
دكتور أحمد عيسى (بك)



حرره وقدم له

دكتور أحمد إبراهيم الهوارى

الطبعة الأولى

٢٠٠٥م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والإجتماعية
ÉIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES



المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

المستشارون

د. أحمد إبراهيم الهوارى

د. شوقى عبد القوى حبيب

د. قاسم عبده قاسم

المدير التنفيذى :

شريف قاسم

مدير الانتاج :

جمال عابد

تصميم الغلاف: عمرو قاسم

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية – الهرم – ج.م.ع. تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

E-mail : dar_Ein@hotmail.com

مطبوعات جمعية التمدن الاسلامي بدمشق

تاريخ البيمارستانات في الإسلام

تأليف

الدكتور احمد عيسى بك

العضو بالمجمع العلمي المصري والعضو بالاكاديمية الدولية لتاريخ العلوم بباريس
والعضو بالمجمع العلمي العربي بدمشق والعضو بالمجلس الاعلى لدار الكتب
الملكية والعضو باللجنة العليا لمتحف فؤاد الصحي

المطبعة الهاشمية بدمشق

١٣٥٧ هـ — ١٩٣٩ م

صورة غلاف الطبعة الأولى

الإهــداء

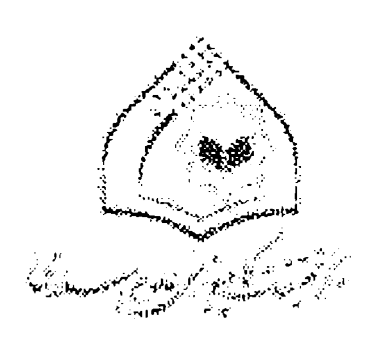
إلى الصديق

المؤرخ والمفكر الدكتـور قاسم عبده قاسم

المحتـفي بتـاريخ أمتـه ومـجـد قـومـه

المؤمن أن بوابة المستقبل تبدأ بمعرفة الماضى

أحمد الهوارى



فهرست مواد الكتاب

فهرس الكتاب الأول

من تاريخ الطب الإسلامى

فهرس الكتاب الثانى

تاريخ البيمارستانات فى الإسلام

- من أين بنى البيمارستان المنصورى

- مرتبة نظر البيمارستان - سبب بناء البيمارستان- استمرار تعهد البيمارستان المنصورى بالعمارة والإصلاح- الآثار الباقية من البيمارستان المنصورى- الكتابة الأثرية فى البيمارستان المنصورى- الأعيان التى كانت موقوفة على البيمارستان المنصورى- صورة من حال البيمارستان المنصورى بعض من تولى النظر فى بعض عصوره.

- الأطباء الذين عملوا فيه :

على بن عبد الواحد بن أحمد بن الحضر الشيخ علاء الدين الحلبى- محمد بن على بن محمد بن محمد بن عثمان- محمود بن محمد بن على بن عبدالله جمال الدين أبو الثناء القيصرى الرومى- على بن عبدالله بن محمد الأمير علاء الدين الطبلاوى- محمد بن أحمد بن عبد الملك القاضى شمس الدين الدميرى - على بن مفلح القاضى نور الدين -محمد بن محمد بدر الدين بن شمس الدين الدميرى- محمد بن محمد بدير بن بدر الدين العباسى المعروف بابن العجمى - المولوى السفطى - القاضى الشافعى - الشرقى الانصارى - محمد ابن أحمد بن يوسف بن حجاج القاضى ولى الدين السفطى- الأتابكى تمراز- معين الدين شمس - الزينى بركات بن موسى - الثقة بالماريستان المنصورى - عثمان بن على بن عثمان بن إسماعيل بن يوسف ابن خطيب جبرين - زين الدين أبو يحيى زكريا الأنصارى- وقفية السلطان قلاوون على البيمارستان المنصورى - ديباجة وقفية السلطان الملك المنصور قلاوون- وقفية الأمير عبد الرحمن كتخدا- الأطباء الذين عملوا بالبيمارستان المنصورى على طول العصور- أحمد بن يوسف بن هلال بن أبى البركات - الشيخ ركن الدين بن القويع - محمد بن إبراهيم بن ساعد شمس الدين المعروف بابن الأكفانى- عمر بن منصور بن عبدالله سراج الدين البهادرى - محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو الوفا- تقى الدين الكرمانى - محمد بن على بن عبد الكافى بن عبد الواحد بن محمد بن صغير - عبد الوهاب بن محمد بن محمد بن طريف - محمد ابن عبد الوهاب بن محمد الصدر بن البهاء السبكى- محمد بن أحمد بن إبراهيم الشمس التفهنى - محمد بن محمد الدين القوصونى- على بن محمد بن محمد بن على - شهاب الدين بن الصائغ - مدين بن عبد الرحمن القوصونى - خضر بن على بن الخطاب المعروف بالحاج باشا- على بن جبريل - الشريف السيد قاسم بن محمد التونسى- المارستان المنصورى فى

نظامه العصرى - الأطباء العصريون الذين تولوا العلاج فى مارستان قلاوون- الدكتور حسين بك عوف- الدكتور محمد عوف باشا -الدكتور سعد سامح بك- الدكتور محمد شاكر بك - الدكتور محمد طاهر بك- الدكتور سالم هنداوى بك .

- البيمارستان المؤيدى
- وقف البيمارستان المؤيدى
- بيمارستان العراق والجزيرة
- بيمارستان بغداد
- بيمارستان البرامكة
- بيمارستان أبى الحسن على بن عيسى
- بيمارستان بدر غلام المعتضد
- بيمارستان السيدة
- البيمارستان المقتدرى
- الأطباء الذين خدموا البيمارستان المقتدرى:

يوسف الواسطى - جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع

- بيمارستان ابن الفرات
- بيمارستان الأمير أبى الحسن بجكم
- بيمارستان معز الدولة بن بويه
- البميارستان العضدى
- الأطباء الذين عملوا بالبيمارستان العضدى:

جبريل بن عبيدالله بن بختيشوع - أبو الحسن على بن إبراهيم بن بكنس - أبو الحسن على بن كشكرايا- أبو يعقوب الأهوازى - أبو عيسى بقية - نظيف النفس الرومى- أبو الخير الجرائحى - أبو الحسن بن تفاح - الصلت - أبو نصر الدحنى - بنو حسون - عبد الرحيم بن على المرزبان - أبو الفرج بن الطيب - أبو الحسن بن سنان - هارون بن صاعد - أبو الحسن على بن هبة الله - أمين الدولة بن التلميذ- جمال الدين بن اتردى - ابن المارستانية - أبو على بن أبى الخير مسيحى.

- بيمارستان محمد بن على بن خلف ببغداد
- بيمارستان واسط
- البيمارستان الفارقى بميافارقين
- بيمارستان باب محوّل
- بيمارستان الموصل
- بيمارستان حران
- بيمارستان الرقة
- بيمارستان نصيبين
- بيمارستان الشام.
- بيمارستان الوليد بن عبد الملك
- بيمارستان انطاكية
- الأطباء الذين عملوا به: ابن بطلان
- البيمارستان الصغير بدمشق
- البيمارستان الكبير النورى
- الأطباء الذين عملوا فى البيمارستان الكبير النورى:

مهذب الدين النقاش - موفق الدين بن المطران - ابن حمدان الجرائحى - أبو الفضل بن عبد الكريم المهندس - موفق الدين عبد العزيز - كمال الدين الحمصى- رشيد الدين على بن خليفة- مهذب الدين عبد الرحيم بن على - مهذب الدين أحمد بن الحاجب - ابن اللبودى - عمران الاسرائيلى - سديد الدين بن رقيقة - أحمد بن عبدالله بن الحسين الدمشقى- سعد الدين عبد العزيز - رضى الدين الرحبى جمال الدين بن الرحبى - شرف الدين بن الرحبى شمس الدين محمد الكلى - عز الدين بن السويدى - عماد الدين الدنيسرى - بدر الدين بن قاضى بعلبك - جمال الدين بن عبدالله بن عبدالسيد- عبدالله بن عبد الحق

- البيمارستان النورى العتيق بحلب
- ممن عرف من الأطباء الذين خدموا بالبيمارستان النورى بحلب: هاشم بن محمود.
- بيمارستان باب البريد

- بيمارستان أصبهان
- بيمارستان شيراز
- بيمارستان بنيسابور
- دار المرضى بنيسابور
- بيمارستان زرنج
- بيمارستان تبريز
- بيمارستان مرو
- بيمارستان خوارزم
- بيمارستان بلاد الروم (أى الأناضول)
- بيمارستان قيسارية أو دار الشفا
- المدرسة الشفائية بسيواس
- مدرسة قوتلوغ تور كان بإيران
- بيمارستان أماصية
- بيمارستان ديوركى
- بيمارستان محمد الفاتح

ومن الأطباء الذين عملوا فيه : المولى محمود بن الكمال

- بيمارستان السلطان سليمان
- بيمارستان أدرنه- من الأطباء الذين عملوا فيه: الحكيم شهاب الدين يوسف
- بيمارستان أخرى ببلاد الروم
- بيمارستانات قصطامونى أو بيمارستان على فرنانه
- بيمارستان علاء الدين قيقباد بقونية
- دار الطب ببروسه
- بيمارستان للجذام بأدرنه
- بيمارستان بايزيد الثانى بأدرنه

فهرست البيمارستانات ودور الشفا ومدارس العلاج

مرتبة على حروف الهجاء

فهرس الأشكال

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

الناظر فى مشهد الحضارة الإسلامية ، يجد أنها تمثلتْ منجزات الحضارات السابقة. وبدأ إسهامها يشف عن قيم الخطاب الإسلامى الذى يؤكد على إيمان معتنقيه باليهودية والمسيحية. ومن ثم ، فالتأصيل المعرفى لقبول «الآخـر» والتلاقى معه، يستند- فى مرجعيته من تاريخ الأديان والحضـارة – لهذا التراكم المعرفى الذى كان من عطائه وتجلياته ، احتفال الخلفاء المسلمين بعلماء ممن يدينون باليهودية أو المسيحية ، وأغدقوا لهم العطايا والهبات . وهذه الشفافية فى السلوك ، وقبول الآخر، والرحابة فى الانفتاح على ثقافته، تفسر لنا علة معاملة الإسلام لأهل الذمة ، وكان هؤلاء من الروافد الرئيسة التى شكّلت عصب الحضارة الإسلامية والتمدن الإسلامى .

ولعل هذه الحضارة ، وقد قامت فى مرتكزها الفلسفى على «الجدال» ، ما عزز من تهيئة المناخ ، لمواجهة النصوص بين أصحاب الديانات ، والمذاهب الفلسفية والكلامية بأطيافها ، وأفضى فى التحليل الأخير إلى إرساء تقاليد قبول الآخر ، باعتباره من أبناء تلك الحضارة التى تظلهم بظلها وتكلؤهم برعايتها ، فالحكمة لا وطن لها .

وثمة قضيتان تطالعان المتأمل فى هذين الكتابين الكتاب الأول: من تاريخ الطب الإسلامى للدكتور قاسم غنى، وقد كان سفيراً سابقًا لإيران فى القاهرة ، والكتاب نُشر مُنجمًا فى مجلة الرسالة فى الأعداد التى تبدأ على التوالى من مايو ١٩٤٨ إلى يوليو ١٩٤٨ .

وهذه المقالات المجموعة التى تُنشر لأول مرة فى كتاب، تطرح قضية نشأة الطب الإسلامى، والمراكز العلمية آنذاك، وتكشف من خلال التحليل التاريخى عن انفتاح الحضارة الإسلامية على «الآخر» فى حضارات الشرق القديم : الحضارة الساسانية واليونانية، وممن شاد لبنات تلك الحضارة الإسلامية ، علماء من أهل الذمة، أى أن تلك الحضارة ، وقد كانت فى عافيتها، واثقة من نفسها، لايمثل الآخر بالنسبة لها حسّاسية بقدر ما يشكل رافداً تغتذى منه تلك الحضارة وتزدان .

أما الكتاب الثانى : «تاريخ البيمارستانات فى الإسلام فهو يقدم مشهداً جامعًا حيث يستوعب فى بعده الجغرافى المراكز الطبية فى ربوع العالم الإسلامى، ويرصد فى بعده

التاريخى تطور تلك المراكز الطبية والعلاجية، ما يكشف عن رعاية الدولة لأبنائها ، على نحو ما سنرى لاحقًا .

واللافت فى المشهد العام الذى نطل عليه من كتاب د. أحمد عيسى ، أنه قدم دلائل الدور الاجتماعى الذى قام به «نظام الوقف» «فى المجتمع الإسلامى . وفى ظل رؤية المسلم للعالم التى ترى أن التكافل الاجتماعى فى الاسلام ، نهض على مواجهة النفس حيث تنظر ما قدمت لغد، ما يرسم صورة زاهية للحضارة الإسلامية التى أثْرَتْ مجتمعاتها بما قدمت من خدمات للمجتمع الأهلى بمؤسساته ، كما سنلاحظ بعد أن نصحب القارئ فى متنزه من متنزهات الحضارة الإسلامية؛ أعنى العناية بصحة الأبدان والأرواح .

مصادر الطب الإسلامى

كان بدء نقل الكتب العلمية إلى اللغة العربية بعد استقرار الحكم الإسلامى، وكان أكثر المترجمين من أمم غير عربية ، وأحيانًا من غير المسلمين ، كالسريان والعبريين، ومن الفرس، والنصارى واليهود والمجوس ، غير أن النهضة العلمية الحقيقية بدأت فى العصر العباسى، وكان للفرس حينذاك نفوذ كبير، وشأن فى دولة الخلافة عظيم. ففى ذاك العصر ترجمت كتب علمية على درجة كبيرة من الأهمية، ولاسيما فى زمن خلافة المأمون، فقد حصل العرب بطريق الفتح، أو بإيفاد بعوث خاصة إلى بلاد الإمبراطورية البيزنطية، أو بالشراء أو المبادلة على كثير من الكتب اليونانية النفيسة ، أو ترجمتها السريانية ، فجمعوها فى بيت الحكمة وقام بتعريبها مهرة المترجمين .

وهذه الكتب المترجمة إلى العربية، هى التى ترجمت من العربية إلى اللاتينية فى القرون الوسطى، وترجمت معها المؤلفات الطبية لمحمد بن زكريا الرازى، وعلى بن العباس المجوسى الأهوازى، والشيخ الرئيس ابن سينا ، وأبى القاسم الزهراوى وأضرابهم ...

وقد تعرف المسلمون من خلال ترجمة مصادر الطب الأصلية ، وبعد أن تم البحث العلمى وأنشئت البيمارستانات والمعاهد العلمية بدأ دور استقلال الأطباء المسلمين فى بحثهم وتأليفهم. وفى هذا العهد شرع هؤلاء فى تدوين ما فهموه من التراجم فى مؤلفات خاصة ، حسب فهمهم وذوقهم الخاص، وأضافوا إلى ذلك كله خلاصة مطالعاتهم وتجاربهم الشخصية، فكان من نتاج ذلك كتب مستقله فى الطب للمؤلفين المسلمين .

وكان لمسلمى فارس إضافات مهمة لسابقتهم وماضيهم الطويل فى الطب منذ عهد الساسانيين ، بفضل المدارس الطبية العظيمة التى كانت فى فارس ومنها مدرسة جنديسابور.

أما المغرب فقد سطع نجم أطبائها كابن رشد، وابن زهر وخلف بن العباس الزهراوى الشهير بجراح العرب، وابن جلجل وافد، وإسحق بن عمران ، وأحمد بن الجزار القيروانى وأضرابهم. وقد ترك هؤلاء تأثيرات علمية ، وسطع نجمهم فى الأندلس فوفد إليهم طلبة العلم من بلاد أوربا للدرس على أيديهم .

ويذهب د. قاسم غنى إلى أن معظم الأطباء الكبار من المسلمين فى عصر النهضة العلمية كانوا من الفرس، وكان أطباء هذه الحقبة من أصحاب الرأى والنظر، ممن وصلوا إلى مرحلة الرشد العلمى، فتجاوزوا مرحلة التقليد والتسليم لآراء أسلافهم، إذ كانوا يبذلون غاية الجهد ويعملون رأيهم ، فيميزون بين الصحيح والسقيم من الآراء. وخير مثال لهؤلاء محمد بن زكريا الرازى الذى جمع فى مؤلفيه «المنصورى» و «الحاوى» معارف عصره فى علوم الطب التى كانت موجودة فى زمنه من مؤلفات من سبقه من الأطباء من يونانية وغيرها، ونقدها نقداً علمياً.

كما أنه ألف كتاباً فى الحصبة والجدرى ، ولم يكن أحد من الأطباء الذين سبقوه ، قد عرف أن هذين المرضين مرضان مستقلان، وله غير هذه الكتب رسائل يرصد فيها تجربته الشخصية ومطالعاته ، وخبراته فى البيمارستانات ، وجلساته بجانب فراش المرضى، ورسائل أخرى فى المبادئ التى يجب على الطبيب أن يتحلى بها، وأن يسير بموجبها فى ظل احترام أخلاقيات المهنة.

ويرسم د. أحمد عيسى صورة دقيقة لما كانت عليه البيمارستانات فقد كانت تنقسم قسمين منفصلين: قسم للذكور وآخر للإناث . وكل قسم مجهز بما يحتاجه من آلات وخدم من الرجال والنساء وفى كل قسم منهما قاعات مختلفة . فقاعة للأمراض الباطنة، وأخرى للجراحة ، وثالثة للكحالة، ورابعة للتجبير إلى غير ذلك من القاعات .

وكانت هذه الأقسام الخاصة مقسمة بدورها إلى شعب وأقسام فرعية ، مثل الفرع الخاص بالمحمومين ، والفرع الخاص بالممرورين ، أى المجانين ، والفرع الخاص بالمصابين بالأمراض العادية والإسهال إلى غير ذلك . وكانت البيمارستانات تقام فى أماكن حسنة الموقع، طيبة المناخ، وكان من شروط انتخاب المحل المناسب لبناء البيمارستان أن يكون فيه ماء جار .

وكان البيمارستان على نوعين: ثابت ومحمول، فالثابت ما كان بناء ثابتًا فى جهة من الجهات لاينتقل منها. وهذا النوع من البيمارستانات كان كثير الوجود فى كثير من البلاد

الإسلامية، لاسيما فى العواصم الكبرى، كالقاهرة ودمشق وبغداد، ولايزال أثر بعضها باقيًا إلى الآن كالبيمارستان المنصورى (قلاوون الآن)، بالقاهرة، والبيمارستان المؤيدى بالقرب من القلعة بالقاهرة أيضا، والبيمارستان النورى الكبير بدمشق، والبيمارستان القيمرى بدمشق، أيضا، وبيمارستان أرغون بحلب .

أم البيمارستان المحول فهو الذى ينقل من مكان إلى آخر حسب ظروف الأمراض والأوبئة، وانتشارها وكذا الحروب ، وهو المعبر عنه فى العصر الحديث بكلمات Ambulance بالإنجليزية والفرنسية، Amulanze بالإيطالية، وFeldlozareth بالألمانية .

وكان هذا النوع من البيمارستانات معروفًا لدى خلفاء الإسلام وأطبائهم ، بل الراجح- فيما يرى د . أحمد عيسى- أن يكونوا هم أول من أنشأه ، وهو عبارة عن مستشفى مجهز بجميع ما يلزم للمرضى والمداواة ، من أدوات وأدوية وأطعمه وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة، وكل ما يعين على ترفيه الحال على المرضى والعجزة والمزمنين والمسجونين، ينقل من بلد إلى آخر من البلاد الخالية من البيمارستانات الثابتة، أو التى يظهر فيها وباء أو مرض معدٍ .

وكان لكل بيمارستان شرابخاناه أى صيدلية والكلمة محرفة عن شرابخانة الفارسية ومعناه خزانة الشراب. ولكل شرابخانه (مهتار) أى رئيس وهذه الكلمة أيضًا محرفة من مهتر الفارسية بمعنى الرئيس أو الكبير ، وتحت يده غلمان عنده برسم الخدمة يطلق على كل احد منهم «شراب دار» .

واللافت كثرة المصطلحات الطبية الفارسية الدخيلة فى العربية مما يعكس الأثر الفارسى، وأثر مدرسة جنديسابور منذ عهد الساسانيين ، حتى إن العرب لم يجدوا حرجًا فى استعمال نفس المصطلحات بلغتها الفارسية ، وبتحريف بسيط فى كتاباتهم ومحاوراتهم . فكلمة بيمارستان. أو مخففتها «مارستان» وهى كلمة شائعة ومتداولة فى اللغة العربية، أكثر من كلمتى المستشفى أو دار الشفاء .

وكما أن اللغة اللاتينية كانت لغة العلم فى جميع البلاد الأوربية طوال القرون الوسطى أصبحت اللغة العربية ، ومع ازدهار الحضارة الإسلامية ، لغة العلم والعلماء. وكان العلماء والمسلمون من كل جنس ولغة يؤلفون مصنفاتهم بها، وبمرور الزمن واستقرار دعائم النهضة والحضارة الإسلامية أصبحت المصطلحات العلمية قارة فى أروقة العلم.

ويلتفت د. قاسم غنى إلى خصائص تميز اللغة العربية ، فهى فى رأيه من ا... ات العالم، ففى اللغة العربية ، مثلاً وزن «فُعَال» وأكثر الكلمات التى على هذا الوزن، مثل ...اع وزُكام وجُزام ودُوار وخُمار وغيرها تدل على الأمراض ، وتلك - فى رأيه- مزية قلما تتوافر فى لغة أخرى.

وهو يشير إلى وضع العرب ، كلمات عربية تؤدى معانى الكلمات اليونانية بدقة مثل كلمة تشخيص مقابل كلمة دياجنوسيس Diagnosis ، كما أنهم كانوا فى أحيان أخرى يأخذون نفس الكلمات اليونانية بصورتها الأصلية مع تحريف بسيط يناسب النطق العربى مثل كلمة «نوسنطاريا» و«إيلاوس» و«نيايتوس» .

ويقف د. أحمد عيسى أمام دور الرقابة على الأطباء والصيادلة، من خلال استدعاء وظيفة المحتسب والحسبة فى الإسلام . ووظيفة الحسبة فى ذلك الزمن، بمثابة التفتيش والرقابة والرقابة فى هذه الأيام على الأطباء والصيادلة . ووظيفة الحسبة التحدث فى الأمر والنهى، والتحدث على المعايش والصنائع والأخذ على ي الخارج عن طريق الصلاح فى معيشته وصناعته والحسبة مشتق من قولك : حسبك بمعنى اكفف لأنه يكفى الناس مؤونة من يبخسهم حقوقهم (الماورد: الأحكام السلطانية) . وكان من جملة وظائف المحتسب - وكانت يده مطلقة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر- مراقبة الأطباء والكحالين والجراحين والمجبّرين ، وأن يأخذ عليهم عهد أبقراط ويحلفهم أن لايعطوا أحد دواء مرًا ولايركبوا له أسماء، ولاينكروا للنساء الدواء الذى يسقط الأجنة، ولا للرجال الدواء الذى يقطع النسل، ولايفشوا الأسرار، ولايهتكوا الأستار إلى غير ذلك من الأمور التى يجب على الأطباء مراعاتها فى عملهم .

ويلقى د. أحمد عيسى الضوء على النظام الإدارى للبيمارستان والتقسيم الفنى. فلم تكن البيمارستانات تسير اتفاقًا بغير نظام ولاترتيب ، بل كانت على نظام تام وترتيب محمود تسير أعمالها على وتيرة منتظمة.

كانت البيمارستانات منقسمة قسمين منفصلين عن بعض ، قسم للذكور وقسم للإناث . وكل قسم مجهز بما يحتاج من آلة وعدة وخدم وفراشين من الرجال والإناث وقوّام ومشرفين.

إجازة التطبيب

كان الأطباء فى أول عهد الدولة الإسلامية تكتفى لمعاناة التطبيب بقراءة الطب على أى طبيب من النابهين فى عصره ، حتى إذا آنس فى نفسه القدرة على مزاولة الصنعة، باشرها بدون قيد أو شرط. وأول من نظمّ صناعة التطبيب وقيدها بنظام خاص حرصاً على مصلحة الجمهور، هو الخليفة العباسى المقتدر بالله جعفر بن المعتضد الذى تولى الخلافة سنة ٢٩٥هـ، ففرض على من يريد معاناة التطبيب تأدية امتحان الحصول على إجازة تخوله هذا الحق بين الناس .

العلاج النفسى

وفى خطط مصر وهو المعروف باسم (وصف مصر) التى وضعتها الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ إلى سنة ١٨٠١ قال المسيو جومار Gomar ، أحد علماء الحملة الفرنسية الذين استقدمهم بونابرت مع الحملة : أنشئ فى القاهرة منذ خمسة قرون أو ستة عدة مارستانات تضم الأعلاء والمرضى والمجانين ولم يبق منها سوى مارستان واحد هو مارستان دمشق، وقد كان مخصصاً للمجانين، ثم جعل لقبول كل نوع من الأمراض ، وصرف عليه سلاطين مصر مالاً وافراً ، وأفرد فيه لكل مرض قاعة خاصة، وطبيب خاص وللذكور فيه قسم منعزل عن قسم الإناث.

وكان يدخله كل المرضى فقراء وأغنياء بدون تمييز ، وكان تجلب إليه الأطباء من مختلف جهات الشرق ، ويجزل لهم العطاء ، وكانت له خزانة شراب ، صيدلية مجهزة بالأدوية والأدوات . ويقال : إن كل مريض كانت نفقاته ديناراً ، وكان له شخصان يقومان بخدمته . وكان المؤرَّقون من المرضى يعزلون فى قاعة منفردة يشنفون فيها آذانهم بسماع ألحان الموسيقى الشجية أو يتسلون باستماع القصص يلقيها عليهم القُصاص .

وكان المرضى الذين يستعيدون صحتهم ويتماثلون للشفاء يعزلون عن باقى المرضى فى فترة نقاهة ويمتعون بمشاهدة الرقص، وكانت تمثل أمامهم الروايات المضحكة . وكان يعطى لكل مريض حين خروجه من المارستان خمس قطع من الذهب، حتى لايضطر إلى الالتجاء إلى العمل الشاق فى الحال.

وكانت قاعات المرضى تدفأ بإحراق البخورأو تبرد بالمراوح الكبيرة الممتدة من طرف القاعة إلى الطرف الثانى ، وكانت أرض القاعات تغطى بأغصان شجر الحناء، أو شجر الرمان، أو شجر المصطكى، أو بسعاليج الشجيرات العطرية.

وكان البلسان يؤتى به من عين شمس إلى المارستان لعلاج المرضى بالغناء أو بالعزف على الآلات الموسيقية ، ولتخفيف ألم الانتظار وطول الوقت على المرض، كان المؤذنون فى المسجد يؤذنون فى السحر، وفى وقت الفجر بساعتين قبل الميعاد حتى يخفف قلق المرضى الذين أضجرهم السهر وطول الوقت .

* * *

لقد حرصت ، فى هذا التقديم، أن يكون التاريخ حاضراً فينا ، حضور الأب فى الابن. إننا حين نلوذ بالماضى ، فإنما لنستمد منه المدد والعون على مواجهة تحديات الحاضر . وهنا نستدعى مغزى بيت «شوقى» :

وإذا فاتك التفات إلى الما   ضى فقد غاب عنك وجه التأسى

وفى هذا السياق جاءت فكرة جمع كتاب د. قاسم غنى السفير الأسبق لإيران فى القاهرة، وقد نُشر منجما فى مجلة الرسالة فى ١٩٤٨ ، كما أشرت سابقًا ، وفى هذا الكتاب قام المؤلف برسم صورة عامة للمنجز الإسلامى فى فرع من فروع المعرفة (تاريخ الطب) الذى أشرقت شمسه على الحضارة الإسلامية.

ومن هذا المنظار جاء التلاقى مع الكتاب القيِّم للدكتور أحمد عيسى: «تاريخ البيمارستانات فى الإسلام الذى صدر فى (١٩٣٩) (٤).

وبهذين الكتابين جدّل هذا الاصدار الجديد بين موقفين الموقف (العام) ، والموقف (الخاص) فى محاولة لتقديم شكل من أشكال الإرث فى مفهوم العمل الخيرى والطوعى، والوقف فى القلب منه (٣). والنظر فى إمكانيات تطوره فى حاضر المجتمع العربى ومستقبله .

هوامش

(١) من الأهمية أن نتعرف إلى التأصيل المعرفى والتاريخى للوقف. فالكلمة «الْوَقْف» بالفتح وسكون القاف لغة الحبس والمنع ، كما فى شرح الشاطبى. وهو عند الفقهاء حبس العين على ملك الواقف والتصدق بالمنفعة العارية .... تعود منفعته إلى العباد ، انظر التهانوى ، **موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، الجزء الثانى ، مكتبة لبنان ، ناشرون، ص١٨٠٢ .

(٢) عن الاهتمام المعاصر بالمجتمع المدنى ومفهومه ، وأنشطته انظر: د. أحمد أبوزيد ، **المعرفة وصناعة المستقبل**، كتاب العربى ، العدد ٦، ١٥ يوليو ٢٠٠٥ ، ص ص٥٣، ٥٤ .

من المهم أن نشير إلى أن أنشطة المجتمع المدنى أنشطة طوعية تختلف اختلافا جوهريا عن أنشطة الحكومات ، كما أنها تختلف عن الأنشطة الاقتصادية والمالية المتعلقة بأخلاقيات السوق، لأنها تبحث وراء الخير العام والصالح العام، وليس وراء الربح المادى . ولذا فكثيرا ما يشار إلى المجتمع المدنى بأنه القطاع الثالث Third Acctor . م.ن.

(٣) انظر : ابراهيم البيومى غانم ، المجلة العربية للعلوم الانسانية، العدد ٨٥ / ٢٢ / ٢٠٠٤ ، ص ص١٩٧-٢٠٠ .

(٤) كان الدكتور أحمد عيسى «بك» عضواً بعدة مجامع وهيئات علمية ومصرية وعربية، ودولية منها: المجمع العلمى المصرى والاكاديمية الدولية لتاريخ العلوم بباريس والمجمع العلمى العربى بدمشق، والمجلس الأعلى لدار الكتب الملكية ، واللجنة العليا لمتحف فؤاد الصحى .

وترك تراثًا ضخمًا منه ما هو مطبوع مثل: «**المحكم فى أصول الكلمات العامية**»، مطبعة عيسى البابى الحلبى، ١٩٣٩ وهذا الكتاب الذى يظهر فى إصدار جديد، وقد نشر فى طبعته الأولى ضمن مطبوعات جمعية التمدن الإسلامى، المطبعة الهاشمية بدمشق ١٣٥٧هـ / ١٩٣٩م ، وكتاب . تاريخ البيمارستانات فى العهد الإسلامى (طبع بالفرنسية) ، **وكتاب صحة المرأة فى أدوار حياتها** ، وءأمراض النساء » جزءان كبيران «ترجم» ، وكتاب «**التهذيب فى أصول التعريب**» ، وكتاب «**التقسره أى الاستدلال بأحوال البول على المرض**» وكتاب «**آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب**» و «**معجم أسماء النبات باللاتينية والفرنسية والانكليزية والعربية**» ، وكتاب «**الغناء للأطفال عند العرب أو كتاب الترقيص** ».

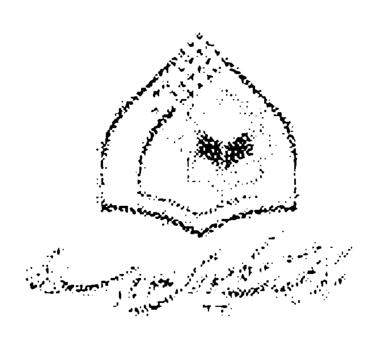
أما المصنفات المخطوطة فمنها: **رسالة مختصرة فى علم التشريح**. «**والجامع لأشتات النبات** » وهو يحتوى ما فى اللغة العربية من أسماء النبات » و«**تاريخ علم النبات عند العرب**» و«**ألعاب الصبيان عند العرب**» و«**الدعاء للإنسان وعليه**»، و«**كتاب تاريخ الأطباء من القرن السابع الهجرى إلى عصرنا**» هذا وهو **ذيل لعيون الأنباء لابن أبى أصيبعة** و«**تاريخ حياة ابن سينا** ومؤلفاته ومكان وجودها . و«**المستحسن المأثور من كلام الأطباء** » و«**معجم مصطلحات العلوم الطبية**» يحتوى حو سبعين ألف مصطلح بالانكليزية والفرنسية والعربية.

الكتاب الأول

من تاريخ الطب الإسلامى

صاحب السعادة دكتور قاسم غنى

سفير إيران بمصر (سابقا)



من تاريخ الطب الإسلامى

لصاحب السعادة الدكتور قاسم غنى

سفير إيران بمصر

تقديم

سعادة الدكتور قاسم غنى سفير إيران بمصر شخصية علمية من الطراز الأول، لم يمض عليه فى مصر إلا أشهر معدودات ومع ذلك استطاع أن يكسب لنفسه ولأمته أصدقاء ممتازين، لا فى المحيط الاجتماعى والدبلوماسى فحسب، ولكن فى المحيط العلمى أيضًا ، وقد كان ذلك واضحًا فى قاعة المغفور له على إبراهيم باشا بكلية الطب، ثم فى قاعة دار الحكمة حيث ألقى الدكتور السفير العالم محاضرته عن «تاريخ الطب الإسلامى» فكنت ترى الحاضرين مزيجًا مختلفًا ما بين سياسيين ووزراء وعلماء وأطباء وآباء روحانيين وغيرهم مما لم تألف قاعات المحاضرات فى مصر شهوده كثيرًا ، وكلهم أصدقاء للدكتور قاسم غنى معجبون بعلمه وأدبه وفضله .

ولقراء الرسالة عهد بهذا العالم البحاثة من قبل ، فقد قدمه إليهم سعادة الدكتور عبد الوهاب عزام بك فى عدد من أعدادها . وهو الآن مهتم بنقل كتابه العظيم الذى ألفه بالفارسية عن «التصوف الإسلامى» إلى اللسان العربى.

وقد ظفر صديق من أصدقاء الدكتور والرسالة بهذا البحث العلمى القيم، الذى ألقى فى كلية الطب ودار الحكمة فآثر به قراء الرسالة، وها نحن أولاء نقدمه فى أعداد متوالية شاكرين معجبين .

«الرسالة» ....

(١)
طب العرب فى الجاهلية

فى بدء ظهور الإسلام عندما كانت الشريعة الجديدة لم تتجاوز بعدُ حدود القبائل العربية فى الحجاز إلى سائر بلاد العالم كان معظم القبائل العربية، مثل بقية القبائل البدوية لايهتم بالعلوم والفنون المختلفة ؛ وكان جل اهتمامهم منصبًا على التعمق والتوسع فى علوم العربية وأحكام الشريعة الإسلامية.

وبما أن معالجة المرضى وتمريضهم من الأمور الطبيعية لدى الإنسان ، وأن لجماعات البشر حتى فى بداوتها غريزة حفظ الحياة، وأن حاجتها لتسكين آلامها وأوجاعها تجبرها على البحث عن العلاج اللازم لأدوائها وأوجاعها؛ فكان لابد من أن ينشأ بينها نوع من الطب والعلاج البدائى . وقد كان . فقد ظهر وشاع طب من هذا القبيل بين القبائل العربية البدوية.

وقد كان الطب الشائع بين القبائل العربية فى مبدأ ظهور الإسلام عبارة عن بعض المعالجات التجريبية، مقرونة بأعمال السحر والخرافات ، كما كانت الحال لدى أكثر القبائل الرحل، وكما لايزال شائعًا إلى يومنا هذا لدى بعض الأقوام غير المتحضرة ، فإن عوامل شتى كالمصادفات والتجارب والاختبارات ومشاهدة الطبيعة، والنظر فى أحوال المرضى واتباع الغرائز الطبيعية والدوافع الفطرية وتقليد الحيوان، والتدبر والتفكر فى أعماله، دفعت الإنسان للوصول إلى تدابير طبية، وهدته إلى اتخاذ وسائل علاجية ، ثم أضيف إلى ذلك كله بالتدريج، عقائد ومعارف وافتراضات صحيحة وغير صحيحة مثل الشبه الموجود بين الإنسان والعالم الأكبر، وتأثير النجوم والكواكب والأجرام السماوية الأخرى فى الإنسان، وعبادة الأرواح ، والاعتقاد بتناسخها ، وعودتها إلى الأجسام ، والإيمان بوجود الجن والشياطين والأرواح الخبيثة ، وحلول الشياطين والأرواح الشريرة فى بدن الإنسان وتسبيبها للآلام المبرحة ، إلى غير ذلك من المعتقدات ، فتكون من مجموع ذلك كله نوع من الطب، كما أشرنا إليه آنفًا .

وقد كان جماعة من الشيوخ المجربين ومن بعدهم أبناؤهم والمتصلون بهم ممن كانوا يشاهدون التجارب والمعالجات التى يقوم بها الشيوخ ، كانوا يقومون بعلاج المرضى؛ وهؤلاء يمكن اعتبارهم أطباء تلك الحقب. وكان عدد قليل من العرب ممن درسوا الطب فى البلاد المجاورة لجزيرة العرب، ولاسيما إيران يزاولون مهنة الطب بين قومهم ، منهم الحارث بن كلدة

الذى كان قد درس الطب فى مدرسة جنديسابور، وابن أبى رمثة التميمى، وكان جراحًا معروفًا، وزينب ، وقد اشتهرت بمعالجة الرمد والجراحات .

وقد كان ظهور الإسلام سببًا فى لم شعث القبائل العربية البدوية، إذ أنشأ جامعة سياسية ودينية واجتماعية قوية لهم، استطاعت فى زمن وجيز أن تقلب أوضاع العالم المتحضر حينذاك رأسًا على عقب ، وأن تخلف امبراطوريتى الفرس والروم.

وقد كان من آثار غلبة العرب على أقوام كانت تسبقها فى الحضارة والعلوم والفنون أن اقتبس العرب كثيراً من علوم تلك الأقوام وفنونها ، فإن تقدمهم السريع واستقرار مدنيتهم ، كانا يستلزمان هذا الاقتباس .

ولابد لمعرفة مصادر الطب الإسلامى من أن نلقى نظرة إجمالية على تاريخ الطب قبل الإسلام ، وفى العصر الأول الإسلامى لنعرف كيف ومن أى الأقوام وعن أى طريق وصلت تلك العلوم! ومن جملتها الطب إلى العرب، والحالة التى كانت عليها تلك العلوم عندما تلقاها المسلمون عنها. وبعد ذلك نستطيع أن نعرف إلى أى حد خدم المسلمون هذه العلوم ومبلغ ما نالته تلك العلوم على أيديهم من تقدم وعظمة.

مصادر الطب الإسلامي

لقد أسلفنا القول فى أن الأمم القديمة جميعها كان لها نوع من الطب والعلاج، وأن تاريخ ظهور الطب هو تاريخ ظهور النوع البشرى ، أعنى أن الأمراض والأوجاع المختلفة لازمت الإنسان الأول منذ بدء الخليقة وأن الآثار التاريخية التى اكتشفت عن الإنسان الأول تدل على وجود آثار بعض الأمراض لديه، ومن الثابت أن الإنسان- مثل سائر الحيوان- كان يبحث بحكم الغريزة والفطرة والإيحاء الطبيعى عن علاج لتسكين آلامه وإبراء أمراضه .

وقد كان لدى بعض الأمم القديمة كالصينيين وسكان ما بين النهرين ومصر وإيران والفينيقيين واليهود طب مدروس مدون، وكان الطب يعتبر لديهم مهنة خاصة لها ناحيتان علمية وعملية، غير أن اليونان، من الأمم القديمة ، تعتبر الأمة التى بلغ الطب لديها شأوًا عظيمًا من الرقى ، وكان له لديها شأن جليل .

وكان بلوغ الطب هذه المنزلة الرفيعة لدى اليونان بفضل **بُقراط** الذى يُدعى بحق (أبا الطب).

لقد عاش **بقراط** فى عصر من أزهى عصور الرق* العلمى فى اليونان، أعنى عصر بركليس الذهبى الذى ظهر فيه كثير من عظماء اليونان أمثال توسيديد ، **وفدياس وسوفوكل وأوريبيد**. ويعد **بقُراط** بحق أعظم أطباء الأمم القديمة علمًا وعملا، وقد بقى زهاء ألفى عام شخصية طيبة** مسيطرة على عالم الطب فى الدنيا كلها، وقد كانت أقواله وآراؤه المرجع الوحيد فى هذا الباب وعليها المعول طوال هذه الحقبة حتى النهضة الأوروبية. وإن الشطر الأكبر من المعارف التى رتبها ونظمها بقراط عن الطب ، مأخوذ ومقتبس من سائر الأمم أو اليونانيين السابقين عليه فى الزمان، غير أن له فضل دراسة كل هذه المعارف ونقدها والوصول عن طريق النقد والبحث العلمى إلى معارف ومعلومات جديدة.

وقد كانت هذه هى الطريقة التى جرى عليها كثير من مواطنيه أمثال **أفلاطون وأرسطو** كل فى بابه- فقد اقتبسوا من معارف الأمم التى سبقتهم أو التى عاصرتهم ، واستفادوا منها،

---

* هكذا فى الأصل ، والصواب ، «الرقى» انسجامًا مع السياق .

** هكذا فى الأصل ، والصواب ، «طبية» انسجامًا مع السياق .

ولكنهم لم يكتفوا بذلك، بل درسوا تلك المعارف، ونقدوها نقداً علميًا دقيقًا ، وفرقوا بين أصولها وفروعها وغثها وسمينها ورتبوا استنتاجاتهم وبوبوها على خير وجه ، ووضعوها فى متناول طالبى العلم فى العالم أجمع .

قد خلّص بقراط الطب من أجواء الهياكل والمعابد المشبعة بالأسرار والألغاز ، وحرره من قيود الكهنة ورجال الدين، وأقامه على أسس العلوم الحيوية الصحيحة ، وأرجع المرض والحياة لقوانين طبية ثابتة ، وبرهن على أن الوصول إلى تلك القوانين الثابتة ، مكن عن طريق دراسة الطبيعة دراسة دقيقة وافية ، كما بيّن الروابط التى تربط العلة بالمعلول. وقد جعل أساس كل بحوثه الطبية الدرس والتجربة بعد أن وازنهما بالنظر والاستدلال والمنطق واهتدى بهديهما، ولاءم بين التجارب العملية والأمور النظرية، وقد وُفق فى ذلك توفيقًا عظيماً .

يعتقد بقراط أن الإنسان جزء من الطبيعة والكون، وكما أن كل كائن حى فى هذا الوجود مرتبط بالطبيعة طبقًا لقواعد مقررة وقوانين ثابتة، كذلك الإنسان فإنه خاضع لهذه القواعد والقوانين نفسها؛ والموازنة بين العوامل الطبيعية هى الصحة والحياة؛ وإن قُوى الفرد كلها تهدف لإيجاد هذا التوازن والتعادل .

وعندما يختل هذا التوازن لعلل خارجة ، تبادر جميع قُوى الفرد لدفع هذه العوامل الخارجية والعلل الضارة وإيجاد التوازن المطلوب، وإقراره ، وأن مهمة الطبيب مقصورة على خدمة طبيعة الفرد ومساعدتها فى هذا المسعى الحيوى الذى تقوم به ، ولذلك كان يسمى الطبيب بخادم الطبيعة.

وحيث إن تشريح الجثث الإنسانية كان غير مستطاع حينذاك، وكان علم التشريح وعلم وظيفة الأعضاء ناقصين تبعاً لذلك، فإنّ المعارف التى كانت لدى بقراط عن الطب لم تكن كبيرة من حيث الكم، فإن دائرة معارفه عن الأمراض كانت ضيقة لايستطيع بها إيضاح تطورات المرض وتحولاته كما ينبغى ؛ غير أن معارفه كانت على مبلغ عظيم من الأهمية من حيث الكيف.

لقد بنى بقراط طريقته على أساس علمى متين، فقد فصل الطب عن الدين فصلاً تامًا وجعل حالة المريض نفسه أساسًا لعلاجه .

ويتضح من صيغة القسم المعروف بعهد بقراط ومن الرسائل الطبية التى ألفها ، أنه قد حدد بوضوح تام حقوق الطبيب ووظائفه وواجباته الأخلاقية والاجتماعية ، كما يتبين من ذلك كله أنه قد أضفى على هذه المهنة صورة خُلُقية ، وجعل منها عملاً إنسانيًا وقيامًا بالواجب

محتما، وكان هو نفسه مثلا حيًا للأخلاق الفاضلة من إيمان بالحق ودفاع عنه وحب للخير وإيثار وعطف على المرضى والموجعين ، وهمة عالية فى نشر العلم والعرفان وغيرة عليها لاتجارى .

وقد ترك بقراط للعالم مجموعة طبية تعتبر أقدم تراث طبى قدم للبشرية، وأثمن مجموعة ، ألا وهى المجموعة الأبقراطية Corpus Hippocraticum. وفيها بحوث عن جميع النواحى النظرية والعملية فى الطب؛ وتعد أهم مصادر الطب الإسلامى .

واحتذى إبنا **بقراط** وصهره وبعض تلاميذه من بعده حذوه وترسموا خطاه فى بحوثهم الطبية . وأضاف إليها **أفلاطون وأرسطو** بنظرتهما الفلسفية آراء فى كليات الطب . ثم ظهرت فى المدن وبعض الجزر اليونانية مجامع أو حلقات مهمة لدراسة الطب. وبرز كثير من الأطباء الكبار فى هذا المجال وكانوا جميعًا مع تفاوت فى الدرجة من شراح مؤلفات **بقراط** وآثاره إلى أن أصبحت الإسكندرية مركزًا للعلوم الطبية اليونانية ، وأجيز تشريح جثث الموتى وتقدم علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء تقدمًا كبيرًا .

فالاسكندرية كانت بالنظر لموقعها الجغرافى وماضيها الاجتماعى محل اختلاط شتى القبائل والأقوام الإفريقية والآسيوية والأوربية وكانت من أهم المراكز الاجتماعية والثقافية فى الدنيا القديمة ، لذلك تجمع فيها معارف مختلفة من مصادر شتى أضيفت هذه كلها إلى طب **بقراط**.

وقد انتشر طب اليونان بين الروم أيضًا، وكان معظم القائمين بمزاولة هذه المهنة من اليونانيين أنفسهم إلى أن ظهر فى القرن الثانى للميلاد، أستاذ عظيم آخر فى عالم الطب، وهو **جالينوس** ، أجل، كان هناك فى الحقبة الواقعة بين عصر **أبقراط** وعصر **جالينوس** عدد من كبار الأطباء أمثال **تيوفراست** Théophraste **وديكلس** Deocles ، **وسلس** Celse، **وديوسقوريدوس** Dioseoride، **وبليناس الحكيم** Pline L,ancien **وكاليوس أورليانوس** Qae-lius Aurélianus، **وارته** Artée وغيرهم .

وقد أضاف كلٌ منهم شيئًا جديدًا إلى المعارف الطبية القديمة كما أظهر بعضهم نظريات حديثة أحيانًا . غير أن أساس الطب بصورة عامة لم يتغير عما كان عليه فى زمن **بقراط**، إلى أن ظهر **جالينوس** العظيم من **برغامس** Pergames وهو من يونانى آسيا الصغرى ، فكان الشخصية الطبية العظيمة الثانية بعد **بقراط**.

لقد تلقى جالينوس دروسه الأولى فى مسقط رأسه، ثم استمر فى تلقى العلم فى جزيرة كورينتس Corintes، ثم رحل إلى الإسكندرية ، فتلقى فيها الطب علماً وعملاً، ثم شدَّ رحاله إلى جزيرة قبرص وجزائر أخرى من جزائر البحر الأبيض المتوسط وفلسطين ، وكانت رحلاته كلها للدرس والبحث عن الأعشاب الطبية والاتصال بعلماء تلك البلاد، ثم عاد بعدها إلى موطنه ومارس مهنة الطب هناك مدة، ثم استقرَّ به المقام فى روما وأسس فيها حلقة لدرس الطب فى حمى مارك أورل.

وكان عالماً محباً للعلماء والفلاسفة واشتغل أيضاً بمزاولة الطب هناك، وكان يقوم فى نفس الوقت بتربية جماعة من تلاميذه كما كان يقوم بتأليف مؤلفات مهمة فى علم الطب أصبحت فيما بعد مصدراً من أهم مصادر الطب الإسلامى.

وكان **جالينوس** يعد بصفة خاصة أستاذ علم التشريح غير منازع مدى أربعة عشر قرناً ، أى من القرن الثانى للميلاد إلى القرن السادس عشر منه. وكان جميع أطباء القرون الوسطى ومن ضمنهم الأطباء المسلمون يدرسون التشريح عن طريق مؤلفاته، حتى ظهر فى القرن السادس عشر للميلاد الطبيب البلجيكى الشهير فزال من علماء التشريح الكبار[1] مؤلف فى التشريح برهن فيه على وجود نقائض فى تشريح **جالينوس** فأسقطه من الاعتبار.

والخلاصة أن اليونانيين وضعوا أساس علم الطب بالاستعانة بمعارف سائر الأمم وتجاربهم. ومن أهم رجالهم فى هذا الصدد **بقراط** العظيم الذى أقام بحوثه على أساس البحث والتحليل والنقد العلمى والتجارب ، فأبرزه لنا بصورة علمية صحيحة ؛ وسعى خلفاؤه من بعده فى هذا البناء على تلك القواعد المتينة . ثم تقدمت الدراسات الطبية فى الاسكندرية ؛ وظهر بعد ذلك **جالينوس** فى القرن الثانى فدون معارف العلماء المتقدمين وأظهرها بصورة علمية منظمة واضحة.

وقد تهيأت مقدمات سقوط امبراطورية روما الغربية نتيجة لضعفها وفساد الإدارة فيها وحدوث حوادث اجتماعية وسياسية مختلفة ، ووقوع حروب وتفشى أمراض، ثم سقطت تلك الإمبراطورية، ونتج عن سقوطها أن مراكز العلم والحضارة أصبحت هدفاً لهجوم القبائل البربرية ؛ إذ إن هؤلاء البرابرة انحدروا من جبال الألب واستولوا على إيطاليا، وكان من جراء

١- Anbré Vésale أكبر علماء التشريح فى القرن السادس عشر للميلاد، وقد كان يقوم بتشريح جثث الموتى طبقاً للطرق العلمية الصحيحة وله مؤلف عظيم فى التشريح أوضح فيه الأخطاء الموجودة فى تشريح جالينوس .

ذلك أن العلوم والفنون، ومن ضمنها الطب، لم تتوقف عن التقدم فحسب، بل عادت القهقرى ثانية، واستولى على الطب السحر والشعوذة والدجل والخرافات ، وحلت التمائم والعزائم محل العقاقير والأدوية الطبية مرة أخرى.

ولم يكن انتشار الدين المسيحى واعتناق الناس له بصورة رسمية فى روما الشرقية - الامبراطورية البيزنطية) مشجعًا للعلماء . إذ إن الكنيسة كانت تعتبر العلم والفلسفة مخالفين للشرع نوعًا ما ؛ لذلك قامت بسد أبواب المدارس والقضاء على المجامع العلمية واعتبرت العلماء والفلاسفة كفرة مارقين عن الدين. ففى القرن الخامس للميلاد مثلا أغلقت الكنيسة أبواب مدرسة الرها (أوس) وكانت قائمة محل أورفة الحالية - وطردت منها النسطوريين فرحل جماعة منهم إلى إيران والتجأت إليها، وكان لبعضهم فضل كبير فى تقدم مدرسة جنديسابور.

وكان هؤلاء- النسطوريون من أتباع نسطوريوس أسقف القسطنطينية الذى نفى منها بناء على طلب المجامع الدينية بتهمة الابتداع فى الدين، والذى مات حوالى سنة ٤٤٠ ميلادية بمصر، وتفرق معظم أتباعه وتلاميذه فى بلاد سورية وبين النهرين وإيران وعاشوا فيها ونشروا الحضارة اليونانية فى أرجائها وفى سائر بلاد الشرق بترجمتهم للمتون اليونانية إلى اللغة السريانية (الأرامية الحديثة) وتأسيسهم المدارس فى (الرها) و (نصيبين) وبعض المدن الأخرى، واشتغال بعضهم بتدريس العلوم المختلفة كالرياضيات والفلسفة والطب وغيرها فى مدرسة جند يسابور .

وفى القرن السادس للميلاد عندما طرد الفلاسفة الوثنيون الأفلاطونية الحديثة Neo Platénien من الاسكندرية بناء على أمر الامبراطور جوستنيان الأول واضطهدوا ، أولى هؤلاء وجوههم نحو بلاد المشرق وانضموا إلى النسطوريين . وانضم إليهم كذلك جماعة من اليهود والأقباط ممن كانوا على اطلاع واف على علوم اليونان وقاموا جميعًا بنشر العلوم والمعارف اليونانية ومن جملتها الطب فى بلاد الشرق.

هذا مجمل تطور الطب قبل الإسلام ذكر فيه مقدمة لما نريد أن نبسط فيه القول فيما بعد . وبعد هذه المقدمة ليس فى وسعنا أن نفهم بصورة جلية كيف كانت حالة هذه العلوم عندما اتجه نحوها المسلمون وبأية درجة كانت فى متناول أيديهم، وما مبلغ اقتباسهم منها ؛ وأخيراً ما هى الخدمات التى أسداها المسلمون لتلك العلوم وكيف أسديت إليها[١].

١- المصدر : الرسالة : ٧ مايو ١٩٤٨ ، ص ص٤٥٨-٤٦١ .

(٢)
تعريب الكتب الطبية

ظهر الدين الإسلامى فى أوائل القرن السابع للميلاد وفى خلال سنوات قليلة قهر المسلمون الامبراطوريات وامتد نفوذ الإسلام إلى البلاد الواقعة فى ما بين السند والقوقاز وعَمَّها جميعًا، ثم بلغ أفريقية الشمالية وأسبانيا حتى بعض جزر بحر الروم مثل صقلية وسردينية وغيرهما.

وانقضى القرن الأول من الهجرة بالغزو والفتح وتأسيس الحكومات العربية العظيمة فاستولى المسلمون على بلاد كانت مراكز للحضارة ، ودخلت بلاد كانت تعتبر حواضر للعلوم والفنون مثل دمشق وقيصرية والإسكندرية فى حيازتهم ؛ وفى أثناء هذه الفتوح وعندما كان المسلمون مشغولين بتدعيم أسس ممالكهم المفتوحة والأمم المغلوبة ما يمكن اقتباسه ، فبدأوا بذلك وبلغت هذه الفكرة شأوها بوجه خاص فى عهد الخلفاء العباسيين حينما كان للإيرانيين شأن كبير فى إدارة أمور المملكة الإسلامية، فألحق بكل مسجد مدرسة ، وأنشئت مكتبات ، وأسست مستشفيات ، وبدأوا فى تدريس جميع العلوم ولاسيما علوم الشريعة والطب والفلسفة فى مدارسهم.

قلنا : إن النسطوريين وحكماء الاسكندرية الذين سبقت لهم الهجرة إلى المشرق ثم اليهود والأقباط والسريان ، كانوا قد هيأوا مقدمات هذه النهضة الفكرية قبل بدئها بقرنين ولاسيما السريان منهم ، وهم من أبناء عمومة العرب، وذلك بنقل علوم اليونان من السريانية إلى العربية . وسنذكر فيما بعد لمحة عن الترجمة عند العرب .

[المترجمون والمؤلفون]

يمكننا أن نقسم المسلمين الذين اشتغلوا بالعلوم المختلفة ومنها الطب إلى طبقتين : المترجمين والمؤلفين .

فالمترجمون منهم كانت براعتهم مقصورة على القيام بالترجمة وكانوا يتقنون اللغة العربية كما يتقنون السريانية أو اليونانية أو كلتيهما فيقومون بترجمة العلوم من إحدى هاتين اللغتين إلى العربية وكان هذا كل عملهم.

أما المؤلفون فهم الذين كانوا قد درسوا كل المؤلفات والآثار المترجمة ، وكان لهم بحث ونظر وآراء خاصة حول ما درسوه وتآليف ظهرت فيها شخصياتهم العلمية بصورة واضحة.

كان بعضهم يدخل ضمن كلتا الطبقتين مثل يعقوب الكندى فى الفلسفة ، يوحنا بن ماسوية وحنين بن اسحق فى الطب ، فإنهم مترجمون كما أنهم فى الوقت نفسه مؤلفون وأصحاب نظر ورأى خاص . فقد كان حنين بن اسحق (ويسميه مترجمو اللغة اللاتينية فى القرون الوسطى يوهاينتيوس Yohannitius) من نصارى الحيرة وكان فى شبابه يبيع العقاقير الطبية ويدرس الطب فى نفس الوقت على يوحنا بن ماسويه .

ويروى أنه ألقى على أستاذه يوما فى مجلس درسه كثيرا من الأسئلة مما أثار غضب الأستاذ، فقال له : ما لأهل الحيرة وللطب؟ كان الأجدر بك أن تطوف بأزقة الحيرة وتصرف النقود فتألم حنين من كلام أستاذه وآلى على نفسه أن يتعلم اليونانية ليستغنى بها عن أستاذه ، فى تعلم الطب، وقد أتقنها ثم عاد إلى جنديسابور وبرز فى فنه حتى عد من طراز جبرائيل بن بختيشوع ، وابن ماسويه وأضرابهما أى أنه يدخل ضمن الطائفتين : المؤلفين والمترجمين .

وكان خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان أول أمير من بنى أمية اهتم بعلوم اليونان اهتماما خاصًا حتى لقب (بحكيم آل مروان) فقد جمع هذا الأمير ، نظرًا لشغفه بكشف أكسير اليكيماء ، حكماء اليونان المقيمين فى مصر فى رِحابه ، وطلب إليهم أن يُعَرِّبوا المؤلفات اليونانية والمصرية عن أكسير الكيمياء عن اللغتين اليونانية والقبطية ، وهذا حسب ما يعتقد ابن النديم أول نقل فى الإسلام من لغة إلى لغة.

يقول برتلو Marcelin Berthelot فى مؤلفه عن تاريخ الكيمياء فى القرون الوسطى: (كان جل هم الكيماويين الحصول على الأكسير الأعظم وحجر الفلاسفة ، غير أنهم خلال تجاربهم للوصول إلى هدفهم هذا وفقوا لاكتشافات كبيرة فى الكيمياء ، ولاتزال المصطلحات الكيمياوية التى وضعها العرب مثل الكحول - والأنبيق- وغيرهما متداولة فى جميع اللغات الأوروبية تشهد بما كان للعرب فى هذا الفن من سابقة وفضل) .

وهناك أمر هام أرى لزامًا عَلىّ أن أشير إليه وهو أن لوكلرك Leclerc يشير فى مؤلفه (تاريخ طب العرب) إلى أنه يعتقد أن مبدأ تاريخ اقتباس العرب من علوم اليونان يجب أن يرجع إلى ما قبل زمن خالد بن يزيد بمائة سنة أى أنه يعتقد أن تاريخ فتح مصر يجب أن يعتبر مبدأ لعهد اقتباس العرب من علوم اليونان؛ فإن يجبى النحوى وكان من ملازمى عمرو ابن العاص وخواصه هو نفسه - حسب معتقد لوكلرك - يوحنا فيلوبونوس John Phi-loponus شارح كتاب أرسطو . وكان فى الأصل من القسس اليعقوبيين وقام بترجمة بعض

المؤلفات اليونانية إلى العربية بعد إسلامه . ويشير ابن النديم فى الفهرست ضمن ذكر أسماء مؤلفاته ومقالاته إلى أنه قام بشرح بعض مؤلفات جالينوس الطبية.

وعلى أى الأحوال فإنّ من المسلم به أنه قد ترجمت فى زمن خالد بن يزيد بن معاوية كتب فى الكيمياء والطب وعلوم أخرى من اليونانية.

ويذكر ابن النديم مترجما باسم (اصطفن القديم) ويقول : إنه قد ترجم كتبًا فى الصنعة، أى الكيمياء وغيرها إلى العربية لخالد بن يزيد . وكانت هذه الحقبة مقدمة لظهور العلماء أصحاب الرأى والنظر.

ففى عهد المترجمين فى القرن الأول الهجرى أو بعد ذلك بقليل ، كانت تراجم كتب الطب وسائر العلوم من اليونانية مزيجًا من الأصل المترجم عنه مع عادات المسلمين ومبادئ الصحة فى الإسلام، ونادرا ما تجد طبيبًا مسلمًا يبدى رأيًا ونظرًا خاصًا ، بل كانوا على الأغلب الأعم يسيرون على النهج الذى سار عليه القدماء . فى حين أنا نجد فى العصور التالية أى فى عصور النهضة العلمية الإسلامية ، علماء كبارا تجاوزوا مرحلة الترجمة والتتلم ذ فكان لهم استقلال فى الرأى والنظر.

ومع أن أساس معارفهم مقتبس ومأخوذ من علوم اليونان- ومع أنهم معرفون بفضل بقراط وجالينوس اللذين يذكرون دائما أسميهما بكل تجلة واحترام- إلا أن النظر والرأى ظاهران بصورة جلية فى مؤلفاتهم . وتجد فيها أحيانًا نقدًا لآثار القدماء ومؤلفاتهم ، فترى الأطباء المسلمين يقومون بتجارب جديدة فى الطب، وتراهم يطبقون تعاليم طبية مفيدة على المرضى فى المستشفيات ، كما ترى منهم شيئًا كثيرًا من الابتكار والابتداع ولاسيما فى طرق العلاج واستعمال الأدوية العقاقير . وقد ترك علماء هذا العهد مؤلفات كثيرة قيمة فى هذا الصدد.

وفى هذا العهد نرى الرازى يبدى شكوكا على أقوال جالينوس، كما نرى ابن سينا ينتقد فلسفة المشائين فى مقدمة مؤلفه حكمة المشرقيين . وفى هذه العصور أصبحت الأندلس وبغداد من مراكز الطب المهمة . حتى قيل : إنه كان فى مكتبة قرطبة وحدها ثلاثمائة ألف مجلد في مختلف العلوم والفنون .

ويختلف حكم الناس بالنسبة للخدمة التى أسداها المسلمون لعلم الطب؛ ففريق يعتقد أنه لو لم توجد الحضارة الإسلامية لضاعت آثار بقراط ، وجالينوس وأمثالهما فى ظلام القرون الوسطى ، ولخسرها العالم إلى الأبد ، وأن بقاء هذه الآثار العلمية والمؤلفات كان بفضل وجود

المسلمين واهتمامهم بها، وإن هذا التراث العلمى الغالى لم يسلم بفضلهم من الفناء والضياع فحسب، بل أضيف إليه الشئ الكثير.

ولما ضعف المسلمون فيما بعد وخرج كثير من البلاد كالأندلس من يدهم ، كان خير ما تركوه لأخلافهم ذلك التراث العظيم من العلوم والفنون .

هذا رأى فريق، غير أن فريقًا آخر يرى ، ورأى معظمهم ناشئ عن الجهل أو الغرض أو التعصب أن خدمة المسلمين للطب ليست بذات بال، فإن هذا التراث العلمى بقى مدة كأمانة لدى المسلمين ورجال الكنيسة، لكنهم لم يضيفوا إليه شيئًا من عندهم حتى جاءت النهضة الأوروبية فتسلمه منهم رجال ذلك العهد واستفادوا منه .

والحق وسط بين هاتين العقيدتين المتضادتين المتطرفتين، فلاريب أنه لو لم يقم المسلمون- بجمع آثار المتقدمين من العلماء وترجمتها ونقدها وشرحها وتفسيرها بتلك الدقة العظيمة لضاع الشئ الكثير من آثار اليونان العلمية. وخير شاهد على ذلك أن كثيراً من مؤلفات اليونان فى الطب قد ضاعت نسخها الأصلية ، ولم يبق منها إلا ترجمتها العربية ، مثل الكتاب السابع من التشريح لجالينوس؛ فالموجود منه الآن- هو ترجمته العربية ليس غير .

زد على ذلك أن بعض الأطباء من المسلمين قد أسدوا إلى عالم الطب خدمات عظيمة ولاسيما فى الطب العملى والجراحة ؛ وقد برز كثير منهم فى هذا المجال ، أمثال علـى بـن العباس المجوسى الأهوازى وأبى القاسم بن خلف الزهراوى.

فإن لم نقل : إن كل ما وجد فى القرون الوسطى من علوم الطب ، كان بفضل الأطباء المسلمين ، فلا أقل من انصافهم بذكر الحقيقة ، وهى أن الطب فى القرون الوسطى ، مدين للطب الإسلامى والأطباء المسلمين دينًا عظيما.

والذين يقصرون فضل حفظ التراث العلمى القديم على العرب فحسب ، مبالغون فى قولهم هذا كذلك ؛ فهؤلاء يقولون : إنه لولا المسلمون لانقطعت الصلة تماما بين النهضة الأوروبية والعلوم اليونانية القديمة. وليس ما يقولونه : كل الحق فإن قسطًا عظيمًا من الكتب العلمية اليونانية كان موجوداً فى أديرة المسيحية ، وقد درسها وبحث فيه عدد من رجال العلم وحفظوا للعالم علوم اليونان وطرائق بحثهم ودراستهم العلمية.

وأهمية الطب الإسلامى تقتصر على أنه كان طوال قرون عديدة أى منذ انحطاط الحضارة والعلوم عند اليونان إلى زمن النهضة الأوروبية أهم مصادر علوم اليونان وأصدقها . ولايفتنا أن نذكر هنا أن الطب الإسلامى كسائر العلوم التى انتشرت بين المسلمين- وإن كان معظمه

مأخوذاً عن مؤلفات اليونان وكتبهم فإن قسطاً منه مأخوذاً ولاشك عن مصادر إيرانية وهندية وسريانية. ومن أراد التفصيل فليراجع الفهرست (طبعة مصر صفحة ٢٤٠ وما بعدها) وفيه أسماء المترجمين الذين ترجموا إلى العربية من اللغات المختلفة ومنهم ابن المقفع وكثير من آل نوبخت الذين نقلوا إلى العربية كثيراً من الكتب الفارسية .

ويجدر بنا أن نشير فى هذا المقام إلى أن كثيراً من هذه الكتب التى عُرِّبت عن الفارسية الساسانية ، كان أصلها يونانيا ترجمت إلى الفارسية فى عهد الساسانيين ثم قام بتعريبها الإيرانيون أنفسهم؛ ومن هذه الكتب كتب فى المنطق[١] والطب ترجمها ابن المقفع إلى العربية، وكتاب فى الطب أيضاً لثيادوسيوس[٢] (Thécdseaus) الطبيب الخاص لسابور الثانى عُرِّب من الفارسية .

وقد كان للإيرانيين أثر واضح فى الطب بصفة خاصة عن طريق مدرسة جنديسابور. فبرغم أن أساس التعليم لطبى فى تلك المدرسة ، كان الطب اليونانى، إلا أنه قد اصطبغ بصبغة إيرانية بالتدريج ، وكان للقريحة الإيرانية أثر كبير ونفوذ عظيم فى منهج التعليم بها.

وقد ترجمت كتب أخرى من اللغات الهندية والقبطية إلى العربية ، ذكر ابن النديم كثيراً من أسمائها وأسماء الذين قاموا بتعريبها .

١- توجد نسخة نادرة من كتاب المنطق لابن المقفع فى مكتبة الإمام الرضا بمشهد (خراسان) ويرجح أن تكون نسخة فريدة وقد نُسِختْ عنها فى المدة الأخيرة بضع نسخ بإجازة المكتبة المذكورة.

٢- واسمه فى الكتب العربية تياذوق.

المصدر: الرسالة ص ص٥٨٧-٥٨٩ .

(٢)

لقد كان بدء نقل الكتب العلمية إلى اللغة العربية كما ذكرنا آنفًا - بعد استقرار الحكم العربى، وأن أكثر المترجمين كانوا من أمم غير عربية ، وأحيانًا من غير المسلمين كالسريان والعبريين ومن الإيرانيين المسلمين منهم، والنصارى واليهود والمجوس، غير أن النهضة العلمية الحقيقية بدأت فى العصر العباسى ، وكان للإيرانيين حينذاك نفوذ كبير وشأن فى الدولة عظيم.

ففى هذا العصر ترجمت كتب علمية على درجة كبيرة من الأهمية، ولاسيما فى زمن خلافة **المأمون** . وكانت أمه وزوجته إيرانيتين، وكان نفوذ الإيرانيين قد بلغ فى عهده غايته، ففى هذا العصر حصل العرب بطريق الفتح ، أو بإيفاد بعوث خاصة إلى بلاد الإمبراطورية البيزنطية، أو بالشراء أو المبادلة على كثير من الكتب اليونانية النفيسة ، أو ترجمتها السريانية ، فجمعوها فى مكتبة الخليفة المسماة (بيت الحكمة) ، وقام بتعريبها مهرة المترجمين . ويروى بعض المؤرخين المسلمين عن سبب اهتمام **المأمون** بالعلوم الفلسفية وغيرها قصة ملخصها أن **المأمون** رأى **أرسطو** فى منامه وسُرَّ من كلامه ، فرغب فى قراءة مؤلفاته. لذلك أحضر كتبه وأمر بترجمتها إلى العربية.

ويروى **ابن النديم** بهذا الشأن هذه الرواية:

(إن المأمون رأى فى منامه كأن رجلا أبيض اللون ، مُشْرَبًا حمرة ، واسع الجبهة مقرون الحاجب أجلح الرأس أشهل العينين، حسن الشمائل ، جالس على سريره . قال **المأمون** : وكأنى بين يديه قد ملئت له هيبة ، فقلت من أنت؟ قال : أنا **أرسطاليس** . فسررت به وقلت: أيها الحكيم ، أسألك ؟ قال سل: قلت ما الحسن؟ قال ما حسن فى العقل . قلت ثم ماذا؟ قال ما حسن فى الشرع، قلت ثم ماذا ؟ قال ما حسن عند الجمهور، . قلت ثم ماذا؟ قال ثم لاثم . وفى رواية أخرى قلت زدنى، قال : من نصحك فى الذهب، فليكن عندك كالذهب . وعليك بالتوحيد . وهو يعتقد أن هذا المقام كان من أوكد الأسباب فى إخراج الكتب، غير أننا نرى كما سبق القول فى ذلك، أن ظهور الفلسفة والعلوم فى الإسلام كان أمرًا طبيعيًا وكان من مستلزمات الحضارة ، وأن اتصال المسلمين بالأمم المتحضرة كان يوجب عليهم الاكتساب من علومهم ومعارفهم.

وكما أن اللغة اللاتينية كانت لغة العلم فى جميع البلاد الأوروبية طوال القرون الوسطى، أصبحت اللغة العربية بالتدريج، لغة العلم والعلماء بين المسلمين. وكان العلماء والمسلمون من

كل قوم ولغة يؤلفون مؤلفاتهم بها ليستفيد منها جميع المسلمين. وبتوالى الزمن أصبحت المصطلحات العلمية التى وضعت فى اللغة العربية، كالنقد الرائج يتلقاها الجميع بأحسن قبول.

هذا ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن للغة العربية خصائص ومزايا تجعلها صالحة لوضع المصطلحات الجديدة فهى من أغنى لغات العالم، ففى اللغة العربية مثلا وزن (فُعال) وأكثر الكلمات التى على هذا الوزن، مثل صداع وزكام وجذام ودوار وبحار (دوار البحر) وخمار وغيرها تدل على الأمراض ، وتلك مزية قلما تتوفر فى لغة أخرى، إلى غير ذلك من مزايا لاتعد ولاتحصر.

وقد رضع العرب فى بعض الأحيان بمهارة متناهية ، كلمات عربية تؤدى معانى الكلمات اليونانية بدقة مثل كلمة تشخيص مقابل كلمة ديا جنوسيس Diagnosis، وتقدمة المعرفة مقابل بروجنوسيس Prognosis كما أنهم كانوا فى أحيان أخرى يأخذون نفس الكلمات اليونانية بصورتها الأصلية ، مع تحريف بسيط يناسب النطق العربى مثل كلمات (نوسنطاريا) و(إيلاوس) و(نيابيتوس) .

وهذه الكتب المترجمة إلى العربية هى التى ترجمت من العربية إلى اللاتينية فى القرون الوسطى، وترجمت معها المؤلفات الطبية لمحمد بن زكريا الرازى ، وعلى بن العباس المجوسى الأهوازى، والشيخ الرئيس ابن سينا ، وأبى القاسم الزهراوى وأضرابهم، ودرست فى مدارسهم وبعد ذلك بزمن طويل، أى* فى العصور الحديثة عرف الأوروبيون المتون اليونانية الأصلية لتلك التراجم؛ وبعد العثور على المتون الأصلية، فقدت التراجم العربية رونقها السابق.

يذكر ابن النديم فى الفهرست[١] أسماء ما يقارب السبعين مترجمًا من هؤلاء المترجمين مع ذكر الكتب التى قاموا بتعريبها واللغة المترجم عنها ، كما أنه يذكر ضمن بيان ترجمة الحكماء والأطباء اليونانيين أسماء مؤلفاتهم التى ترجمت إلى العربية مع ذكر أسماء الذين قاموا بترجمتها ، أو الذين قاموا بإصلاح الترجمة بعد مراجعتها ، على الأصل اليوناني أو السريانى، غير أن أكثر هذه الكتب قد ضاع مع الأسف على أثر الحوادث المختلفة. وها نحن أولاء نذكر هنا كنموذج أسماء بعض كتب بقراط وجالينوس المهمة المترجمة إلى العربية ، مع ذكر أسماء الذين قاموا بترجمتها[٢].

---

* هكذا فى الأصل والصواب (و) انسجامًا مع السياق «المحرر»

١- صفحة ٣٤٠-٣٤٢ طبع مصر .

٢- الفهرست صفحة ٤٠١ طبع مصر .

١- كتاب عهد بقراط تفسير جالينوس: ترجمه إلى السريانية حنين بن إسحق ثم نقله إلى العربية حبيش وعيسى بن يحيى .

٢- كتاب الفصول لأبقراط تفسير جالينوس : ترجمه حنين بن إسحق فى سبع مقالات إلى العربية.

٣- كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط تفسير جالينوس: ترجمة حنين بن إسحق إلى العربية.

٤- كتاب الأمراض الحادة لأبقراط تفسير جالينوس: ترجم عيسى بن يحيى ثلاثًا من مقالاته الخمس إلى العربية.

٥- كتاب أبيذيما لأبقراط تفسير جالينوس: ترجمه عيسى بن يحيى إلى العربية:

٦- كتاب الأخلاط لأبقراط تفسير جالينوس: ترجمه عيسى بن يحيى إلى العربية.

٧- كتاب الماء والهواء لأبقراط تفسير جالينوس: ترجمه حنين بن أسحق إلى العربية.

٨- كتاب طبيعة الإنسان لأبقراط تفسير جالينوس: ترجمة حنين بن إسحق وعيسى بن يحيى إلى العربية.

ويلاحظ أن معظم كتب جالينوس نقلت إلى العربية بواسطة حنين بن إسحق أو تلاميذه ، مثل عيسى بن يحيى، وحبيش.

كان حنين بن إسحق من أشهر علماء عصره وأكثرهم إنتاجًا ، فإن سبعة أعشار مؤلفات بقراط قد ترجمت بواسطته ، والقسم الباقى منها، وكذلك الشطر الأكبر من مؤلفات جالينوس قام بترجمته هو أو بعض تلاميذه.

وكان حنين ينقل على الأغلب الكتب اليونانية إلى السريانية، ثم يقوم تلاميذه بنقلها من السريانية إلى العربية ، ثم يراجعها هو بنفسه ويصححها. وقد قام هو بنقل بعض الكتب من اليونانية إلى العربية مباشرة ، ويتضح من مجموعة ترجماته أنه كان متضلعًا للغات فى الثلاث: اليونانية والسريانية والعربية تضلعًا تامًا .

وقد قام حنين بن إسحق وابنه إسحق بن حنين وتلاميذه بترجمة بعض مؤلفات جالينوس بالكيفية التى ذكرناها فى ترجمة كتب بقراط منها كتاب (الصناعة) وكتاب عن (النبض) وكتاب فى (العلاج) و (المقالات الخمس فى التشريح) وكتاب (الاسطقصات) وكتاب (المزاج) وكتاب (القوى الطبيعية) وكتاب (العلل والأعراض) وكتاب عن أمراض(الأعضاء الباطنية) وكتاب نبير عن (النبض) وكتاب عن (الحميات) وكتب عن (بحران المرض) وكتاب عن (أيام البحران)

وكتاب فى (حفظ الصحة) وكتاب (التشريح الكبير) وكتاب عن (اختلاف التشريح) وكتاب (تشريح الحيوان الميت) وكتاب (تشريح الحيوان الحى) وكتاب عن (علم بقراط فى التشريح) وكتاب عن (علم أرسطو فى التشريح) وكتاب (تشريح الرحم) وكتاب (حركة الصدر والرئة) وكتاب (علم النفس) وكتاب (الصوت) وكتاب (حركات العضل) وكتاب (الحاجة إلى النبض) وكتاب (الحاجة إلى التنفس) وكتاب (العادات) وكتاب (آراء بقراط وأفلاطون) وكتاب (فوائد الأعضاء) وكتاب (سوء المزاج) وكتاب (الأدوية المفردة) وكتاب (الأورام) وكتاب عن (المولود فى الشهر السابع) وكتاب عن (سوء التنفس) وكتاب تقدمة المعرفة) وكتاب عن (الفصد) وكتاب عن صرع الأطفال وكتاب عن الأغذية وكتاب (الكيموسل) وكتاب معالجة الأمراض الحادة وكتاب تركيب الأدوية وكتاب فى أن الطبيب الفاضل (فيلسوف) وكتاب عن الكتب المنسوبة إلى بقراط، وبيان الكتب المقطوع بصحة نسبتها إليه، وكتاب فى الترغيب فى درس الطب، وكتاب عن اختيار الطبيب، وكتاب فى أن قوة التنفس تابعة لمزاج البدن، وكتب أخرى ترجمت جميعها بهمة حنين بن اسحق وتلاميذه مثل حبيش بن الحسن الأعشم ، وعيسى بن يحيى ، واصطفن بن بسيلى ، وإبراهيم بن الصلت ، ونجله اسحق بن حنين وآخرين .

وقد نقلت مؤلفات أخرى لمشاهير الأطباء اليونانيين إلى العربية مثل كتاب (تشريح الأحشاء) وكتاب (الأدوية المستعملة) لأوريباسيوس Oribasc وكتب عدة من مؤلفات روفس (Rnfus d'Ephése) منها كتاب تسمية أعضاء الإنسان وكتاب اليرقان ، وكتاب أمراض المفاصل ، وكتاب عن أمراض الحنجرة والبلعوم والنبحة ، وكتاب عن النساء العواقر، ووصايا صحية ، وكتاب الصرع ، وكتاب حمى الربع وكتاب ذات الجنب وذات الرئة وكتاب عن القئ وكتاب عن الدوار القاتل وكتاب عن أمراض الكلية والمثانة وكتاب فى الجراحات وكتاب عن صحة الشيوخ وكتاب عن التوليد وكتاب احتباس الطمث وكتاب الأمراض المزمنة على رأى (بقراط) وكتب أخرى منها كتاب عن (أمراض العيون وعلاجها) وكتاب عن الدودة الوحيدة من مؤلفات الطبيب الشهير اسكندروس طراليوس Alexandre de Tralles وبعض كتب بولس الأجـــــانطبى Paule de Egine منها كتاب أمراض النساء وكتاب (الأدوية المفردة) لديسـقـوريدس Dioscride وهو من أعاظم علماء الأدوية والعقاقير وقد قام برحلات كثيرة للبحث عن خواص الأعشاب والنباتات إلى كثير من البلاد والجزائر النائية.

ولحنين بن إسحق العبادى المترجم العظيم المذكور المتوفى حسب رواية ابن النديم فى صفر من العام الستين بعد المائتين من الهجرة ، غير كل هذه الكتب المترجمة ، مؤلفات هامة كثيرة منها : كتب فى الطب مثل كتابه فى الأطعمة، وكتاب فى تقسيم علل أمراض العين وعلاجها،

وكتاب عن الأسنان واللثة وكتاب عن أوجاع المعدة وعلاجها ، وكتاب عن المولود فى الشهر الثامن.

ومن كبار المترجمين الذين يدين الشرق لخدماتهم العلمية **قسطا بن لوقا** البعلبكى ويقول **ابن النديم** فى ترجمته: (كان يجب أن يقدم على **حنين** لفضله ونبله وتقدمه فى صناعة الطب، ولكن بعض الإخوان سأل أن يقدم **حنين** عليه وكلا الرجلين فاضل) .

إن معظم ما قام بترجمته **قسطا بن لوقا** فى الهندسة والأعداد والموسيقى ، غير أن له كذلك تراجم جيدة جداً فى الفلسفة والطب منها كتاب (الدم) وكتاب (البلغم) وكتاب (الصفراء) وكتاب (السوداء) وكتاب (علة الموت الفجاءة) وكتاب (أيام البحران) وكتاب (الفصد) .

وينتسب عدد كبير من كبار مترجمى اللغة العربية لمدينة حران. وكانت تسمى هلنو پوليس (Helleno Polis) لحبهم العظيم للمعارف اليونانية وعرف هؤلاء بالصابئين. وليس هنا مجال التحدث عن أصلهم وديانتهم.

وأشهر علماء حران ومترجميها **ثابت بن قرة** ونجله **أبوسعيد سنان بن ثابت** ونجل هذا الأخير **أبو الحسن** وآخرون من أنجاله وأحفاده وقد اشتهروا جميعًا بالعلم وحسن الترجمة.

ومن أعاظم علماء القرن الثالث الهجرى **أبويوسف يعقوب ابن اسحق الكندى** المعروف بفيلسوف العرب، وكان متبحراً فى علوم القدماء، وله مقالات ومؤلفات نفيسة فى كل فرع من فروع العلوم المختلفة ومنها الطب. وينسب له **ابن النديم** فى سياق ذكر مؤلفاته فى العلوم والفنون المختلفة الكتب الآتى ذكرها فى الطب:

رسالة فى (طب بقراط) ورسالة فى (الأطعمة والأدوية القاتلة) ورسالة فى (الأبخرة التى تنقى الهواء وتزيل منه آثار والأوبئة) ورسالة عن (الأدوية التى تزيل آثار الروائح المؤذية) ورسالة فى (كيفية الأدوية المسهلة وجذب الأخلاط) ورسالة فى (حفظ الصحة) ورسالة فى (أسباب بحران الأمراض الحادة) ورسالة عن (الأعضاء الرئيسية فى الإنسان) ورسالة عن (كيفية تركيب الدماغ) ورسالة عن (علة الجزام والشفاء منه) ورسالة فى (عضة الكلب الكَلِب) ورسالة فى (الأعراض التى تظهر بسبب البلغم) ورسالة عن (علة موت الفجأة) ورسالة عن (أوجاع المعدة والنقرس) ورسالة عن (الطحال) ورسالة عن (فساد جسد الحيوان) ورسالة عن مقدار فائدة صناعة الطب) ورسالة عن (الطعام) وأخرى عن (فساد الطعام).

والآراء جد مختلفة فى قيمة هذه التراجم ومبلغ جودتها أو رداءتها .

يقـول پونيـون Pognon (وكان قنصلا لفرنسا بحلب وقد طبع عام ١٩٠٢ المتن السريانى لأحد مولفات بقراط مع ترجمته فى ليبزك) : إن التراجم السريانية غامضة ومعقدة وهى تراجم لفظية لدرجة أن معانى بعض الجمل لاتفهم ، وأن تركيب الجمل والعبارات فيها مشوش ، ومفردات اللغة مستعملة لغير ما وضعت له من المعانى. وسبب ذلك أن المترجمين كانوا يجتهدون فى أن تكون ترجمتهم صادقة ومطابقة للأصل على قدر الإمكان، ولذلك كانوا عندما يواجهون جملة صعبة يكتفون بوضع الترجمة اللفظية للكلمات اليونانية مكان الكلمات الأصلية دون أن يفكروا فى معنى العبارة كلها، وإن جهلوا معنى الكلمة اليونانية اكتفوا بكتابتها عيناً بالحروف السريانية ؛ لذلك كله ترى فى تلك التراجم كثيراً من العبارات غير الصحيحة والجمل غير المفهومة.

إن هذا العيب يصدق إلى حد ما على بعض هذه التراجم ولاسيما الكتب التى ترجمت فى مبدأ تعرف المسلمين على فلسفة اليونان وعلومهم، فقد كان لهذه التراجم نواقص كثيرة من وجهة فن الترجمة، ولذلك كثيراً ما نرى لبن النديم يقول فى الفهرست : (قام بترجمة الكتاب فلان وأصلحه فلان) .

وكان من أسباب نقص هذه التراجم نقص اللغة السريانية نفسها وضيق أفقها بالنسبة للغة اليونانية ، التى تعتبر من أغنى لغات العالم وأوسعها دائرة، وقد كانت لغة الخطاب والتأليف قروناً عدة ألف بها أمثال هوميروس وأشيله وتوسيد يد، وديموستن، وبقراط، وأفلاطون ، وأرسطو، وغيرهم.

ومن أسباب نقص هذه التراجم غير ما نكرنا عدم وجود مصطلحات علمية وفلسفية لدى السريان ، أو عدم معرفة مترجمى الحقبة الأولى منهم بتلك المصطلحات .

ومن البديهى أنه عندما ترجمت هذه الكتب المترجمة مع ما فيها من العيوب والنقائص التى يشير إليها يونيون إلى اللغة العربية ازدادت عن أصلها بعداً وأضيفت إى غموض الترجمة وإبهامها الشئ الكثير وأصبحت استفادة الطب منها من أصعب المشكلات .

يقول الشيخ الرئيس ابن سينا فى ترجمة حياته التى أملاها على تلميذه أبى عبيد عبد الواحد بن محمد الفقيه الجرجانى [١] :

(وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة فما كنت أفهم ما فيه والتبس علىّ غرض واضعه حتى أعدت قراءته أربعين مرة وصار لى محفوظاً وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا أعرف المقصود به ، وأيست من نفسى وقلت : هذا الكتاب لاسبيل إلى فهمه ، فإذا أنا فى يوم من الأيام حضرت وقت العصر

فى سوق الوراقين وبيد دلال مجلد ينادى ، عليه فعرضه على فرددته رد متبرم معتقد أن لا فائدة فى هذا العلم ، فقال لى : اشتر منى هذا فإنه رخيص أبيعكه وصاحبه محتاج إلى ثمنه فاشتريته بثلاثة دراهم فإذا هو كتاب لأبى نصر الفارابى فى أغراض كتاب ما بعد الطبيعة ورجعت إلى بيتى وأسرعت إلى قراءته ، فانفتح علىّ فى الوقت أغراض ذلك الكتاب، بسبب أنه كان صار لى محفوظًا على ظهر القلب وفرحت بذلك وتصدقت ثانى يومه بشئ كثير على الفقراء شكرًا لله تعالى) .

ويفهم من هذا أن الترجمة كانت فى بعض الأحيان ضعيفة ورديئة لدرجة أن قريحة كقريحة ابن سينا كانت تحتار فى تفهم معناه وتيأس من ذلك.

فإن شئنا أن لانعدو الحق والإنصاف فى حكمنا يجدر بنا أن نذكر أن نشر العلوم اليونانية وتعميمها ووضعها فى متناول طلبة العلم وتقريبها لفهمهم كان بفضل الطبقة الثانية من المترجمين الذين كانوا قد فهموا تلك العلوم بأنفسهم فهمًا جيداً. وكانت ترجمتهم واضحة يفهمها طالب العلم بسهولة، وبفضل هؤلاء وببركة دراساتهم وتحقيقاتهم العلمية وتصحيحهم للتراجم السابقة حلت المشكلات العويصة.

أما قول بعض النقاد: أن التراجم لاتفهم دون مراجعة الأصل فمبالغ فيه.

يعتقد لوكلرك Leclere أن النقل المباشر من اليونانية إلى العربية حسن بصورة عامة، والكتب المترجمة بهذه الطريقة مترجمة بذكاء عظيم وقريحة وقادة وذوق سليم، غير أن النقل من العربية إلى اللاتينية، وكان يقوم به مترجمون غير ملمين باللغات، كان ناقصًا ومشوهًا ، فالذين يحكمون على الترجمات العربية عن طريق ترجماتها اللاتينية قد سلكوا طريقًا خطأ . ويذكر لوكلرك مثالا حيًا لهذا فيقول: إن بعض أقسام القانون لابن سينا لايفهم جيداً، أو قل لايفهم أبداً باللاتينية ؛ والسبب هو أن المترجم لم يكن يعرف العبارة العربية فى الأصل، أو لم يكن يتقن اللاتينية التى ترجم إليها.

(٤)

ذكرنا فى حديثنا السابق مجملا عن طب العرب فى الجاهلية، ونبذة عن مصادر الطب الإسلامى وتأثير علوم اليونان فيه، وتحدثنا عن كيفية نقل علوم اليونان وسائر الأمم إلى العربية، وذكرنا أن المسلمين بدأوا ترجمة العلوم منذ القرن الأول الهجرى أى من بدء تعرفهم على الأمم الأخرى واتصالهم بها، وقلنا إن هذه التراجم قد تحسنت بالتدريج واتسعت دائرتها حتى بلغت ذروتها فى زمن المأمون ، وكان للإيرانيين حينذاك نفوذ كبير فى المجتمع الإسلامى، أى عندما كانت النهضة العلمية الإسلامية فى أوجها ، وإن عدداً كبيراً من مترجمى هذا العصر قام باصلاح التراجم السابقة.

وفى حديثنا اليوم سنتكلم بإيجاز عن هذا العصر ثم نتحدث عن ظهور كبار الأطباء المسلمين من أصحاب الرأى والنظر وعن مطالعاتهم ودراساتهم فى الأمراض والعلل وعلاجها، وفى مطالعاتهم عن أحوال المريض بجانب سريره، ونذكر نبذة عن البيمارستانات عند المسلمين.

كان المأمون مهتما بهذا الأمر لدرجة أنه كان يبعث الهدايا الثمينة لملوك الروم ويسألهم مقابل ذلك الإذن فى إنفاذ بعض المختار من كتب الفلسفة والعلوم القديمة المخزونة المدخرة لديهم إليه، وكان من جملة شروط الصلح بين الخلافة الإسلامية، وامبراطورية روما الشرقية ، أن يأذن امبراطور الروم للمسلمين بشراء الكتب العلمية اليونانية من البلاد التابعة له ، وكانت الكتب التى تصل إلى المأمون خير الهدايا التى يبعث بها إليه الملوك.

يقول ريتينجتون Wittington فى مؤلفه عن تاريخ الطب: «إن فتوح المسلمين العلمية ليست بأقل أهمية من فتوحهم للبلاد وغزوهم لها»[١].

وقد اقتدى بالمأمون كثير من السراة الأغنياء من أهل الفضل والذوق وبذلوا جهوداً كبيرة فى ترجمة الكتب العلمية ونقلها إلى العربية.

وكان من نتائج هذ الاهتمام والتشجيع أن ظهر عدد كبير من مهرة النقلة فى ذلك العصر.

١- Browne , Arabian Midicine

يذكر المؤرخون أن المأمون كان يعطى حنين بن اسحق العبادى ما يعادل وزن الكتب التى يقوم بنقلها إلى العربية ذهبًا .

وكان يشتغل فى دار الترجمة التى كان يرأسها حنين أكثر من تسعين مترجمًا بنقل الكتب، ومن مشاهيرهم ابن اخته حبيش الأعسم، وعيسى بن على، وعلى بن يحيى ، وأيوب الأبرش، وحجاج بن مطران.

وبفضل جهود هؤلاء وعلّو هممهم، وبصرف الأموال الكثيرة، وتحرى الدقة المتناهية، نقلت إلى العربية، كتب كثيرة نفيسة حقًا تجد فى كثير من كتب التاريخ ، ولاسيما فى كتاب الفهرست لابن النديم، أسماءها وعناوينها بالتفصل ، غير أن كثيرًا من هذه الكتب قد ضاع بسبب ما أصاب القسم الأكبر من البلاد الإسلامية فى القرن السابع للهجرة من الخسائر، نتيجة لحملة المغول عليها. وليس لدينا الآن من آلاف الكتي غير أسمائها ؛ وربما كان هناك كتب كثيرة ضاعت وضاعت معها أسماؤها أيضًا .

وينبغى ألا يغيب عن بالنا أن شيوع عقيدة الأشاعرة الجامدة الشديدة التحفظ ، وتغلبها على طريقة المعتزلة الحرة فى البحث العلمى والدينى، وعوامل كثيرة أخرى كانت قد أثرت فى النهضة العلمية الإسلامية فحدّت من تقدمها قبل حملة المغول ، إلا أن هذه النهضة العلمية كانت لاتزال بعد على شئ من القوة، وكان مقام العلم والأدب لايزال شامخًا ، إلى أن جاءت حملة المغول كالسيل الجارف فأصابتها بصدمة قوية فلم تقم لها بعد ذلك قائمة.

إلا أن حملة المغول هذه لم تصب العلوم الطبية بما أصابت به غيرها من العلوم من ضرر، لأن أفراد قبائل المغول على رغم بربريتها ، كانوا يهتمون بصحتهم وسلامة أبدانهم ، لذلك فقد حفظوا كتب الطب من الاضمحلال والضياع ، كما أن حبهم الشديد للشهرة وخلود الذكر كان من الأسباب التى صانت كتب التاريخ من الضياع والفناء.

إن هذه العاطفة أعنى حبهم للشهرة وخلود الذكر لم تصن كتب التاريخ من الضياع فحسب، بل كانت سببًا لتأليف كتب أخرى نفيسة فى هذا الباب ، مثل تاريخ جهانكشاى الجوينى ، وجامع التواريخ لرشيد الدين بن فضل الله الهمدانى، وتاريخ الوصاف لفضل الله الشيرازى، وتاريخ كزيده لحمدالله المستوفى القزوينى، وهى كلها معتبرة من الآثار والمؤلفات التاريخية الخالدة .

والخلاصة أن أكثر المؤلفات التى نقلت فى عهد المأمون إلى العربية كانت تراجم متقنة تدل على دقة المترجمين وحسن قريحتهم ، وأن تبويب الكتب المترجمة إلى فصول ومقالات وأبواب مع ذكر المراجع والمصادر التى نقلت عنها التراجم تدل على ذوقهم السليم.

وبعد أن تعرف المسلمون عن طريق هذه التراجم على مصادر الطب الأصلية ، وبعد أن عم البحث العلمي وانشئت البيمارستانات والمعاهد العلمية وتكونت حلقات الدرس- ولهذا بحث مهم خاص ليس الآن محله- بدأ دور استقلال الأطباء المسلمين فى بحثهم وتآليفهم . وفى هذا العهد الجديد شرع هؤلاء بتدوين ما فهموه من التراجم فى مؤلفات خاصة حسب ذوقهم الخاص، وأضافوا إلى ذلك كله خلاصة مطالعاتهم وتجاريبهم الشخصية ، فكان من نتاج ذلك كتب مستقلة فى الطب للمؤلفين المسلمين.

وكان لمسلمى إيران خدمات مهمة فى هذا الباب أيضًا لسابقتهم وماضيهم الطويل فى الطب منذ عهد الساسانيين بفضل المدارس الطبية العظيمة التى كانت فى إيران ومنها مدرسة جنديسابور . لذلك فإن كثيراً من الأطباء ذوى الرأى والنظر والأساتذة الكبار والمؤلفين المشهورين كانوا من الإيرانيين ولاسيما فى القسم الشرقى من البلاد الإسلامية.

أما الطب فى المغرب والأندلس ، فإن له بحثًا خاصًا مستقلاً؛ والكلام فى أحوال فلاسفة تلك البلاد وأطبائها كابن رشد ، وابن زهر، وخلف بن العباس الزهراوى الشهير بجراح العرب وابن جلجل ، وابن وافد ، واسحق بن عمران، وأحمد بن الجزار القيروانى، وأضرابهم ، يحتاج لبحث طويل فى عدة محاضرات، ولاسيما الكلام عن أثرهم فى البلاد المجاورة لأسبانيا والطلبة الذين وفدوا إلى الأندلس من سائر بلاد أوروبا للدرس والتحصيل ، والكتب العربية لتى نقلوها إلى اللاتينية والعبرية وغيرهما- وهذه كلها أمور ذات شأن تقتضينا أن ندرسها دراسة عميقة، ونخصها بمحاضرة أخرى إن سمح الوقت بذلك.

كان أكبر هم معظم العرب فى العصور الإسلامية الأولى هو درس اللغة العربية وعلوم القرآن والشريعة، ولم يكونوا ليهتموا كثيرً بسائر العلوم.

يقول جولد زيهير Gold Ziher المستشرق المعروف وهو من أكبر المستشرقين تضلعًا فى اللغة العربية، وله اطلاع واسع على الفقه الإسلامى :- إن عدد علماء العرب حتى فى علوم القرآن والشريعة كالتفسير والحديث والفقه كان أقل من عدد العلماء من غير العرب فى هذه العلوم أيضًا.

ومن الأمور التى استرعت نظر الأستاذ إدوارد بـراون فأشار إليها فى مؤلفه (الطب الإسلامى) إن الأطباء العرب ولاسيما المسلمين منهم لم يكونوا محل ثقة العرب واعتمادهم فى العلاج؛ وقلما كانوا يرجعون إليهم فى ذلك، ويستشهد الأستاذ براون برواية ذكرها الجاحظ فى كتاب البخلاء عن طبيب مسلم من العرب اسمه أسد بن جانى أسد، فقال له قائل: «السنة

وبئة والأمراض فاشية وأنت عالم ولك جد وخدمة، ولك بيان ومعرفة، فمن أين تأتى هذا الكساد؟ قال أما واحدة فإنى عندهم مسلم، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب ، بل قبل أن أخلق، أن المسلمين لايفلحون فى الطب. وأسمى أسد، وكان ينبغى أن يكون اسمى صليبيًا ومرايل ويوحنا وبيرا (ويقصد الأسماء اليونانية أو السريانية أو الآرامية) وكنيتى أبو الحارث وكان ينبغى أن تكون أبو عيسى وأبو زكريا وأبو إبراهيم (أى كنى اليهود أو النصارى) وعلىّ رداء قطن أبيض، وكان ينبغى أن يكون رداء حرير أسود؛ ولفظى لفظ عربى، وكان ينبغى أن تكون لغتى لغة أهل جنديسابور (يقصد لسان أهل إيران) .

والخلاصة أن معظم الأطباء الكبار من المسلمين فى عصر النهضة العلمية والاستقلال الفكرى فى الإسلام، كانوا من الإيرانيين، وكان أطباء هذه الحقبة من أصحاب الرأى والنظر ممن جازوا مرحلة التقليد والتسليم لآراء أسلافهم؛ فإنهم كانوا يبذلون غاية الجهد ويعملون رأيهم، فيميزون بين الصحيح والسقيم من الآراء، ويضيفون إليها من عندهم الشئ الكثير ؛ وخير مثال لهؤلاء محمد بن زكريا الرازى الذى جمع فى مؤلفيه كتاب المنصورى وكتاب الحاوى كل المعارف الطبية التى كانت موجودة فى زمنه من مؤلفات من سبقه من الأطباء من يونانية وغير يونانية، ونقدها نقدًا علميًا ، يدل على علو كعبه وطول باعه وإحاطته التامة، وزاد عليها مشاهداته وتجاربه الشخصية ، كما أنه ألف كتابًا فى الحصبة والجدرى، ولم يكن أحد من الأطباء الذين سبقوه، قد عرف أن هذين المرضين مستقلان. وله غير هذه الكتب رسائل خاصة عن تجاربه الشخصية ومطالعاته فى البيمارستانات، وبجانب فراش المرضى ، ورسائل أخرى فى المبادئ الخلقية التى يجب علي الطبيب مراعاتها والسير بموجبها بحكم الواجب، وفى هذه الرسائل أيضًا تتجلى اختباراته الشخصية بوضوح تام.

ومن مؤلفات الرازى كتاب باسم شكوك الرازى على كلام جالينوس فاضل الأطباء فى الكتب التى نسبت إليه؛ ولدى نسخة خطية منه يقول فى مقدمتها :

(إنى لأعلم أن كثيرًا من الناس يستجهلونى فى تأليف هذا الكتاب ، وكثيرًا منهم يلوموني ويعنفونى على مناقضة رجل مثل جالينوس فى جلاله ومعرفته ، وتقدمه فى جميع أجزاء الفلسفة ومكانه منها، وأجد أنا لذلك مضضًا فى نفسى، إذ كنت قد بليت بمقابلة من هو أعظم الخلق على منة ، وأكثرهم لى منفعة ؛ به أهتديت ، وإثره اقتفيت، ومن بحره استقيت ، مما لاينبغى أن يقابل به العبد سيده، والتلميذ أستاذه ، والمنعم عليه ولى نعمته ، وبودى يشهد الله أن هذه الشكوك التى أنا ذاكرها فى هذا الكتاب، لم تكن فى كتب هذا الرجل الخيّر الفاضل

العظيم قدره، الجليل خطره، والعام نفعه، الباقى فى الخير ذكره ، لكن صناعة الفلسفة لاتحتمل التسليم للرؤساء والقبول منهم ولامساهلتهم، وترك الاستقصاء عليهم، ولا الفيلسوف يحب ذلك من تلاميذه والمتعلمين منه كما قد ذكر ذلك أيضًا جـالينوس فى كتابه فى منافع الأعضاء حيث وبخ الذين يكلفون أتباعهم وأشياعهم القبول منهم بلا برهان . وكان أكثر ما عزّانى وَسَهّل على أن هذا الرجل الجليل لو كان حيًا حاضراً لم يلمنى على تأليف هذا الكتاب، ولم يثقل ذلك عليه إيثاراً منه للحق وحبًا لتقصى المباحث). إلى أن يقول: «وأما من لامنى وجهلنى فى استخراج هذه الشكوك والكلام فيها فإنى لا أرتفع به ولا أعده فيلسوفًا إذ كان قد نبذ سنة الفلاسفة وراء ظهره، وتمسك بسنة الرعاع من تقليد الرؤساء وترك الاعتراض عليهم).

هذا أرسطاليس يقول:- اختلف الحق وفلاطن وكلاهما صديقان لنا، إلا أن الحق أصدق لنا من فلاطن. وهو يقاومه ويناقضه من أجل آرائه، فقد ناقض أرسطاليس فى أوضح أجزاء الفلسفة بعد الهندسة الذى هو المنطق يبين غلطه فى كثير من المواضع، حتى أنه يتعجب ويقول: لست أدرى كيف ذهب على الحكيم هذا المعنى وهو فى غاية الوضوح !

وتذكرنا هذه المقدمة بمقدمة أخرى للشيخ الرئيس ابن سينا فى كتابه حكمة المشرقيين وفيها ينتقد فلسفة المشائين.

والذى يتبين من مطالعة هذه المقدمة أن تحولا فكريًا عظيما كان قد طرأ على ابن سينا فى أخريات أيام حياته نتيجة المطالعة والدرس، إذ نراه يبدى آراءه دون أن يتقيد بفلسفة المشائين، ويبينها حسب فلسفة اليونان ولو خالفت فلسفة المشائين، أو باينت آراءه التى كان قد أبداها الشيخ نفسه حتى ذلك التاريخ .

وبما أن النمو العقلى والفكرى عند الحكماء والفلاسفة وتقدمهم فى هذا الباب يشبهان إلى حد كبير تقدم الأطباء المسلمين فى العلوم الطبية، أعنى أن النسبية بين أطباء عصور النهضة وعهد ظهور التآليف المستقلة، وبين مترجمى الكتب الطبية فى العصور الأولى من الإسلام هى نفس النسبة بين مترجمى المؤلفات الفلسفية فى العصور الأولى ومترجمى كتب الفلسفة فى العصور المتأخرة، أرى أن أذكر لحضراتكم هنا هذه المقدمة القيمة.

(٥)

يقول ابن سينا فى المقدمة المذكورة :

«وبعد» فقد نزعت الهمة بنا إلى أننتجمع كلاماً فيما اختلف أهل البحث فيه لانلتفت فيه لف عصبية أو هوى أو عادة أو ألف ، ولا نبالى من مفارقة تظهر منا لما ألفه متعلمو كتب اليونانيين إلفًا عن غفلة وقلة منهم ولما سمع منا فى كتب ألفناها للعاملين من المتفلسفة المشغوفين بالمشائين الظانين أن الله لم يهد إلا إياهم، ولم ينل رحمته سواهم، مع اعتراف منا بفضل أفضل سلفهم (يعنى أرسطو) فى تنبيهه لما نام عنه نووه واستانوه، وفى تمييزه أقسام العلوم بعضها عن بعض ، وفى ترتيبه العلوم خيراً مما رتبوه ، وفى إدراكه الحق فى كثير من الأشياء ، وفى تفطنه لأصول صحيحة سرية فى أكثر العلوم وفى إطلاعه الناس على ما بينها فيه السلف وأهل بلاده ، وذلك أقصى ما يقدر عليه إنسان يكون أول من مدّ يديه إلى تمييز مخلوط وتهذيب مفسد ، ويحق على من بعده أن يلموا شعثه ويرموا ثلمًا يجدونه فيما بناه ويفرعوا أصولا أعطاها فما قدر من بعده على أن يفرغ نفسه عن عهدة ما ورثه منه وذهب عمره فى تفهم ما أحسن فيه والتعصب لبعض ما فرط من تقصيره، فهو مشغول عمره، بما سلف ، ليس له مهلة يراجع فيها عقله ، ولو وجدها ما استحل أن يضع ما قاله الأولون موضع المفتقر إلى ما زيد عليه أوإصلاح له أو تنقيح إياه .

وأما نحن فسهل علينا التفهم لما قالوه أول ما اشتغلنا به ولا يبعد أن يكون قد وقع إلينا من غير جهة اليونانيين علوم وكان الزمان الذى اشتغلنا فيه بذلك ريعان الحداثة ، ووجدنا من توفيق الله ما قصر علينا بسببه مدة التفطن لما أورثوه . ثم (المنطق) - ولايبعد أن يكون له عند المشرقين اسم غيره- حرفًا حرفًا فوقفنا على ما تقابل وعلى ما عصى، وطلبنا لكل شئ وجهة فحق ما حق وزاف ما زاف .

ولما كان المشتغلون بالعلم شديدى الاعتزاء إلى (المشائين) من اليونانيين كرهنا شق العصا ومخالفة الجمهور فانحزنا إليهم وتعصبنا للمشائين إذ كانوا أولى فرقهم بالتعصب لهم - وأكملنا ما أرادوه وقصروا فيه ولم يبلغوا أربهم منه وأغضينا عما تخبطوا فيه، وجعلنا له وجهًا ومخرجًا ونحن بدخلته شاعرون وعلى ظله واقفون . فإن جاهرنا بمخالفتهم ففى الشئ الذى لم يكن الصبر عليه، وأما الكثير فقد غطيناه بأغطية التغافل . فمن جملة ذلك ما كرهنا أن يقف الجهال على مخالفة ما هو عندهم من الشهرة بحيث لايشكون فيه ويشكون فى النهار الواضح

وبعضه قد كان من الدقة بحيث تعمش عنه عيون هؤلاء الذين فى العصر - فقد بلينا برفقة منهم عارى الفهم كأنهم خشب مسندة يرون التعمق فى النظر بدعة، ومخالفة المشهور ضلالة كأنهم الحنابلة فى كتب الحديث لو وجدنا منهم رشيداً أثبتناه بما حققناه- فكنا ننفعهم به، وربما تسنى لهم الإيغال فى معناه فعوضونا منفعة استبدوا بالتنفير عنها .

ومن جملة ما ضننا بإعلانه عابرين عليه- حق مغفول عنه يشار إليه فلا يتلقى إلا بالتعصب. فلذلك جرينا فى كثير مما نحن خبراء بيجدته مجرى المساعدة دون المحاقة . ولو كان ما انكشف لنا أول ما انصببنا إلى هذا الشأن لم نبد فيه مراجعات منا لأنفسنا ومعاودات من نظرنا- لما تبينا فيه رأياً ولاختلط علينا الرأى وسرى فى عقائدنا الشك، وقلنا لعل وعسى. لكنكم أصحابنا تعلمون حالنا فى أول أمرنا وآخره وطول المدة التى بين حكمنا الأول والثانى، وإذا وجدنا صورتنا هذه فبالحرى أن نثق بأكثر ما قضيناه وحكمنا به واستدركناه، ولاسيما فى الأشياء التى هى الأغراض الكبرى والغايات القصوى التى اعتبرناها وتعقبناها مئين من المرات. ولما كانت الصورة هذه والقضية على هذه الجملة ، أحببنا أن نجمع كتاباً يحتوى على أمهات العلم الحق الذى استنبطه من نظر كثيراً وفكر ملياً، ولم يكن من جودة الحدس بعيداً واجتهد فى التعصب لكثير فيما يخالفه الحق فوجد لتعصبه وما يقوله وفاقاً عند الجماعة غير نفسه، ولا أحق بالإصغاء إليه من التعصب لطائفة إذا أخذ يصدق عليهم فإنه لاينجيهم من العيوب إلا الصدق.

وما جمعنا هذا الكتاب لنظهره إلا لأنفسنا- أعنى الذين يقومون منا مقام أنفسنا- وأما العامة من مزاولى هذا الشأن فقد أعطيناهم فى (كتاب الشفاء) ما هو كثير لهم وفوق حاجتهم، وسنعطيهم وفى اللواحق ما يصلح لهم زيادة على ما أخذوه، وعلى كل حال فالاستعانة بالله وحده».

ويظهر لنا من هذه المقدمة الفرق الشاسع بين المترجمين ومتتبعى فلسفة اليونان الذين كانوا يتلقون آراء فلاسفة اليونان فى جميع الأحوال بأحسن قبول ويعتبرون عقولهم منتهى ما يصل إليه العقل، وبين الحكماء أصحاب الرأى والنظر من المتأخرين أمثال ابن سينا ممن لم يكونوا يرون فى عقول فلاسفة اليونان أقصى ما يبلغه العقل البشرى ولم يكونوا يتقبلون آراءهم كحقائق لاتقبل الشك والجدل.

كان يرى الشيخ الرئيس أن فلسفة أرسطو تعتبر كاملة لزمان أرسطو فحسب، وأن للأجيال القادمة أن تبدى فيها رأيها تنقدها وتصحح ما تراه فيها من الخطأ كما كانت نظرة الرازى لآراء جالينوس فى الطب.

وهناك أمر آخر أرى من المناسب أن أشير إليه وهو أن ابن سـينا لم يقتصر فى كتابه (الشفاء) وهو عن فلسفة المشائيين- على نقل ما وصله من أقوال أرسطو عن طريق التراجم بل أنه (أى كتاب الشفاء) هو حاصل ما فهمه هو نفسه من فلسفة أرسطو .

اتصل أبوعبيد الجوزجانى تلميذ الشيخ وصاحبه حتى آخر أيام حياته أى ما يقارب خمسة وعشرين عامًا ولازمه فى كل حال وكل مكان . لم ينفك عنه فى سفر أو حضر، وكان الراوى الثقة الذى نقل إلينا تاريخ حياة الشيخ.

يقول أبو عبيد هذا فى شرح أحوال الشيخ: (ثم سألته أنا شرح كتب أرسطو طاليس فذكر أنه لافراغ له إلى ذلك الوقت ، وقال : ولكن إن رضيت منى بتصنيف كتاب أورد فيه ما صح عندى من هذه العلوم بلا مناظرة مع المخالفين ولا اشتغال بالرد عليهم، فعلت ذلك، فرضيت به.

وكان بعد محمد بن زكريا الرازى وقبل زمن الشيخ الرئيس ابن سينا طبيب آخر وهو على ابن العباس المجوسى الأهوازى، وكان تلميذًا لأبي ماهر موسى بن سيار المجوسى وله كتاب جامع فى الطب اسمه (كامل الصناعة الطبية) ألفه وقدمه لعضد الدولة الديلمى الملقب بشاهنشاه أو ملك الملوك. وكان طبيبه الخاص ، ومن هنا سمى الكتاب بالملكى.

ينتقد على بن العباس فى مقدمة مؤلفه هذا- وهو من الآثار الخالدة فى الطب الإسلامى، جميع الأطباء الكبار الذين سبقوه

تراه يقول فى المقدمة المذكورة :

فأما أبقراط الذى كان أمام هذه الصناعة وأول من دونها فى الكتب فقد وضع كتبًا كثيرة فى كل نوع من أنواع هذا العلم، منها كتاب واحد جامع لكثير مما يحتاج إليه طالب هذه الصناعة ضرورة، وهذا الكتاب هو كتاب الفصول ، وقد يسهل جمع هذه الكتب حتى تصير كتابًا واحدًا حاويًا لجميع ما قد يحتاج إليه فى بلوغ غاية هذه الصناعة ، إلا أنه استعمل فيه كسائر كتبه الإيجاز، حتى صارت معان كثيرة من كلامه غامضة يحتاج القارئ لها إلى تفسير، وأما جالينوس المقدم المفضل فى هذه الصناعة ، فإنه وضع كتبًا كل واحد منها مفرد فى نوع من أنواع هذا العلم وطول الكلام فيه وكرره لما احتاج إليه من الاستقصاء فى الشرح وإقامة البراهين والرد على من عاند الحق وسلك سبيل المغالطين، ولم أجد له كتابًا واحدًا يصف فيه ما يحتاج إليه فى درك هذه الصناعة وبلوغ الغرض المقصود إليه منها للسبب الذى ذكرته آنفًا.

وقد وضع أوريباسيوس كتبًا وكذلك فولس الأجنطى ، ورام كل واحد منهما أن يبين فى كتابه جميع ما يحتاج إليه، فوجدت أوريباسيوس قد قصر فى كتابه الصغير الذى وضعه لابنه (أونـافس) وإلى عوام الناس ، فلم يذكر فى الكتاب الذى وضعه لابنه (أسطـات) فى تسع مقالات فإنه لم يذكر فيه شيئًا من الأمور الطبيعية التى هى الاستقصات من الأمزجة والأخلاط والأعضاء والقوى والأفعال والأرواح إلا اليسير، ولم يذكر فى هذين الكتابين شيئًا من العمل باليد؛ فأما كتابه الكبير الذى وضعه فى سبعين مقالة فلم أجد فيه إلا مقالة واحدة فيها ذكر تشريح الأعضاء. وأما فـولس فلم يذكر فى كتابه من الأمور الطبيعية إلا اليسير. وأما أمر الأسباب والعلامات وسائر أنواع المداواة العلاج باليد فقد بالغ فى بيانه؛ إلا أنه لم يذكر ما ذكره فى كتابه على طريق من طرق التعليم.

وأما المحدثون فلم أجد لأحد منهم كتابًا يصف فيه جميع ما يحتاج إليه فى مداواة الأمراض والعلل وأسبابها وعلاماتها ، وما سوى ذلك فذكره على جهة الإيجاز من غير شرح واضح؛ ومع ذلك فإن ترجمته ترجمة سوء رديئة تعمى على القارئ له كثيرًا من المعانى التى قصد إلى شرحها ، ولاسيما من لم ينظر فى ترجمة حنين وأشباهه . وأما يوحنا بن سرابيون فإنه وضع كتابًا [لم] يذكر فيه شيئًا سوى مداواة العلل والأمراض التى تكون بالأدوية والتدبير ولم يذكر العلاج الذى يكون باليد، وترك أشياء كثيرة من العلل ولم يذكرها من ذلك أنه ترك من علل الدماغ ، ذكر العلل المعروفة بالقطرب والعشق والاسترخاء الحادث عن القولنج ولم يذكر فى علاج العين مداواة النتوء على ما ينبغى ولم يذكر علاج السرطان فى العين وغير ذلك من علل الأجفان.

وأما مسيح فإنه وضع كتابًا نحا فيه النحو الذى نحاه هرون فى قلة شرح الأمور الطبيعية والأمور التى ليست بطبيعية مع سوء ترتيبه لما وضعه فى كتابه من العلم وقلة معرفته بتصنيف الكتب .

وأما محمد بن زكريا الرازى فإنه وضع كتابه المعروف بالمنصورى وذكر فيه جملا وجوامع من صناعة الطب ولم يغفل عن ذكر شئ مما يحتاج إليه، إلا أنه لم يستقص شرح ما ذكره لكنه استعمل فيه الإيجاز والاختصار . وهذا كان غرضه وقصده فيه ؛ فأما كتابه المعروف بالحاوى فوجدته قد ذكر فيه جميع ما يحتاج إليه المتطببون من حفظ الصحة ومداواة الأمراض والعلل التى تكون بالتدبير بالأدوية والأغذية وعلاماتها ، ولم يغفل عن ذكر شئ مما يحتاج إليه الطالب لهذه الصناعة من تدبير الأمراض والعلل؛غير أنه لم يذكر فيه شيئًا من

الأمور الطبيعية كعلم الاستقصات والأمزجة والأخلاط وتشريح الأعضاء ولا العلاج باليد ولاذكر ما ذكره من ذلك على ترتيب ونظام ولا على وجه من وجوه التعاليم ولا جزاء بالمقالات والفصول والأبواب.

والذى يقع لى من أمره وأتوهمه على ما يوجبه القياس من علمه ومعرفته لصناعة الطب وتصنيف الكتب وفهمه فى هذا الكتاب إحدى الحالتين : إما أن يكون وضعه وذكر فيه ما ذكر من جميع علم الطب ليكون تذكرة له خاصة يرجع إليه فيما يحتاج من حفظ الصحة ومداواة الأمراض عند الشيخوخة ووقت الهرم أو النسيان أو خوفًا من آفة تعرض لكتبه فيعتاض منها بهذا الكتاب، وكذلك لكثرة تجريده التآليف من التعظيم، وإما أن ينتفع الناس به ويكون له ذكر حسن من بعده، فعلق جميع ما ذكره فيه تعليقًا ليعود فيه فينظمه ويرتبه ويضيف كل نوع منه إلى ما يشاكله ويثبته فى بابه على ما يليق بمعرفته لهذه الصناعة فيكون الكتاب بذلك كاملا تامًا فعاقه عن ذلك عوائق وجاءه الموت قبل إتمامه؛ فإن كان إنما قصد به هذا الباب فقد طول فيه الكلام وعظمه من غير حاجة اضطرارية دعته إلى ذلك حتى قد عجز أكثر العلماء عن نسخه واقتنائه إلا اليسير من ذوى اليسار من أهل الأدب فقل وجوده، وذلك أنه ذكر فى صفة كل واحد من الأمراض وأسبابه وعلاقاته ومداواته ما قاله كل واحد من الأطباء القدماء والمحدثين فى ذلك المرض من ابقراط وجالينوس إلى إسحق بن حنين ومن كان بينهما من الأطباء القدماء والمحدثين ولم يترك شيئا مما ذكر كل واحد منهم من ذلك إلا أورده فى هذا الكتاب . وعلى هذا القياس فقد صارت جميع كتب الطب محصورة فى كتابه هذا.

وأما أنا فإنى أذكر فى كتابى هذا جميع ما يحتاج إليه فى حفظ الصحة ومداواة الأمراض والعلل وطبائعها وأسبابها ، والأعراض التابعة لها والعلامات الدالة عليها مما [لا] يستغنى الطبيب الماهر عن معرفته إلى أن يقول (وأنا ممثل لك مثالا للطريق الذى أسلكه فى كتابى هذا من صفة الأمراض وأسبابها وعلاماتها ومداواتها وأجعل ذلك فى ذات الجنب) .

من كل ما ذكرنا نستطيع أن نفهم مبلغ التطور الفكرى والنضج العلمى الذى كان قد بلغه العلماء والأطباء المسلمون فى القرنين الثالث والرابع من الهجرة ويعدان فى الحقيقة عصر كمال الرقى العلمى لدى المسلمين ، ومن أهم العصور فى تاريخ تكامل الثقافة والعلوم عند البشر.

في هذا العهد ظهر كثير من الأطباء الكبار من أصحاب التآليف المهمة في المسلمين، كانت آثارهم ومؤلفاتهم تدرس في المدارس ، وكتبالعلماء مئات من الشروح والحواشي عليها، وترجمت مؤلفاتهم إلى اللاتينية ، ودرست في مدارس أوربا الطبية وكانت مدار علم الطب عندهم ، وكان كثير منهم من إيران ، وقد بلغت شهرة خمسة منهم حداً عظيما وخلدت أسماؤهم في تاريخ الطب وهم :

١- على بن رين الطبرى صاحب كتاب (فردوس الحكمة) وكتب أخرى في الطب، وقد تلقى عنه الطب محمد بن زكريا الرازى كما روى معظم المؤرخين .

٢- محمد بن زكريا الرازى وهو أكبر الأطباء المسلمين ومن أعظم الأطباء والكيماويين في العالم، وله تآليف متعددة في الطب والكيمياء.

٣- على بن العباس المجوسى الأهوازى وكان طبيب عضد الدولة الديلمى، ومن تآليفاته كتاب (كامل الصناعة الطبية).

٤- الشيخ الرئيس أبو على بن سينا الفيلسوف والطبيب المشهور مؤلف القانون في الطب والشفاء والنجاة والإرشادات ورسائل أخرى في الفلسفة.

٥- السيد إسماعيل الجرجانى مؤلف كتاب (ذخيرة خوارزمشاهى) في الطب باللغة الفارسية.

(٦)

من كل ما ذكرنا نستطيع أن نفهم مبلغ التطور الفكرى والنضج العلمى الذى كان قد بلغه العلماء والأطباء المسلمون فى القرنين الثالث والرابع من الهجرة ويعدان فى الحقيقة عصر كمال الرقى العلمى لدى المسلمين ، ومن أهم العصور فى تاريخ تكامل الثقافة والعلوم عند البشر.

فى هذا العهد ظهر كثير من الأطباء الكبار من أصحاب التآليف المهمة فى المسلمين، كانت آثارهم ومؤلفاتهم تدرس فى المدارس ، وكتبالعلماء مئات من الشروح والحواشى عليها، وترجمت مؤلفاتهم إلى اللاتينية ، ودرست فى مدارس أوربا الطبية وكانت مدار علم الطب عندهم ، وكان كثير منهم من إيران ، وقد بلغت شهرة خمسة منهم حداً عظيما وخلدت أسماؤهم فى تاريخ الطب وهم :

١- على بن ربن الطبرى صاحب كتاب (فردوس الحكمة) وكتب أخرى فى الطب، وقد تلقى عنه الطب محمد بن زكريا الرازى كما روى معظم المؤرخين .

٢- محمد بن زكريا الرازى وهو أكبر الأطباء المسلمين ومن أعظم الأطباء والكيماويين فى العالم، وله تآليف متعددة فى الطب والكيمياء.

٣- على بن العباس المجوسى الأهوازى وكان طبيب عضد الدولة الديلمى، ومن تآليفاته كتاب (كامل الصناعة الطبية).

٤- الشيخ الرئيس أبو على بن سينا الفيلسوف والطبيب المشهور مؤلف القانون فى الطب والشفاء والنجاة والإرشادات ورسائل أخرى فى الفلسفة.

٥- السيد إسماعيل الجرجانى مؤلف كتاب (ذخيرة خوارزمشاهى) فى الطب باللغة الفارسية.

٥- على بن ربن الطبرى:

وقد كان على بن ربّن الطبرى متقدمًا عليهم فى الزمان ، ويعتبر مؤلفه (فردوس الحكمة) أول تآليف طبى مستقل لأطباء المسلمين، لذلك نكتفى فى حديثنا هذا بذكر مجمل من تاريخ حياته مقتبساً مما ذكره معظم المؤرخين عنه وما ذكره هو نفسه فى مقدمة مؤلفه كتاب فردوس الحكمة.

هو أبو الحسن على بن سهل بن ربّن الطبرى وكان من أسرة برعت فى العلوم ، وتولت أهم الأعمال لولاة طبرستان ، وكان أبوه من أبناء كتاب مدينة مروو نوى الأحساب والآداب ، وكانت له براعة فى الطب والفلسفة ، يقدم الطب على صناعة أبائه ، وقد قام بتثقيف ابنه وتعليمه العربية والسريانية ، علاوة على الطب والهندسة والفلسفة والعبرانية وقليلا من اليونانية أيضًا، والدليل على أنه كان له إلمام بهذه الألسنة أنه قد شحن فردوس الحكمة ببسط القول فى الهندسة والفلسفة ، وشرح فيه بعض اللغات اليونانية ، ونشر ترجمة باللغة السريانية.

وبعد أن فرغ من التعلم فى طبرستان ، توجه إلى العراق وأقام بها وأخذ يتطبب فيها، وبعد أن عين مازيارين قارن لولاية طبرستان من قبل العباسيين، ترك لعى بن ربن الطب وأسرع إلى هناك ، وتولى الكتابة فى ديوان مازيار، واستمر فى عمله حتى قتل مازيار، ثم توجه إلى الرى وعاد فيها إلى التطبب ثانيًا، وهناك أخذ الرازى يقرأ عليه الطب، ثم رحل إلى سُرَّمن رأى وأقام بها ، وفيها وفقه الله للانتهاء من تأليفه فردوس الحكمة، وكان ذلك فى العام الثانى من خلافة المتوكل على الله.

يقول ابن أسفنديار فى المجلد الأول من مؤلفه تاريخ طبرستان ما ترجمته: إن الخليفة المعتصم عين عليًا بن ربن الطبرى بعد مازيار بديوان الإنشاء فوجدوا معانى ما يكتب أقل منها فى مازيار، فسألوه عن العلة فقال إن مازيار كان يكتب تلك المعانى بلغته ، أما أنا فإنى أدونها بالعربية وفى هذا ما يدل على قوة عقل مازيار.

ولما تولى المتوكل الخلافة دعاه إلى الإسلام فلباه واعتنقه ، فلقبه بمولى أمير المؤمنين ، ولشرف فضله جعله من ندمائه ، وفى رواية لابن النديم أنه أسلم على يد المعتصم.

وقد اختلف المؤرخون فى دين على بن ربن ، فقال بعض مشاهيرهم ومنهم محمد بن جرير الطبرى إنه نصرانى، وقال آخرون منهم كالقفطى: إنه من اليهود.

يقول القفطى: «وكان له تقدم فى علم اليهود والروبن والربين والراب أسماء لمقدمى شريعة اليهود»، ويظهر من هذا الكلام أن سبب وقوع القفطى وغيره ممن يعدونه يهوديًا ناشئ من كلمة (ربن) إذ إن هذه الكلمة تطلق عادة على العلماء المتبحرين فى علوم الدين عند اليهود- وقد كان لأبيه كما روى عن على بن ربن نفسه وعن غيره من المؤرخين- إحاطة تامة بالكتب المقدسة وعلوم التوراة- أما بعد نشر كتاب (الدين والدولة) بواسطة الأستاذ منغانا المستشرق، وفيه يصف على بن ربن نفسه أيام نصرانيته لايبقى أى شك فى أنه كان من النصارى وأن الذين يعدونه يهودًا مخطئون ، وسبب وقوعهم فى هذا الخطأ هو لقب والده (ربن) .

أما تآليفه فهى حسب رواية ابن النديم وابن أبى أصيبعة والقفطى كالآتى:

١- تحفة الملوك.

٢- فردوس الحكمة.

٣- كناش الحضرة.

٤- منافع الأدوية والأطعمة والعقاقير .

٥- كتاب فى الأمثال والأدب على مذاهب الفرس والروم والعرب ، وقد أضاف إليها ابن أبى أصيبعة كتباً أخرى منها:

١- كتاب عرفان الحياة أو إرفاق الحياة.

٢- كتاب حفظ الصحة .

٣- كتاب فى ترتيب الأغذية.

٤- كتاب فى الرقى.

٥- كتاب فى الحجامة .

ويجدر بنا أن نزيد عليها كتابين آخرين هما:

١- (الدين والدولة) الذى نشرته مطبعة المقتطف والذى يشير على بن ربن نفسه فى مقدمة مؤلفه (فردوس الحكمة) إلى أنه قام بنقله إلى السريانية بعد إنجاز تآليفه.

٢- كتاب الرد على أصناف النصارى الذى أشار إليه المؤلف فى مطاوى كتاب الدين والدولة.

قد ذكر ابن أسفنديار فى مؤلفه تاريخ طبرستان[1] مؤلفاً آخر له باسم (بحر الفوائد) ولم يسلم من عوادى الزمان من كل هذه المؤلفات التى ذكرناها غير ثلاثة كتب هى:

١- كتاب فردوس الحكمة فى الطب.

٢- كتاب حفظ الصحة، وتوجد نسخة منه فى مكتبة بودلين باكسفورد .

٣- كتاب الدين والدولة ، وقد طبع بمطبعة المقتطف، ونذكر هنا نبذة عن كتائب فردوس الحكمة، قام بمراجعة هذا الكتاب وطبعه ونشره الدكتور محمد زبير الصديق أستاذ جامعة

١- تاريخ طبرستان مؤلف عام ٦١٣ هجرى.

لكنو فى مطبعة أفتاب ببرلين بتشجيع المرحوم الأستاذ ادوارد براون المستشرق الإنجليزى المعروف وإرشاده - وكان طبيبًا محبًا لإحياء الكتب الطبية- وبمساعدة أوقاف جمعية جيب التنكارية) وذلك بمراجعة النسخ الخطية الثلاث الموجودة فى أوربا والنسختين الموجودتين فى الهند[١] وكان ذلك عام ١٩٢٨ بعد وفاة الأستاذ براون .

وقد كان كتاب (فردوس الحكمة) معروفًا منذ بدء تاريخ تأليفه حتى إن أشهر المؤرخين محمد بن جرير الطبرى كان يطالعه وهو مريض قد لزم الفراش ، واستشهد به الرازى والمسعودى وياقوت وأبو ريحان وغيره من المحققين فى مواضع شتى من كتبهم [٢].

والكتاب مقسم إلى سبعة أنواع من العلوم، والأنواع مقسمة إلى ثلاثين مقالة، والمقالات إلى ثلاثمائة وستين بابًا .

ونجتزئ فى حديثنا هذا الآن بالإشارة إلى أن النوع الأول من الكتاب مشتمل على مقالة واحدة يذكر فيها أنه أخذ المعارف التى ضمنها كتابه من بقراط وجالينوس وآخرين من علماء الطب ومن كتب أرسطو وسائر الفلاسفة ومن آثار معاصريه كيوحنا ابن ماسويه وحنين بن إسحق ، وأضاف إلى ذلك كله خلاصة كتب أخرى طالعها وألحق بها زيادة فى الإفادة مقالة خاصة فى كتب الطب.

وفى أبواب هذا المقالة يتحدث عن كليات المسائل الفلسفية والعلوم الطبيعية من قبيل الهيولى والصورة والكم والكيف وتأثير الفلك والأجرام السماوية والهواء والشهب والحيوان البرى والبحرى والهوائى وغير ذلك .

وفى النوع الثانى ويحتوى على خمس مقالات يشرح المسائل الطبية كالحمل والجنين وعلل العقم والعُقْر وخلقة الأعضاء والحواس والقوى المدبرة فى البدن والقوى النفسانية والرويا والكابوس.

وفى النوع الثالث يبحث عن الأغذية وأنواعها والكمية اللازمة من أنواعها المختلفة وقوة كل نوع منها .

١- النسخ الخطية الثلاث الموجودة أحدها فى المتحف البريطانى وهى أكمل نسخة موجودة والأخرى فى مكتبة (جوتا) بألمانيا والثالثة فى مكتبة برلين . أما النسختان الموجودتان فى الهند فإحداهما نسخة خاصة ملك كمال الدين الطبيب الهندى بلكنو والأخرى ملك رامفور .

٢- من مقدمة الدكتور الزبيرى عن كتاب فردوس الحكمة.

وفى النوع الرابع وهو أكبر أنواع الكتاب وأكثرها تفصيلا يتحدث أولا عن الأمراض بصفة عامة كالبحث عن الأمراض الخاصة بكل دور من أدوار الحياة والأمراض الخاصة بكل فصل من فصول السنة وعلة هيجان الأخلاط والطبائع ثم يشرح بعد ذلك الأمراض الخاصة بكل عضو من أعضاء الجسم من قمة الرأس إلى أخمص القدم ويتحدث عن العلاج والفصد والحجامة وخصوصيات كل دواء وذكر علاجه .

وفى النوع الخامس يبين خواص الأشياء وروائحها وألوانها وفى النوع السادس منه يتحدث بالتفصيل عن المواد الغذائية والأدوية المختلفة كالحبوب والغلال والبقول والخضر والفواكه والزيوت واللحوم والمربيات والمخللات والأدوية المفردة والعقاقير والمسهلات ويذكر فيه أيضًا منافع أعضاء كثير من أنواع الحيوان وعن السموم وعلاماتها وترياقها والمراهم والأضمدة وغيرها .

وفى النوع السابع يتكلم عن الماء والهواء والأقليم والفصول والعلاقة الموجودة بينها وبين الصحة والمرض وفائدة علم الطب.

ويتبين من مطالعة كتب على بن ربن أنه لم يسهب فى الكلام عن الجراحة العملية والتشريح بينما نراه فى النوع الرابع من الكتاب وهو أهم قسم فيه ويؤلف خمسى الكتاب على وجه التقريب ، يتحدث عن الأمراض بتفصيل كلى غير أنه لايذكر حتى فى هذا النوع شيئًا مهما عن تجاربه الشخصية أو مطالعاته عن المرضى فى المستشفيات على عكس تلميذه العظيم الذى يمكن اعتباره أكبر الأطباء المسلمين ، أعنى محمد بن زكريا الرازى فإن كل كتبه ومؤلفاته مشحونة بمطالعاته الخاصة فى المستشفيات ، وبتجاربه المختلفة وبحوثه الدقيقة الشخصية.

ويستفاد من هذه الكتب الثلاثة الباقية من آثار هذا الرجل العظيم أنه فضلا عن مهارته فى العلوم العربية والأدب وحسن الإنشاء ومعرفة اللغات المتداولة فى زمانه كان عالمًا بالطب والفلسفة والنجوم أيضًا كما أنه كان لديه اطلاع واسع على الديانات اليهودية والنصرانية والإسلامية.

وينسب بعض الكتاب الذين دونوا سيرة على بن الطبرى إليه أقوالا تعتبر من الحكم والأمثال السائرة (السلامة غاية كل سول- طول التجارب زيادة فى العقل- التكلف يورث الخسارة- شر القول ما نقض بعضه بعضًا- الطبيب الجاهل مستحث الموت.

(٧)

٦- البيمارستانات فى البلاد الإسلامية:

لقد أشرنا فى حديثنا السابق إلى مطالعات الأطباء المسلمين بجانب سرير المريض، ولتوضيح الناحية العملية من الطب الإسلامى وأعمال الأطباء فى البيمارستانات وطريقة تمريض المرضى وعلاجهم وحالة دور الشفاء عندهم لابد من أن نلقى كلمة عن هذا الموضوع:

يأمر الدين الإسلامى مثل سائر الأديان السماوية بالرفق والشفقة ويدعو إلى البر بالفقراء والإحسان إليهم ومواساة المرضى والعجزة؛ وقد كان تمريض المجروحين ومواساتهم والعناية بأمرهم من أهم الأمور التى كان يعيرها النبى صلى الله عليه وسلم اهتمامًا خاصًا فى غزواته. فقد جاء فى سيرة ابن هشام أن سعد بن معاذ أصيب فى غزوة الخندق فى شوال من العام الخامس الهجرى بسهم فى الأكحل[1] فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يوضع فى خيمة رفيدة الأسلمية، وكانت تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين قائلا: اجعلوه فى خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب. ويمكن اعتبار خيمة رفيدة هذه أول مستشفى حربى متنقل عند المسلمين .

وبعد ذلك ازداد عدد هذه المستشفيات المتنقلة التى كانت تسمى بالبيمارستانات المحمولة[2] مقابل البيمارستانات الثابتة.

وهذه البيمارستانات المحمولة زيادة على استعمالها فى الحروب كانت تنتقل من مكان إلى آخر ، وكانت مجهزة بكل ما يلزم المرضى عادة من أدوات وأدوية وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة وكل ما يعين على ترقيه المرضى والعجزة والمزمنين والمسجونين وكانت تنتقل من بلد إلى أخرى من البلدان الخالية من بيمارستانات ثابتة.

يقول ابن أبى أصيبعة نقلا عن ثابت بن سنان :

إن الوزير على بن عيسى بن الجراح فى أيام تقلده الدواوين من قبل المقتدر بالله وتدبير المملكة فى أيام وزارة حامد بن أبى العباس وقع إلى والده سنان بن ثابت فى سنة كثرت فيها الأمراض جداً وكان سنان يتقلد البيمارستانات ببغداد وغيرها توقيعا جاء فيه: «فكرت مد الله فى عمرك فى أمر من فى الحبوس وأنهم لايخلون مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم

١- الأكحل الوريد .

٢- ويعبر عنها الآن بالفرنسية بكلمة Am bulance

الأمراض وهم معوقون عن التصرف فى منافعهم ولقاء من يشاورونه من الأطباء فى أمراضهم فينبغى أكرمك الله أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم فى كل يوم ويحملون معهم الأدوية والأشربة وما يحتاجون إليه من المزورات (والمزورات هى حساء من الخضر دون لحم أو دسم أو البهريز فى اللغة الدارجة) وتتقدم إليهم بأن يدخلوا سائر الحبوس ويعالجوا من فيها من المرضى ويريجوا عللهم فيما يصنعونه لهم إن شاء الله تعالى » ففعل سنان ذلك[1].

ثم وقع إليه توقيعًا آخر : «فكرت فى من بالسواد من أهله وأنه لايخلو من أن يكون فيه مرضى لايشرف متطبب عليهم لخلو السواد من الأطباء، فتقدم مد الله فى عمرك بإيفاد متطببين وخزانة من الأدوية والأشربة يطوفون السواد ويقيمون فى كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم ويعالجون من فيه ثم ينتقلون إلى غيره».

فنفذ سنان هذا الأمر وانتهى أصحابه إلى (سورا) من بلاد العراق وكان معظم أهلها من اليهود فكتب سنان إلى الوزير يخبره أن بعض أصحابه كتب إليه من السواد يستأذنه فى المقام هناك لعلاجهم أو الانصراف عنهم إلى غيرهم وإنه لايعلم بم يجيبهم لأنه لايعرف رأيه فى أهل الذمة . وقد عرض عليه فى كتابه هذا أن الطريقة المتبعة فى بيمارستان الحضرة هى علاج الملى والذمى؛ فوقع له الوزير توقيعًا أخبره فيه أن يقدم معالجة المسلمين على أهل الذمة، فإذا فضل عن المسلمين ماليحتاجون إليه صرف فى الطبقة التى بعدهم- أى أهل الذمة- وقال «فاعمل أكرمك الله على ذلك واكتب إلى أصحابك به ووص بالتنقل فى القرى والمواضع التى فيها الأوباء الكثيرة والأمراض الفاشية»[2].

وكانت عادة السلاطين فى دولة المماليك أنهم عندما كانوا يخرجون إلى القصور التى كانواقد بنوها خارج المدن للإقامة أياما فيها، أن يصحبهم فى السفر غالبًا حاشية من الأمراء والأعيان ومعهم كل ما تدعو إليه الحاجة حتى يكاد يكون معه بيمارستان كامل لكثرة من معه من الأطباء والكحالين والجراحين والفصادين والأشربة والعقاقير وغيرها.

وكان الأمراء المسلمون أيضًا يستعملون فى حروبهم البيمارستان المحمول وكان يحمله ويحمل الآلات والأدوات والأدوية والعقاقير اللازمة عدد من الجمال خصصت لذلك[3].

١- طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة الجزء الأول صفحة ٢٢١ .

٢- بتلخيص من طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة.

٣- طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة الجزء الأول صفحة ٢١٠ .

أما البيمارستانات الثابتة فهي ما كان بناؤها ثابتا في مكان خاص؛ وكان هذا النوع موجوداً في معظم البلاد المهمة ولاسيما في العواصم الكبرى وكان في بعضها أكثر من بيمارستان واحد ولاتزال آثار بعضها باقية إلى الآن كالبيمارستان المنصوري أو (قلاوون) والبيمارستان المؤيدي بالقاهرة والبميارستان النوري بدمشق وغيرها.

وكانت هذه البيمارستانات بوجه عام منقسمة إلى قسمين منفصلين قسم للذكور وآخر للإناث ، وكل قسم مجهز بما يحتاجه من آلات وعدد وخدم من الرجال والنساء[١] وفي كل قسم منهما قاعات مختلفة فقاعة للأمراض الباطنة وأخرى للجراحة وثالثة للكحالة ورابعة للتجبير، إلى غير ذلك من القاعات .

وكانت هذه لأقسام الخاصة مقسمة بدورها إلى شعب وأقسام فرعية مثل الفرع الخاص بالمحمومين والفرع الخاص بالممرورين أي المجانين ، والفرع الخاص بالمصابين بالأمراض العادية والأسهال وغير ذلك. وكانت البيمارستانات تقام في أماكن حسنة الموقع طيبة المناخ*.

يروى بعض المؤرخين في ترجمة حياة محمد بن زكريا الرازي أنه عندما طلب إليه أن يختار محلا مناسبًا لبناء بيمارستان في بغداد أمر أن يعلقوا قطعا من اللحم الغريض في أماكن مختلفة من المدينة ثم اختار المحل الذي كان تعفن اللحم فيه متأخراً عنه في سائر الأماكن لبناء المستشفى المطلوب.

وكان من شروط انتخاب المحل المناسب لبناء البيمارستان أن يكون فيه ماء جار

وكان لكل بيمارستان شرابخاناه أي صيدلية (والكلمة محرفة عن شرابخانة الفارسية ومعناه خزانة الشراب) ولكل شرابخاناه (مهتار) أي رئيس (وهذه الكلمة أيضًا محرفة عن مهتر الفارسية بمعنى الرئيس أو الكبير) وتحت يده غلمان عنده برسم الخدمة يطلق على كل واحد منهم (شراب دار) [٢].

ومما يسترعي النظر كثرة الأسامي والمصطلحات الطبية الفارسية التي كانت شائعة في اللغة العربية ويدل ذلك على نفوذ الأطباء الايرانيين وأثر مدرسة جنديسابور منذ عهد الساسانيين، حتى إن العرب استعملوا نفس هذه المصطلحات واللغة الفارسية عينًا

١– طبقات الأطباء الجزء الأول .

* هكذا في الأصل والسياق يقتضي كلمة «المناخ» بدلاً من «المناح» «المحرر»

٢– صبح الأعشى للقلقشندي الجزء الرابع صفحة ١٠ .

أو بتحريف بسيط فى كتاباتهم ومحاوراتهم؛ فكلمة (بيمارستان) أو مخففتها (مارستان) شائعة ومتداولة فى اللغة العربية أكثر من كلمتى المستشفى أو دار الشفاء.

وكانت كلمة (بيمارستان تطلق فى بادئ الأمر على المستشفيات التى تعالج فيها الأمراض بصورة عامة؛ أما بعد ذلك لما أصابتها الكوارث وحل بها البوار وهجرها المرضى أقفرت إلا من المجانين حيث لامكان لهم سواها فصارت كلمة (مارستان) وهى تحريف بيمارستان لاتنصرف إلا إلى مستشفى المجاذيب .

وكان لكل بيمارستان ناظر يشرف على إدارته ، وكان النظر عليه يعد من الوظائف الديوانية العظيمة، وكان تحت إدارته عدد من أرباب الوظائف فى البيمارستان وهم:

١- رئيس الأطباء وهو الذى يحكم على طائفة الأطباء ويأذن لهم فى التطبيب ونحو ذلك.

٢- رئيس الكحالين وحكمه فى الكلام على طائفة الكحالة حكم رئيس الأطباء فى طائفة الأطباء: رئيس الجرائحية [١].

وكان لكل طبيب حسب درجته ومقامه مرتب خاص وله زيادة على المرتب جامكية وصلات وعلوفة لدابته من الخلفاء والملوك والأمراء.

يقول القفطى وابن أبى أصيبعة أن معدل المرتبات الشهرية للأطباء كان كالآتى:

١- أطباء الخاص (أى المنقطعون للخليفة أو السلطان) وكان عددهم اثنين لكل منهما فى الشهر خمسون ديناراً (وكل دينار حوالى خمسة عشر فرنكا فرنسياً ذهباً[٢] أى ستين قرشاً مصرياً تقريباً) .

٢- أطباء الدرجة الثانية وهم ثلاثة أو أربعة ، وكان بعضهم يقيم بالقصر ولكل منهم عشرة دنانير؛ وكان بعضهم طبيباً بالبيمارستان أيضاً فكان له رزقان أى ثلاثون ديناراً فى كل شهر مثل رضى الدين الرحبى طبيب صلاح الدين الأيوبى، فقد أطلق له صلاح الدين ثلاثين ديناراً فى الشهر ويكون ملازماً للقلعة والبيمارستان؛ وكان للبعض الآخر مثل جبرائيل الكحال ألف درهم كل شهر (والدرهم نصف فرنك فرنسى ذهب أو قرشان مصريان) .

١- صبح الأعشى للقلقشندى الجزء الثانى صفحة ١٦٨ والجزء ١١ الصفحة ١١٧ وصفحة ٢٦٨ .

٢- الخطط التوفيقية لعلى مبارك باشا الجزء الرابع صفحة ٤٦ .

يقول المقريزى: إن أول من بنى البيمارستان فى الإسلام ودار المرضى هو الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى سنة ٨٨هجرية وجعل فيها الأطباء وأجرى لهم الأرزاق وأمر بحبس المجنومين لئلا يخرجوا وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق.

وكان فى البيمارستان طريقان للعلاج. علاج خارجى أى أن المريض يتناول الدواء من البيمارستان ثم ينصرف ليتعاطاه فى منزله، وعلاج داخلى يقيم المريض فى أثنائه فى البيمارستان فى القسم والقاعة الخاصة بمرضه حتى يشفى.

ففى الطريقة الأولى كان الطبيب يجلس فى محل خاص ويعاين المرضى ويعطيهم العلاج اللازم؛ وبما أن هذه المعاينة وهذا العلاج كان يتمان فى البيمارستان غالبًا فقد كان يجتمع التلاميذ بحضرة أستاذهم يعاينون معه المريض ويعرفون كيفية استدلاله على المرضى من أعراضه وعلائمه، وجملة ما يصفه له، والعلاج الذى يعالجه به، ومقدار الأدوية والعقاقير التى يوصى بها وطريقة استعمالها .

يروى ابن النديم وكان معاصرًا لمحمد بن زكريا الرازى نقلا عن شيخ من أهل الرى (أن الرازى وكان شيخًا كبيرًا كان يجلس فى مجلسه ودونه تلاميذه ودونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ أخر وكان يجيئ الرجل فيصف ما يجد لأول من تلقاه فإن كان عندهم علم وإلا تعداهم إلى غيرهم، فإن أصابوا وإلا تكلم الرازى فى ذلك[١]).

إن هذه الطريقة تشبه إلى حد كبير الطريقة المتبعة الآن أو التى يجب أن تتبع فى حالة مداولة الأطباء عن فحص المريض consulation فإن الأطباء بعد أن يعاينوا المريض يجتمعون للمداولة فى غرفة خاصة ويبدأ الحاضرون بإبداء آرائهم فى حالة المريض متدرجين من أصغرهم سنًا إلى أكبرهم ؛ وذلك لأن الأطباء الكبار والمشهورين إن أبدوا رأيهم فى ذلك ربما خجل الطبيب الأصغر منهم بحكم سنه وإجلاله للطبيب الأكبر منه سنًا ومقامًا من إبداء رأى يخالف ذلك، وقد يكون أحيانًا أحسن من رأى غيره وأقرب إلى الصواب والخلاصة أن دراسة الأطباء لحالة المريض بجانب سريره ومطالعاتهم فى البيمارستانات وأخذهم دروسًا عملية كانت تعد فى تلك العهود- وكانت العلوم فيها على الأغلب الأعم نظرية ذات أهمية خاصة بالنظر لأهمية الطب والتبعة التى تقع على عاتق المشتغل به والمهارة التى تستلزمها هذه المهنة.

١- الفهرست طبعة مصر صفحة ٤١٥ وطبعة ليبزك صفحة ٢٩٩ .

وإن شطراً هاماً من كتاب الحاوى للرازى مخصص لهذه الدروس الطبية (الأكلينيكية) . ومنه فصل بعنوان (أمثلة من قصص المرضى) ، يذكر فيه الحالات النادرة التى تردد فيها فى تشخيص المرضى ، وفى كل حالة يذكر اسم المريض وأغراض المرض وطريقة العلاج ونتيجتها.

ويذكر الأستاذ بروان فى كتابه الطب الإسلامى (Arabian Medicine) حالة من هذه الحالات مع ذكر النص العربى وهو كما يأتى:

(كان يأتى عبدالله بنسوادة حميات مخلطة تنوب مرة فى ستة أيام ، ومرة غب، ومرة ربع ، ومرة كل يوم ويتقدمها نافض يسير ، وكان يبول مرات كثيرة ، وحكمت أنه لايخلو أن تكون هذه الحميات تريد أن تنقلب ربعا ، وإما أن يكون به خراج فى كلاه ، فلم يلبث إلا مديدة أعلمته أنه لايعاود هذه الحميات، وكان كذلك، وإنما صدنى فى أول الأمر عن أن أبت القول بأن به خراجاً فى كلاه أنه يجم قبل ذلك حمى غب وحميات أخر فكان للظن بأن تلك الحمى المخلطة من احتراقات تريد أن تصير ربعاً موضعاً أقوى. ولم يشك إلى أن قطنه شبه ثقل معلق منه إذا قام وأغفلت أنا أيضاً أن أساله عنه، وقد كان كثرة البول يقوى ظنى بالخراج فى الكلى، إلا أنى كنت لا أعلم أن أباه أيضاً ضعيف المثانة يعتريه هذا الداء، وهو أيضا قد كان يعتريه فى صحته فينبغى ألا يفعل بعد ذلك غاية التقصى إن شاء الله، ولما بال المدة أكببت عليه بما يدر البول، حتى صفا البول من المدة ثم سقيته بعد ذلك الطين المختوم والكندر ودم الأخوين وتخلص من علته وبرأ برءاً تاماً سريعاً فى نحو من شهرين. وكان الخراج صغيراً ودلنى على ذلك أنه لم يشك إلى ابتداء ثقلا فى قطنه، ولكن بعد أن بال مدة قلت له هل كنت تجد ذلك؟ قال نعم، فلو كان كثيراً لقد كان يشكو ذلك، وأن المدة تنبث سريعاً تدل على صغر الخراج. فأما غيرى من الأطباء فإنهم كانوا بعد أن بال مدة أيضاً لايعلمون حالته البتة».

(٨)

قد استنبط الأستاذ براون من بيان هذه الحالة أن ابتلاء المريض بالحميات المخلطة مع وجود قشعريرة تتقدم الحمى كان سببًا فى أن ظن الرازى فى بادئ الأمر مرضه حمى (الملاريا) ولاسيما أنه كان فى بلاد تكثر فيها هذه الحمى. والحال أن هذه الأعراض لم تكن أعراض حمى الملاريا بل كانت نتيجة لمرض عفن، وإن الرازى غير رأيه عندما شاهد المدة فى بول المريض وتحقق لديه أن المرض خراج فى الكلى.

والغرض من استشهادنا بهذه الحادثة هو أن نبرهن على أن الأطباء كانوا يدرسون حالة المريض وأعراض المرض درسًا وافيا دقيقًا وبهذه الطريقة كان طلاب الطب يتلقون من أساتذتهم درسًا عمليا تجريبيًا عن الطب وعلاج الأمراض المختلفة .

وفى نفس الوقت كان الطبيب يداوى المرضى ويزداد تجربة ومهارة فى عمله، وكان الجميع يخدمون صناعة الطب ويساهمون فى ترقيتها بالدرس والبحث والتجارب المنظمة وفى القسم الداخلي من البيمارستانات عندما كان يصعب تشخيص مرض مريض فى قاعة من القاعات وتدعو الحال استدعاء طبيب أو أكثر من القاعات الأخرى غير القاعة التى فيها المريض للاستشارة كان يدعى عدد منهم فيتداولون فى الأمر(١).

وكان الأطباء يشتغلون فى البيمارستان بالنوبة، فجبرئيل بن بختيشوع كانت نوبته فى الأسبوع يومين وليلتين(٢).

وكانت دروس الطب تعطى على الأغلب فى البيمارستانات فيجلس الطبيب لفحص المرضى ومعاينتهم فيصف العلاج اللازم للمريض ويكتب له ويشرح كيفية استدلاله على المرض للحاضرين، وكان بين يديه المشارفون والعوامل لخدمة المرضى وكان كل ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير ونوع الطعام يوضع بجانب فراشه للرجوع إليه فى تنفيذه وإجرائه .

وكان الطبيب يدور على المرضى بالبيمارستان ويتفقد أحوالهم ويصف لكل منهم علاجه وبعد فراغه من ذلك يأتى فيجلس فى مجلس خاص فى البيمارستان ويحضر كتب الاشتغال

١- طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة الجزء الثانى صفحة ١٧٩ .

٢- تاريخ الحكماء للقفطى صفحة ١٤٨ .

وكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه ثم يجرى مباحث طبية ويقرئ التلاميذ ولايزال معهم فى اشتغال ومباحثة ونظر فى الكتب مدة ثم يركب إلى داره[١].

وكانت هذه الطريقة فى التدريس هى للمبتدئين من التلاميذ؛ أما المشتغلون بالطب والمطلعون على كتبه ومن لهم بعض الاختبارات فى البيمارستانات فكانوا يحضرون مجلس درس الأستاذ ساعات كل يوم فيجرى البحث عن المواضيع الطبية المشكلة أو النادرة ويتداولون فيها علميا وفنيا بكل حرية.

وقد كان النظر فى بول المريض، وكانوا يسمونه (القارورة) والاستنتاج من نظره ويسمونه (التفسرة) ، من الأمور الشائعة ولم يكن الأطباء يغفلون عنه .

وكات للأطباء العرب فى هذا الباب مهارة كبيرة تدل على قوة استدلالهم وحسن استنتاجهم.

يقول ابن أبى أصيبعة : (أراد الرشيد أن يمتحن بختيشوع الطبيب أمام جماعة من الأطباء فقال الرشيد لبعض الخدم: «أحضره ماء دابة حتى تجربه» فمضى الخادم وأحضر قارورة الماء، فلما رآه قال «يا أمير المؤمنين ليس هذا بول إنسان» قال له أبو قريش وقد كان حاضراً : «كذبت هذا ماء حظية الخليفة» فقال له بختيشوع (لك أقول أيها الشيخ الكريم، لم يبل هذا إنسان البتة ، وإن كان الأمر على ما قلت فلعلها صارت بهيمة) فقال له الخليفة «من أين علمت أنه ليس ببول إنسان؟ قال بختيشوع «لأنه ليس له قوام بول الناس ولا لونه ولاريحه» ثم التفت الخليفة إلى بختيشوع فقال له (ما ترى أن نطعم صاحب هذا الماء) فقال (شعيرا جيداً» فضحك الرشيد ضحكا شديداً وأمر فخلع عليه خلعة حسنة جليلة، ووهب له مالا وافراً وقال «بختيشوع يكون رئيس الأطباء كلهم وله يسمعون ويطيعون»[١].

والخلاصة أن البيمارستانات لم تكن أعمالها قاصرة على معالجة المرضى فحسب ، بل إنها كانت أيضًا تقوم مقام مدارس الطب يتخرج منها الأطباء والكحالون والجراحون والمجبرون.

وكان لكل بيمارستان خزانة كتب أو مكتبة تحوى كثيراً من الكتب كانت فى متناول كل طالب علم؛ وكان طالب الطب فى أول عهد الدولة الإسلامية بعد أن يتلقى أصول الطب على

١- طبقات الأطباء الجزء الثانى صفحة ١٥٥ .

٢- طبقات الأطباء الجزء الأول صفحة ١٢٦ .

بعض مشاهير الأطباء ويقوم باختبارات شخصية وتجارب عملية كافية ويجد في نفسه القدرة على مزاولة الطب يباشرها بعد أن يجيزه بعض الأطباء النابهين في زمانه أو رئيس أطباء البيمارستان الذي كان يشتغل فيه.

ولم تكن هناك في أول الأمر قيود خاصة أو امتحانات منظمة لإعطاء أجازة التطبب، وإن أول من نظم هذه الصناعة وأخضعها لنظام خاص في تأدية امتحان للحصول على أجازة التطبب هو المقتدر الخليفة العباسي، وكان ذلك في سنة ٣١٩هـ . والسبب الذي دعا الخليفة إلى هذا العمل حسب رواية ابن أبي أصيبعة هو أنه اتصل به أن غلطا جرى على رجل من العامة من بعض المتطببين فمات الرجل، فأمر الخليفة المحتسب بمنع سائر المتطببين من التصرف إلا من امتحنه سنان بن ثابت بن قرة رئيس الأطباء وطبيب الخليفة الخاص، وكتب له رقعة بخطه بما يطلق له التصرف فيه من الصناعة. وبلغ عدد من ترددوا إلى سنان وامتحنهم وأطلق لكل واحد منهم ما يصلح له التصرف فيه من الصناعةثمانمائة رجل ونيفاً وستين رجلا في جانبي بغداد سوى من استغنى عن محنته باشتهاره بالتقدم في صناعته وسوى من كان في خدمة السلطان(١).

وكان سنان بن ثابت يمتحنهم فيسأل كلا منهم بعض الأسئلة الطبية ويعرف معارفه ودرجة تمكنه في الصناعة ، فيحدد له حدوداً يجيزه أن يتصرف ضمنه لايتجاوزها .

وكانت الامتحانات الطبية في ذلك العهد بسيطة جداً فيها كثير من التسامح والتساهل. يروى أنه دخل يوما في مجلس سنان بن قرة كهل موقر، مهيب الطلعة عليه سيماء أهل العلم ولباسهم فأخذ مكانه في جانب من المجلس ، وكان مظهره يدل على أنه من أجلة العلماء. وبعد أن انتهى سنان من درسه ومعالجة المرضى خاطب تلاميذه قائلا : «علينا الآن بالاستفادة من فضائل مولانا الشيخ، ولنستمع لجوامع كلمه لتبقى لدينا تذكاراً لتشريفه هذا المجلس ». ثم سأل الشيخ عن اسم أستاذه فأخرج الشيخ من جيبه بدرة من المال وضعها أمام سنان وقال لست يا سيدي من العلماء؛ لكني رب أسرة أريد أن أعيلها عن طريق التطبب . فاشترط عليه سنان أن يكون محتاطاً في عمله فلايفصد أحداً ولايعطي من المسهلات إلا الأنواع السانجة البسيطة منها. فقال الشيخ كانت هذه ولاتزال طريقتي في التطبب فإني لم أعط أحداً غير السكنجبين والجلاب، فأعطاه سنان أجازة التطبب في هذه الدائرة المحدودة التي ذكرناها.

١- طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة الجزء الأول صفحة ٢٢٢ .

وجاءه غداة ذلك اليوم ضمن جماعة حضرت مجلسه لأخذ إجازات التطبب- شاب سأله سنان عن اسم أستاذه كما هى العادة فذكر اسم أبيه، وكان الشيخ الذى ذكرنا قصته، فسأله سنان عما إذا كان يسير على نهج والده . ولما رد عليه بالإيجاب أجازه أيضاً للتطبب فى نفس تلك الحدود.

كان هذا فى بادئ الأمر لكن الحال لم تستمر على هذا المنوال وصار النظام بعد ذلك أن الطالب بعد أن يتم دروسه يتقدم إلى رئيس الأطباء برسالة فى الفن الذى يريد الحصول على الأجازة فى الاشتغال به له أو لأحد مشاهير الأطباء قد أجاد دراستها فيختبره فيها الطبيب ويسأله أسئلة عدة عن هذا الموضوع ، فإن استطاع اجتياز الامتحان أعطاه إجازة تطلق له التصرف فى حدودها.

ويذكر المرحوم الدكتور أحمد عيسى بك مؤلف كتاب (تاريخ البيمارستانات فى الإسلام) فى كتابه القيم المذكور الذى نشرته جمعية التمدن الإسلامى بدمشق سنة ١٣٥٧هجرية أنه عثر فى خزانة كتب المرحوم العلامة أحمد زكى باشا على صورتين لإجازتين طبيتين من القرن الحادى عشر من الهجرة منحت أحداهما لفصاد والأخرى لجراح[١] وها نحن ألاء نذكر هنا ملخصهما:

(وهذه صورة ما كتبه الشيخ الأجل عمدة الأطباء ، ومنهاج الألباء ، الشيخ شهاب الدين ابن الصانع الحنفى رئيس الأطباء بالديار المصرية إجازة للشاب المحصل محمد عزام أحد تلامذة الشيخ الأجل والكهف الأحول الشيخ زين الدين عبد المعطى رئيس الجراحين على حفظه لرسالة الفصد كما سنبينه :

الحمدلله ومنه أستمد العناية:

الحمدلله الذى وفق من عباده من اختاره لخدمة الفقراء والصالحين وهدى من شاء للطريق القويم والنهج المستقيم على ممر الأوقات والأزمان إلى يوم الدين. وبعد فقد حضر عندى الشاب المحصل شمس الدين محمد بن عزام ... بن ... بن ... على المؤذن الجردانى (أو الجرداءانى نسبة إلى جرداءان وهى محلة بمدينة أصبهان بإيران)[٢] المتشرف بخدمة الجراح، والمتقيد بخدمة الشيخ الصالح بقية السلف الصالحين العارفين وشيخ طائفة الجراحين

١- كتاب تاريخ البيمارستانات فى الإسلام صفحة ٤٣٠ .

٢- لب اللباب للسيوطى .

بالبيمارستان المنصورى وهو الشيخ عبد المعطى المشهور بابن رسلان نفعنا الله ببركاته ، ورحم أسلافه العارفين الصالحين ، وعرض على جميع الرسالة اللطيفة المشتملة على معرفة الفصد وأوقاته وكيفيته وشروطه وما يترتب عليه من المنافع المنسوبة . والرسالة المذكورة للشيخ الإمام العلامة التمام شمس الدين محمد بن ساعد الأنصارى[١] شكر الله سعيه ورحمه وأسكنه بحابيح جناته بمنه وكرمه، عرضاً جيداً دل على حسن حفظه للرسالة المذكورة ، وقد أجزته أن يرويها عنى بحق روايتها وغيرها من الكتب الطبية (وباقى الإجازة مفقود) .

والإجازة الأخرى أيضاً من القرن الحادى عشر الهجرى وهى صادرة من رئيس الجراحين بدار الشفا المنصورى (قلاوون) .

وخلاصتها بعد حمدالله والثناء عليه والصلاة على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم والسلام على آله وصحبه أنه وقف على الرسالة الموسومة (ببرء الآلام فى صناعة الفصد والحجام) نظم لو ذعى زمانه وألمعى عصره وأوانه ، الشمس شمس الدين القيم شهرة، الجراح صنعة ومهرة، التى أصلها للشيخ الفاضل حاوى الفضائل الشيخ شمس الدين الشربينى الجراح الموسومة (بغاية المقاصد فيما يجب على المفصود والفاصد) وقد قرأها عليه قراءة اتقان وإمعان فلم ير بدأ من أن يبسطها ليتيسر حفظ تلك الفوائد. وقد أجاد ناظمها فى تحقيقها ، وبذل الجهد فى تحريرها وتنقيقها ... إلى أن يقول استحق راقم وشيها وناسج بردها أن يتوج بتاج الإجازة فاستخرت الله تعالى وأجزت له أن يتعاطى من صناعة الجراح، ما أتقن معرفته ليحصل له النجاح والفلاح، وهو أن يعالج الجراحات التى تبدأ بالبط، ويقلع من السنان ما ظهر له من غير شرط، وأن يفصد من الأوردة ويبتر الشرائين وإن يقلع من الإسنان الفاسد المسوسين (كذا) إلى أن يقول ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وإياه لصالح الأعمال فى كل حال ومآل .

وإمضاء هذه الإجازة كما يأتى:

(رقمه بقلمه أحقر عباد الفتاح، الفقير للحق على بن محمد بن محمد بن على الجراح، خادم الفقراء الضعفاء بدار الشفا بمصر المحروسة ومصليًا ومسلمًا ومحمداً ومحوقلاً ومستغفراً بتاريخ صفر الخير من شهور سنة إحدى عشرة وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، والحمدلله وحده) .

١- واسم الرسالة نهاية القصد فى صناعة الفصد منها نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية .

وقد كان الصيادلة أيضاً خاضعين للرقابة فى أعمالهم يؤدون امتحاناً خاصاً قبل اشتغالهم بهذه الصناعة حتى يوثق من علمهم بالأدوية والعقاقير ، ويؤمن مغبة غلطهم فى إعطاء الأدوية والعقاقير...

يذكر ابن أصيبعة فى الجزء الأول من مؤلفه طبقات الأطباء ضمن شرح حال زكريا الطيفورى الطبيب- وكان من مشاهير الأطباء فى زمن الخليفة المعتصم- قصة خلاصتها (أنه بينما كان الأفشين فى معسكره وهو فى محاربة بابك سنة ٢٢١هـ وكان معه زكريا الطيفورى الطبيب أمره بإحضار جميع من فى عسكره من التجار وحوانيتهم وصناعة كل رجل منهم، فرفع ذلك إليه؛ فلما بلغت القراءة بالقارئ إلى موضع الصيادلة قال الأفشين لزكريا الطيفورى (يا زكريا ضبط هؤلاء الصيادلة عندى أولى مما تقدم فيه، فامتحنهم حتى نعرف منهم الناصح من غيره) فقال زكريا (إن يوسف لقوة الكيمائى) قال يوماً للمأمون (إنما آفة الكيمياء الصيادلة؛ فإن الصيدلانى لايطلب الإنسان منه شيئاً من الأشياء كان عنده أم لم يكن إلا أخبره بأنه عنده ، ودفع إليه شيئاً من الأشياء التى عنده، وقال هذا الذى طلبت . فإن رأى أمير المؤمنين أن يضع اسماً لايعرف ويوجه جماعة إلى الصيادلة فى طلبه لتبتاعه فليفعل) فقال المأمون (قد وضعت الاسم وهو شقطيثا (وهى ضيعة تقرب من مدينة السلام) ووجه المأمون جماعة من الرسل يسألهم عن شقطيثا فكلهم ذكر أنه عنده وأخذ الثمن من الرسل ودفع إليهم شيئاً من حانوته ، فصاروا إلى المأمون بأشياء مختلفة، فمنهم من أتى ببعض البذور، ومنهم من أتى بقطعة من حجر، ومنهم أتى بوبر. فاستحسن المأمون نصح يوسف لقوة واهتم بأمر الصيادلة ومراقبتهم.

وبعد ذكر هذه الحكاية أشار زكريا الطيفورى على الأفشين أن يمتحن الصيادلة، فأعجب الأفشين برأى زكريا ودعا بدفتر الأشروسنة فأخرج منها نحواً من عشرين إسما ووجه إلى الصيادلة من يطلب منهم أدوية مسماة بتلك الأسماء، فبعضهم أنكرها وبعضهم ادعى معرفتها وأخذ الدراهم من الرسل ودفع إليهم شيئاً من حانوته . فأمر الأفشين بإحضار جميع الصيادلة ، فلما حضروا كتب لمن أنكر معرفته تلك الأسماء منشورات أذن لهم فيها بالمقام فى عسكره ونفى الباقين عن العسكر ولم يأذن لواحد منهم فى المقام. ونادى المنادى بنفيهم وبإباحة دم من وجد منهم فى معسكره [١].

١- الأطباء لابن أبى أصيبعة الجزء الأول صفحة ١٥٧ .

وكان من جملة وظائف المحتسب- وكانت يده مطلقة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر- مراقبة الأطباء والكحالين والجراحين والمجبرين.

جاء فى كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة[١] وينبغى للمحتسب أن يأخذ عليهم عهد أبقراط ويحلفهم أن لايعطوا أحد دواء مرًا، ولايركبوا له سما، ولاينكروا للنساء الدواء الذى يسقط الأجنة، ولا للرجال الدواء الذى يقطع النسل، ولايفشوا الأسرار، ولايهتكوا الأستار ، إلى غير ذلك من الأمور التى يجب على الأطباء مراعاتها فى عملهم.

كما كان للمحتسب أن يمتحن الأطباء بما ذكره حنين فى كتابه المعروف (بمحنة الطبيب) وأما الكحالون فقد كانوا يمتحنون بكتاب العشر المقالات فى العين[٢] لحنين أيضًا، وكان على المجبرين أن يؤدوا امتحانًا فى المقالة السادسة من كناش بولس الأجانيطى فى الجبر الذى قام بنقله إلى العربية حنين بن أسحق .

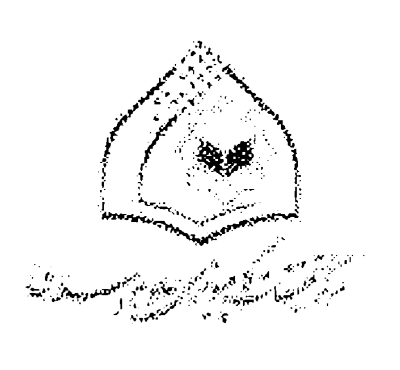
وأما الجراحون فكان عليهم أن يكونوا ملمين بكتاب جالينوس الخاص بالجراحات والمراهم وأن يعرفوا التشريح وما يتصل به .

وكان للمحتسب أيضًا مراقبة الصيادلة بمساعدة الأطباء والمتخصصين فى معرفة الأدوية والعقاقير وإرشادهم .

إن وصف شتى البيمارستانات التى كانت منتشرة فى مختلف البلاد الإسلامية وتبيان تاريخ بنائها وأسماء بُنَاتها وطريقة إدارة أوقافها وذكر أسماء كبار أطبائها والطلبة الذين كانوا يلتقون العلم فيها يحتاج لبحث خاص ، وقد وَفى الموضوع حقه المرحوم الدكتور أحمد بك عيسى فى مؤلفه القيم (تاريخ البيمارستانات فى الإسلام) وفيه يذكر رحمه الله أسماء ثمانين من هذه البيمارستانات التى كانت تدار فى مصر وإيران والعراق والجزيرة وسوريا وجزيرة العرب وبلاد الروم أى آسيا الصغرى واسطنبول وبلاد المغرب والأندلس بتفصيل واف فليرجع إليه من أراد التفصيل فهو خير مرجع فى هذا الباب.

١- [طبقات] نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لعبد الرحمن الشعرانى (مخطوط) .

٢- طبع هذا الكتاب لحساب الحكومة المصرية مع تعليق للدكتور ماير هوف المستشرق الرمدى المعروف.

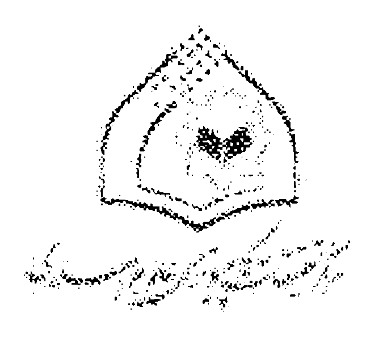


الكتاب الثانى

تاريخ البيمارستانات فى الإسلام

تأليف

الدكتور أحمد عيسى بك



الباب الأول

فى

نشأة البيمارستانات ونظامها وأطبائها وأرزاقها

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى أنبيائه أجمعين

* * *

هذه كلمة في تاريخ المستشفيات وهي التي كان يعبر عنها بكلمة بيمارستان في العهد الإسلامي إلى العصر الحاضر . أي إلى إنشاء مستشفى أبي زعبل بضاحية القاهرة . وهو أول مستشفى أنشئ على النظام الحديث في مصر سنة ١٨٣٥م.

وهذه البيمارستانات هي إحدى المنشآت والعمائر كالمساجد والتكايا والقباب والمدارس الخ.. التي كان يشيدها الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء وأهل الخير على العموم ، صدقة وحسبةً وخدمة للإنسانية وتخليداً لذكراهم . ولم تكن مهمة هذه البيمارستانات قاصرة على مداواة المرضى، بل كانت في نفس الوقت معاهد علمية ومدارس لتعليم الطب، يتخرج منها المتطبيون والجراحون «الجرائحيون» والكحالون كما يتخرجون اليوم من مدارس الطب.

تفسير كلمة بيمارستان

البيمارسَتْان (بفتح الراء وسكون السين) كلمة فارسية مركبة من كلمتين (بيمار) بمعنى مريض أو عليل أو مصاب و (ستان) بمعنى مكان أو دار فهي إذاً دار المرضى ، ثم اختصرت في الاستعمال فصارت مارستان كما ذكرها الجوهري في صحاحه .

وكانت البيمارستان من أول عهدها إلى زمن طويل مستشفيات عامة، تعالج فيها جميع الأمراض والعلل من باطنية وجراحية ورمدية وعقلية، إلى أن أصابتها الكوارث ودار بها الزمن وحل بها البوار وهجرها المرضى ، فأقفرت إلا من المجانين حيث لامكان لهم سواها . فصارت كلمة مارستان إذا سمعت لاتنصرف إلا إلى مأوى المجانين.

وقبل الشروع في ذكر البيمارستان رأينا أن نذكر كلمة في حال الطب عند العرب في مبدإ نشأتهم في الإسلام؛ ثم نلحقها بالبيمارستان وترتيبها ونظام المداواة فيها واختيار الأطباء ومعاملتهم وأرزاقهم والرقابة عليهم ، ثم نذكر الحبوس والهبات والأعيان الموقوفة على البيمارستانات ووظائف الأطباء ورتبهم في الدولة.

حالة الطب عند العرب فى مبدأ نشأتهم

قال القاضى صاعد بن أحمد الأندلسى فى كتابه طبقات الأمم: «إن العرب فى صدر الإسلام لم تُعن بشئ من العلوم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها حاشا علوم الطب فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طرًا إليها».

وقد كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أُناس يعلّمون الطبّ ويعملون به : ذكر ابن الجوزى رحمه الله تعالى فى (صَفْوَة الصفوة) عن هشام بن عُروةَ قال: كان عروة يقول لعائشة رضى الله عنها : يا أماه لا أعجب من فقهك ، أقول زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنة أبى بكر، ولا أعْجَب من علمك بالشِعْر وأيام الناس، أقول : ابنة أبى بكر وكان من أعلم الناس . ولكنى أعْجب من علمك بالطب. فضربت على منكبه وقالت: أى عروة ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى آخر عمره فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات فكنت أعالجها من ثَمَّ ». وفى تاريخ الإسلام للذهبى[١] قال عروة بن الزبير: ما رأيت أعلم بالطب من عائشة ، فقلت يا خالة : من أين تعلمت الطب؟ قالت : كنت أسمع الناس ينعت بعضُهم لبعض فأحفظه . وروى أبو داود رحمه الله عن سعيد قال: «مرضت مرضًا فأتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودنى فوضع يده بين ثديىّ حتى وجدت بردها على فؤادى فقال : إنك مفؤود، ائتِ الحارثِ بن كَلَدة أخا ثقيف فإنه يتطبّب»[٢].

وفى الموطأ عن زيد بن أسلم : أن رجلاً فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابه جرح فاحتقن الجرح بالدم وأن الرجل دعا رجلين من بنى أنمار فنظر إليهما فزعما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أيكما أطب» فقالا : «أو فى الطب خير يا رسول الله ؟ فزعم زيد أن رسول الله قال: «أنزل الدواء الذى أنزل الأدواء» .

وروى أبو داوود رحمه الله تعالى عن جابر رضى الله عنه قال: «بعث النبى صلى الله عليه وسلم إلى أبى طبيبًا فقطع منه .رقا . »

وكان فى العرب كثير من المتطببين يخلط بعضهم بين الرُّقى والتطبيب ، وبعضهم الآخر كان قد تعلم الطب فى فارس أو فى إحدى البلاد المجاورة لجزيرة العرب ، ثم رجع إلى موطنه يعانى صفة التطبيب ، ومن هؤلاء المتطببين:

١- ص٣٨ مخطوط بدار الكتب الملكية.

٢- الجزء الثانى من تخريج الدلالات السمعية.

الحارث بن كَلَدة الثقفى تعلم الطب فى (جند يسابور) بلدة من مقاطعة خوزستان أحد أقاليم فارس.

وابنه النُّضْر بن الحارث بن كلدة تعلم الطب حيث تعلم أبوه. وعبد الملك بن أبْجَر الكنانى كان فى أول أمره مقيماً بالإسكندرية لأنه كان المتولى التدريس بها بعد الإسكندرانيين.

وابن أبى رِمْثَة التميمى فقد كان جراحاً مشهوراً.

زينب طبيبة بنى أوْد فقد كانت خبيرة بالعلاج ومداواة العين والجراحات ، مشهورة بين العرب بذلك .

الشُّمْردل[١] بن قباب الكَعْبى النَّجْرانى كان فى وفد نجران بنى الحارث بن كعب فنزل الشمردل بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم فقال:

«يا رسول الله بأبى أنت وأمى إنى كنت كاهن قومى فى الجاهلية وإنى كنت أتطبب ، فما يحل لى فإنى تأتينى الشابة» قال: «فصد العِرْق ومجسة الطعنة إن اضطررت ولاتجعل من دوائك شر ما وعليك بالسَّنا ولاتداو أحداً حتى تعرف داءه» فقَبَّل ركبتيه وقال : «والذى بعثك بالحق أنت أعلم بالطب منى» .

وضماد بن ثعلبة الأزْدى من أزْد شَنُوءَة ، قال ابن عباس : «قدم[٢] رجل من أزد شنوءة يقال له ضماد مكة مُعتمراً فسمع كفار قريش يقولون : محمد مجنون . فقال : لو أتيتُ هذا الرجل فداويته فجاءه فقال : «يا محمد إنى أُداوى من الريح فإن شئت داويتك لعل الله ينفعك » فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمد الله وتكلم بكلمات فأعجب ذلك ضماداً فقال: «أعدْها علىّ» فأعادها عليه فقال: «لم أسمع مثل هذا الكلام قط، لقد سمعت كلام الكهنة والسَّحَرة والشعراء فما سمعت مثل هذا قط ، لقد بلغ قاموس البحر يعنى قعره . فأسلم وشهد شهادة الحق وبايعه على نفسه وعلى قومه».

أم عطية الأنصارية[٣] نسيبةُ التى أمرها النبى صلى الله عليه وسلم أن تغسل بنته زينب، لها أحاديث. روى عنها محمد بن سيرين وأخته حَفْصه وأم شُراحيل وعلى بن الأحمر

١- الإصابة لابن حجر العسقلانى.

٢- الطبقات الكبرى لابن سعد جزء ٤ قسم ١ ص١٧٧ .

٣- تاريخ الإسلام الذهبى ص٤٢٨ مخطوط.

وعبد الملك بن عمير وهشام بن حسان عن حفصة بنت سيرين عن أم عطية قال : غزوت مع النبى صلى الله عليه وسلم سبع غزوات فكنت أصنع لهم طعامهم وأخلفهم فى رحالهم وأداوى الجرحى وأقوم علّى المرضى.

أول من اتخذ البيمارستان فى الإسلام

روى مسلم رحمه الله تعالى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: أصيب سعد بن معاذ يوم الخندق رماه رجل من قريش ابن العرقة، رمى فى الأكحل[١]، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خيمة فى المسجد يعوده من قريب[٢]. وقال ابن اسحاق فى السيرة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جعل سعد بن مُعاذ فى خيمة لامرأة مِنْ أسلَم يقال لها رُفَيْدَة فى مسجده، كانت تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة مِنْ كانت به ضيعة من المسلمين. وقد كان رسول الله قد قال لقوم حين أصابه السهم بالخندق : «اجعلوه فى خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب» [٣]. فيفهم من ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم أول من أمر بالمستشفى الحربى المتنقل. وقال تقى الدين المقريزى: أول من بنى البيمارستان فى الإسلام ودار المرضى، الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى فى سنة ٨٨هـ (٧٠٦م) وجعل فى البيمارستان الأطباء وأجرى لهم الأرزاق وأمر بحبس المُجَذّمين لئلا يخرجوا وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق. وقال محمد بن جرير الطبرى فى تاريخ الرُسل والملوك[٤] : «كان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام أفضل خلائفهم ، بنى المساجد مسجد دمشق ومسجد المدينة، ووضع المنار، وأعطى الناس، وأعطى المُجَذّمين وقال: «لاتسألوا الناس» وأعطى كل مُقْعَد خادماً وكل ضرير قائداً.

أنواع البيمارستانات

كان للبيمارستانات نوعان : ثابت ومحمول

فالثابت ما كان بناءً ثابتًا فى جهة من الجهات لاينتقل منها وهذا النوع من البيمارستانات كان كثير الوجود فى كثير من البلدان الإسلامية، لاسيما فى العواصم الكبرى كالقاهرة وبغداد

١- الأكحل هو Veine mediane basôligne .

٢- الجزء الثانى من تخريج الدلالات السمعية.

٣- سيرة ابن هشام ج١ ص٦٨٨ طبع جوتنجى.

٤- حوادث سنة ٩٦ ص١٢٧ .

ودمشق ... الخ. ولايزال أثر بعضها باقيًا على مرّ الدهور إلى الآن كالبيمارستان المنصورى (قلاوون الآن) بالقاهرة، والبيمارستان المؤيدى بالقرب من القلعة بالقاهرة أيضًا، والبيمارستان النورى الكبير بدمشق والبيمارستان القيمرى بها أيضًا ، وبيمارستان أرغون بحلب ... الخ ، مما سيأتى ذكره.

البيمارستان المحمول

هو الذى ينقل من مكان إلى مكان بحسب ظروف الأمراض والأوبئة وانتشارها وكذا الحروب، وهو المعبر عنه فى العصر الحاضر بكلمات Ambulance بالفرنسية و Feldlazareth بالألمانية و Ambulance بالإنجليزية و Ambulanza بالإيطالية.

كان هذا النوع من البيمارستان معروفًا لدى خلفاء الإسلام وملوكهم وسلاطينهم وأطبائهم بل الراجح أن يكونوا هم أول من أنشأه ، وهو عبارة عن مستشفى مجهز بجميع ما يلزم للمرضى والمداواة من أدوات وأدوية وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة وكل ما يعين على ترفيه الحال على المرضى والعجزة والمزمنين والمسجونين ينقل من بلد إلى أخرى من البلدان الخالية من بيمارستانات ثابتة أو التى يظهر فيها وباء أو مرض مُعْدٍ.

قال ثابت بن سنان بن ثابت بن قُرة [١]: «إن الوزير على بن عيسى بن الجراح[٢] فى أيام تقلده الدواوين من قبل المقتدر بالله وتدبير المملكة فى أيام وزارة حامد بن أبى العباس وقّع إلى والده سنان بن ثابت فى سنة كثرت فيها الأمراض جداً، وكان سنان يتقلد البيمارستانات ببغداد وغيرها توقيعًا نسخته : «فكرت مدّ الله فى عمرك فى أمر من فى الحبوس وأنهم لا يخلون مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض، وهم معوقون عن التصرف فى منافعهم ولقاء من يشاورونه من الأطباء فى أمراضهم، فينبغى أكرمك الله أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم فى كل يوم، ويحملون معهم الأدوية والأشربة وما يحتاجونه إليه من المزوّرات [٣]، وتتقدم إليهم بأن يدخلوا سائر الحبوس، ويعالجوا من فيها من المرضى، ويريحوا عللهم فيما يصفونه لهم إن شاء الله تعالى». ففعل سنان ذلك.

١- ابن القفطى ص١٩٣ طبعة ليدن وابن أبى أصيبعة ج١ ص٢٢١ .

٢- ولد سنة ٢٤٥ هـ وتوفى سنة ٣٣٥هـ .

٣- المزورات هى التى تسمى الآن (شربة الخضر) أى خضر بدون لحم ولا دسم.

ثم وقع إليه توقيعاً آخر:

«فكرت فيمن بالسواد من أهله وأنه لايخلو من أن يكون فيه مرضى لايشرف متطبب عليهم لخلو السواد من الأطباء ، فتقدم مدّ الله فى عمرك بإيفاد متطببين وخزانة من الأدوية والأشربة يطوفون السواد، ويقيمون فى كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم، ويعالجون من فيه ثم ينتقلون إلى غيره». ففعل سنان ذلك وانتهى أصحابه إلى سورا[1] بلدة من بلاد العراق والغالب على أهلها اليهود. فكتب سنان إلى الوزير على بن عيسى يعرفه ورود كتب أصحابه عليه من السواد [2]: بأن أكثر من بسورا وشهر ملك يهود، وأنهم استأذنوا فى المقام عليهم وعلاجهم أو الانصراف عنهم إلى غيرهم ، وأنه لايعلم بما يجيبهم به إذا كان لايعرف رأيه فى أهل الذمة، وأعلمه أن الرسم فى بيمارستان الحضرة قد جرى للملى والذّميّ.

فوقع الوزير توقيعاً نسخته :

«فهمت ما كتبت به أكرمك الله، وليس بيننا خلاف فى أن معالجة أهل الذمة والبهائم صواب، ولكن الذى يجب تقديمه والعمل به معالجة الناس قبل البهائم ، والمسلمين قبل أهل الذمة، فإذا فضل عن المسلمين ما لايحتاجون إليه صرف فى الطبقة التى بعدهم ، فاعمل أكرمك الله على ذلك واكتب إلى أصحابك به، ووصّ بالتنقل فى القرى، والمواضع التى فيها الأوباء الكثيرة والأمراض الفاشية ، وإن لم يجدوا بذرقة[3] توقفوا عن المسير حتى يصح لهم الطريق ويصلح السبيل فإنهم إن فعلوا هذا وفقوا إن شاء الله تعالى».

ونذكر مثلاً من البيمارستان المتنقلة التى كان يستعملها السلاطين فى تنقلاتهم وحروبهم ما ذكره ابن خلكان[4] وابن القفطى[5] قالا: «إن أبا الحكم المغربي عبدالله[6] بن المظفر بن عبد

١- قال ياقوت : سورا على وزن بشرى موضع بالعراق من أرض بابل وهى مدينة السريانيين.

٢- السواد رستاق العراق وضياعها التى افتتحها المسلمون على عهد عمر بن الخطاب سمى بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار.

٣- بذرقة أى خفر وأمن.

٤- وفيات الأعيان ج١ ص٣٤٤ طبعة بولاق وص٣٨٤ طبعة باريس.

٥- تاريخ الحكماء ص٤٠٥ طبعة ليدن.

٦- وفى شذرات الذهب لابن العماد عبيدالله بن المظفر الباهلى الأندلسي توفى سنة ٥٤٩هـ.

الله المرسى نزيل دمشق ، كان طبيب البيمارستان الذى كان يحمله أربعون حملاً ، المستصحب فى معسكر السلطان محمود السلجوقي حيث خَيَّم . وكان القاضى السديد أبو الوفا يحيى بن سعيد بن يحيى بن المظفر المعروف بابن المرخّم الذى صار قاضى القضاة ببغداد فى أيام الإمام المقتفى فاصداً وطبيبًا فى هذا المارستان المحمول المذكور. وكان أبو الحكم يشاركه .

وكانت العادة فى دولة المماليك(١) أن يخرج السلطان ومعه الأمراء والأعيان إلى القصور التى بنوها خارج المدن ويقيم فيها أيامًا فيمر بالناس فى إقامتهم هناك، أوقات لايمكن وصف ما فيها من المسرات ، ولاحصر ما ينفقه فيها من المآكل والهبات والأموال. ويصحب السلطان فى السفر غالب ما تدعو الحاجة إليه حتى يكاد يكون معه مارستان لكثرة من معه من الأطباء وأرباب الكحل والجراح والأشربة والعقاقير وما يجرى مجرى ذلك. وكل من عاده طبيب ووصف له ما يناسبه يصرف له من الشرابخاناه أو الدواء خاناه المحمولين فى الصحبة . وكان من عادة السلطان الملك الظاهر برقوق(٢) التردد على بلدة سرياقوس بركب عظيم وحفل كبير، والبيات فيها مستمراً إلى سنة ٧٩٩هـ مصحوبًا بكل ما سبق.

المكفوفون والنساء يتعاطون التطبيب

النساء اللاتى عانين صناعة الطب

كان تعلم الطب ومعاناة التطبيب مكفولين لأىّ كان ذكرًا أو أنثى مبصراً أو مكفوفًا .

كانت زينب(٣) طبيبة بنى أوْد من الماهرات فى صناعة الكحالة عالمة بصناعة الطب والمداواة ولها خبرة جيدة بمداواة آلام العين والجراحات مشهورة بين العرب بذلك . ذكر أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب الأغانى : «قال رجل من الأعراب: أتيت امرأة من بنى أود لتكحلنى من رمد كان أصابنى، فكحلتنى ثم قالت : اضطجع قليلاً حتى يدور الدواء فى عينيك فاضطجعت ثم تمثلت قول الشاعر:

أمخترمى رَيْبُ المنون ولم أزر ... طبيب بنى أود على النأى زينبا

١- خطط المقريزى ج٢ ص٢٠٠ طبعة بولاق .

٢- الخطط التوفيقية لعلى مبارك باشا ج١٢ ص٢٤ .

٣- طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ج١ ص١٢٣ .

فضحكتْ ثم قالت: أتدرى فيمن قيل هذا الشعر؟ قلت: لا. قالت: فيَّ والله قيل، وأنا زينب التى عناها، وأنا طبيبة بنى أود أفتدرى من الشاعر ؟ قلت : لا . قالت : عمك أبوسماك الأزدى».

ورُفَيْدَة الأسلمية اتخذت خيمة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم وكانت تداوى الجرحى. وكانت أخت الحفيد [١]، أبى بكر ابن زُهر وبنتها عالمتين بصناعة الطب والمداواة ولهما خبرة جيدة فيما يتعلق بمداواة النساء وكانتا تدخلان لنساء المنصور أبى يوسف يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن ولايقبل للمنصور وأهله ولداً إلا أُخت الحفيد أو بنتها لما توفيت أُمها.

وكانت أم الحسن[٢] بنت القاضى أحمد بن عبدالله بن عبد المنعم أبى جعفر الطنجالى من أهل لُوشة (بلدة بالأندلس) تجوِّد القرآن وتشارك فى فنون من الطلب وأفراد مسائل الطب وتنظم الشعر.

الأطباء المكفوفون

كان أبو الحسن على بن إبراهيم بن بَكُس طبيبًا مكفوفًا ، وكان فاضلاً عاملاً بصناعة الطب متقنًا لها غاية الإتقان . وكان يدرس الطب فى البيمارستان العَضُدى ويفيد الطالبين. وكان إذا أراد معرفة سحنات الوجوه وحال بول المرضى حوّل على من يكون معه من تلاميذه فى وصفه ذلك[٣].

وأبو الحسن بن مكين البغدادى الضرير[٤] قاد الحكمة بزمامها وكان مكفوفًا يقوده تلميذه إلى ديار المرضى وكان أبو الخير يهجنه فى كتاب (امتحان الأطباء) وقال: من قاد أعمى شهراً (يعنى ذلك الطبيب) تطبب وعالج وأهلك الناس.

وأبو عبدالله محمد بن سليمان بن الحنّاط[٥] المكفوف الشاعر الضرير القرطبى كان أوسع الناس علمًا بعلوم الجاهلية والإسلام ، بصيرًا بالآثار العلوية حاذقًا بالطب والفلسفة ماهرًا فى

١- طبقات الأطباء ج٣ ، ص٧٠ .

٢- الإحاطة فى أخبار غرناطة لسان الدين بن الخطيب ج١ ص٢٦٥ .

٣- تاريخ الحكماء لابن القفطى ص٢٣٦ طبعة ليدن.

٤- تارخ حكماء الإسلام لظهير الدين البيهقى مخطوط .

٥- الذخيرة لابن بسام ج١ ص٢٣٠ مخطوط.

العربية والآداب الإسلامية . وُلدَ أعشى ضعيف البصر متوقد الخاطر فقرأ كثيراً فى حال عشاه ثم طفئ نورُ عينه بالكلية فازداد براعة، ونظر فى الطب بعد ذلك فأنجح علاجًا . وكان ابنه يصف له مياه الناس المستفتين عنده فيهتدى منها إلى ما يهتدى إليه البصير ولايخطئ الصواب فى فتواه لسرعة الاستنباط، وتطبب عنده الأعيان والملوك فاعترفوا له بمنافع جسيمة.

التقسيم الفنى لنظام البيمارستان

لم تكن البيمارستانات تسير اتفاقًا بغير نظام ولاترتيب، بل كانت على نظام تام وترتيب محمود تسير أعمالها على وتيرة منتظمة .

كانت البيمارستانات منقسمة إلى قسمين منفصلين بعضهما عن بعض، قسم للذكور وقسم للإناث[١] وكل قسم مجهز بما يحتاجه من آلة وعدّة وخدم وفراشين من الرجال والنساء وقوّام ومشرفين .

وفى كل قسم من هذين القسمين عدة قاعات لمختلف الأمراض: فقاعة للأمراض الباطنة ، وقاعة للجراحة ، وقاعة للكحالة ، وقاعة للتجبير [٢]. وكانت قاعة الأمراض الباطنة منقسمة إلى أقسام أخرى : قسم للمحمومين[٣] وهم المصابون بالحمى، وقسم للممرورين وهو لمن بهم المرض المسمى (مانيا) وهو الجنون السبعى[٤]، وقسم للمبرودين أى المتخومين، ولمن به إسهال قاعة .. الخ.

وكانت قاعات البيمارستان فسيحة حسنة البناء وكان الماء فيها جاريًا[٥].

وللبيمارستان صيدلية تسمى شرابخاناه ولها رئيس يسمى شيخ صيدلى البيمارستان[٦].

١- طبقات الأطباء لابن أبى اصيبعة ج١ ص٣١٠ .

٢- ابن أبى أصيبعة ج٢ ، ص٢٤٢ .

٣- ابن أبى أصيبعة ج٢ ، ص٢٤٣ وج١ ص٢٥٤ .

٤- ابن أبى أصيبعة ج٢ ، ص٢٦٠ .

٥- ابن أبى أصيبعة ج٢ ، ص٢٦٠ .

٦- ابن أبى أصيبعة ج٢ ، ص٣٠٩ .

وللبيمارستان رئيس يسمى ساعور[1] البيمارستان. ولكل قسم من أقسامه رئيس . فكان فيه رئيس للأمراض الباطنة ، ورئيس للجرائحية والمجبرين ، ورئيس للكحالين.

وللبيمارستان الفراشون من الرجال والنساء والمشارفون والقوام للخدمة أيضاً[2] ولهم المعاليم الوافية والجامكية الوافرة.

خزانة الشراب

هى الصيدلية فى البيمارستان . قال أبو العباس القلقشندى [3]: هذه الخزانة هى المعبر عنها فى زماننا (أى زمن القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١هـ- ١٤١٨م) بالشرابخاناه وهى الحواصل المعبر عنها بالبيوت، ذلك أنهم يضيفون كل واحد منها إلى لفظ خاناه كالشراب خاناه والطشت خاناه والطبل خاناه ونحوها . وخاناه لفظ فارسى معناه البيت فتأويلها بيت الشراب الخ . إلا أنهم يؤخرون المضاف عن المضاف إليه على عادة الفرس فى ذلك. وكان فيها من أنواع الأشربة والمعاجين النفيسة والمربيات الفاخرة وأصناف الأدوية والعطريات الفائقة التى لاتوجد إلا فيها . وفيها من الآلات النفيسة والآنية الصينى من الزبادى والبرانى والأزيار ما لايقدر عليه غير الملوك. وقد كان لكل مارستان خزانة للشراب كاملة كما فى وقفية المارستان المنصورى (قلاوون) وغيره ولكل شراب خاناه «مهتار» يعرف بمهتار الشرابخاناه (ومهتر بالفارسية بمعنى رئيس) متسلم لحواصلها له مكانة عالية وتحت يده غلمان عنده برسم الخدمة يطلق على كل واحد منهم شراب دار[4].

وفى الشرابخاناه الخاصة بالسلطان وظيفة الشادّ بها تكون لأمير من أكابر أمراء المئين الخاصكية المؤتمنين ، ولها مهتار يعرف بمهتار الشرابخاناه متسلم لحواصلها[5].

١- الساعور مقدم النصارى فى معرفة علم الطب وهو بالسريانية ساعورا ومعناه متفقد المرضى.

٢- ابن أبى أصيبعة ج٢، ص١٥٥ .

٣- صبح الأعشى ج٣ ص٤٧٦ .

٤- صبح الأعشى ج٤ ص١٠ .

٥- صبح الأعشى ج٤ ص١٩١ .

ووظيفة الشادّ موضوعها التحدث فى أمر الشرابخاناه السلطانية وما عمل إليها من السكرّ والمشروب والفواكه وغير ذلك وتارة يكون مقدماً[١] وتارة يكون طبلخاناه[٢] .

نظر البيمارستان ورتب أطبائه

كان للبيمارستان ناظر ينظر أو يشرف على إدارته . وكان النظر عليه معدوداً من الوظائف الديوانية العظيمة . قال أبو العباس أحمد القلقشندى[٣]:

«من الوظائف الديوانية نظر البيمارستان وقد صار النظر عليه معدوقًا بالنائب (نائب السلطان) يفوّض التحدث فيه إلى من يختاره من أرباب الأقلام ». وقال عند الكلام عن نائب السلطنة: «ومعه (أى نائب السلطان) يكون نظر البيمارستان الكبير النورى الذى بدمشق كما يكون نظر البيمارستان المنصورى (قلاوون) بالقاهرة مع أتابك[٤] العساكر» وقال عن الوظائف الكبيرة بالقاهرة : «إن منها صحابة ديوان البيمارستان وموضوعها التحدث فى كل ما يتحدث به ناظر البميارستان »[٥]. وقال عن وظيفة نظر البيمارستان والمراد البيمارستان النورى :

١- المقدم منصب من الدرجة الأولى من مناصب الدولة فى حكم المماليك ويقال لأربابها مقدمو الألوف ، ولكل واحد منهم التقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء . وهذه الطبقة هى أعلى مراتب الأمراء على تقارب درجاتهم ومنهم يكون أكابر أرباب الوظائف والنواب وكانت عدتهم أربعة وعشرين مقدمًا بالديار المصرية، ثم نقصت عدة المقدمين عما كانت عليه بعد ذلك وصارت دائرة بين الثمانية عشر والعشرين مقدمًا منهم نائب الاسكندرية ونائبا الوجهين القبى والبحرى.

٢- الطبلخاناه منصب من الطبقة الثانية من مناصب الدولة فى حكم المماليك ويكون الواحد منهم أربعون فارسًا إلى ثمانين فارسًا . وهذه الطبقة لاضابط لعدة أمرائها بل تتفاوت بالزيادة والنقص ومن أمراء الطبلخاناه تكون الرتبة الثانية من أرباب الوظائف والكشاف بالأعمال وأكابر الولاة (صبح الأعشى ج٤ ص١٥) .

٣- صبح الأعشى ج٤ ص١٨٤ .

٤- أصله أطابك ومعناه الأمير ويعبر عنه أيضًا بالنائب الكافل وكافل المماليك الإسلامية وهو يحكم فى كل ما يحكم فيه السلطان ويعلّم فى التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك مما يعلم عليه السلطان . وهذه رتبة لايخفى ما فيها من التمييز . وجميع نواب الممالك تكاتبه فيما تكاتب فيه السلطان ويستخدم الجند ويعيّن أرباب الوظائف الجليلة كالوزارة وكتابة السرّ فهو سلطان مختصر بل هو السلطان الثانى (صبح الأعشى ج٤ ص١٤) .

٥- صبح الأعشى ج٤ ص٣٤ .

«هي من أجَلّ الوظائف وأعلاها وعادة النظر فيه من أصحاب السيوف لأكبر الأمراء بالديار المصرية[١] . وذكر ابن إياس[٢] : «إن نظر البيمارستان كان من أهم وظائف الدولة يتولاه الأتابكى ويذهب إليه فى حفلة حافلة» وقال فى حوادث سنة ٩٠١هـ ومستهلها يوم الأحد: «فى هذا اليوم خلع على الأتابكى تَمْراز وقرره فى نظر البيمارستان المنصورى فتوجه هناك فى موكب حافل» وذلك كان فى سلطنة الملك الأشرف أبى النصر قايتباى المحمودى فى عصر الخليفة المتوكل على الله العباسى. وقال خليل بن أيبك[٣] الظاهرى «إن للبيمارستان شاداً وظيفته من وظائف الدولة تقضى لمن يستقر فيها إمرة عشرين حاجباً ». وقال أبوالعباس القلقشندى[٤] : «من الوظائف بدمشق وظائف أرباب الصناعات منها رياسة الطب ورياسة الكحالة ورياسة الجرائحية وكلها على نحو ما هو موجود فى الديار المصرية وولاية كل منها بتوقيع كريم من النائب»[٥].

وألقاب أرباب الوظائف من أهل الصناعات هى :

١- رئيس الأطباء وهو الذى يحكم على طائفة الأطباء ويأذن لهم فى التطبيب ونحو ذلك .

٢- رئيس الكحالين وحكمه فى الكلام على طائفة الكحالة حكم رئيس الأطباء فى طائفة الأطباء.

٣- رئيس الجرائحية وحكمه فى الكلام على طائفة الجرائحية والمجبرين كالرئيس المتقدم[٦].

وكانت أعظم الوظائف الصناعية فى الدولة الفاطمية بمصر وظائف الأطباء فكانت ألقاب أرباب الصناعات الرئيسية كرياسة الطب من الدرجة الأولى درجة المجلس أو إمرة المجلس وموضوعها التحدث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم ولايكون إلا واحداً وفى المرتبة الأولى مرتبة المجلس العالى.

١- صبح الأعشى ج٤ ص٣٨ .

٢- بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس المتوفى ٩٣٠هـ - ١٥٢٤م ج٢ ص١٩٢ .

٣- زبدة كشف المالك ص١١٠ .

٤- صبح الأعشى ج٤ ص٣٤ .

٥- صبح الأعشى ج٤ ص١٩٤ .

٦- صبح الأعشى ج٥ ص٤٦٧ .

وكان من الوظائف الصناعية العظيمة وظيفة الطبيب الخاص وهو الطبيب الخاص بالخليفة يجلس على باب دار الخلافة كل يوم ويجلس على الدكك التى بالقاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر، دونه أربعة أطباء أو ثلاثة فيخرج الأستاذون (الخدم والطواشية) فيستدعون منهم من يجدونه للدخول على المرضى بالقصر لجهات الأقارب والخواص ، فيكتب لهم رقاعًا على خزانة الشراب فيأخذون ما فيها وتبقى القراع عند مباشريها شاهداً لهم ولكل منهم الجارى والراتب على قدره (١).

التوقيع بنظر البيمارستان

التواقيع بنظر البيمارستان هى المراسيم بتعيينهم فى وظائفهم . وسنأتى هنا ببعض صور من تلك التواقيع . وهم أى النظار من الدرجة الأولى : درجة المجلس.

نسخة توقيع لمن كان فى المرتبة الأولى مرتبة المجلس العالى

المجلس العالى القضائى العالى الفاضلى الكاملى الأوحدى فلان ... جمال الإسلام والمسلمين سيد الرؤساء فى العالمين أوحد الفضلاء والمقربين خاصة الملوك والسلاطين (٢).

وهذه صورة أخرى لما يكتب به من المراسيم لناظر البيمارستان لصاحب سيف كتب: توقيع شريف أن يفوض إلى المقرّ الكريم أو الجناب الكريم أو العالى (على قدر رتبته) الأميرى الكبيرى الفلانى فلان الناصرى (مثلا) أعزّ الله أنصاره أو نُصْرته أو ضاعف الله نعمته (بحسب ما يليق به) نظر البيمارستان المعمور المنصورى على أجمل العوائد وأكمل القواعد بما لذلك من المعلوم الشاهد به الديوان المعمور على ما شرح فيه (٣).

وهذه نسخة توقيع بنظر البيمارستان العتيق (الناصرى) الذى رتبه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى بعض قاعات قصر الفاطميين وهى:

رسم بالأمر الشريف لا زالت أيامه تفيد علاء، وتستخدم أكفاء؛ وتُضْفى ملابس النعماء، على كل علىّ فتكسوه بهجة وبهاء أن يستقر فلان فى نظر البيمارستان الصلاحى بالقاهرة

١- صبح الأعشى ج٣ ص٤٩٦ .

٢- صبح الأعشى ج٦ ص١٦٨ .

٣- صبح الأعشى ١١ ص١١٧ .

المحروسة بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت لكفاءته التى اشتهر ذكرها، وأمانته التى صدّق خَبَرَها خُبْرُها ، ونزاهته التى أضْحى بها على النفس فغدا بكل ثناء مليًا ، ورياسته أحلت قدره أسمى رتبة ، فلا غرو أن يكون عليًا ، فليباشر البيمارستان المذكور مباشرة يظهر بها انتفاعه، وتتميز بها أوضاعه، ويضحى عامر الأرجاء والنواحى، ويقول لسان حاله عند حسن نظره وجميل تصرفه: الآن كما بدا صلاحى، وليجعل همته مصروفة إلى ضبط مقبوضه ومصروفه ، ويظهر نهضته المعروفة بتثمير ريعه، حتى يتضاعف مداد معروفه ، ويلاحظ أحوال من فيه، ملاحظة تذهب عنهم الباس، ويراعى مصالح حاله فى تنميته وتزكيته حتى لايزال منه شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، وليتناول المعلوم الشاهد به الديوان المعمور من استقبال تاريخه بعد الخط الشريف أعلاه [1].

أرزاق الأطباء :

فى البيمارستان وفى الخدمة الخاصة

كان للأطباء على وجه العموم من لدن الخلفاء والملوك والأمراء، الإحسان الكبير والأفضال الغزيرة ، والجامكية الوافرة والصلات المتواترة ، وكانت تطلق للأطباء مع الجامكية الجراية وعلوفة للدابة التى يركبونها.

أما المرتبات الشهرية فكانت كما يأتى:

أطباء الخاص (أى المنقطعون للخليفة أو السلطان) وكانا اثنين لكل منهما فى الشهر خمسون دينارًا[2] ولمن دونهما من الأطباء وهم نحو ثلاثة أو أربعة ، المقيمين بالقصر لكل واحد منهم عشرة دنانير[3] ولكل طبيب بالمارستان ما يقوم بكفايته [4].

فكان للأطباء بالمارستان على العموم جامكية خمسة عشر دينارًا وكان لبعضهم رزقان أى ثلاثون دينارًا فى كل شهر لعملين مختلفين كرضىْ الدين الرحبى، فقد أطلق له صلاح الدين

١- صبح الأعشى ج١١ ، ص٢٦٨ .

٢- الدينار خمسة عشر فرنكًا ذهبًا «الخطط التوفيقية لعلى مبارك باشا ٤ ص٤٦».

٣- صبح الأعشى ج٣ ص٥٢٥ .

٤- طبقات الأطباء ١٦٠ ص٢٤٤ .

يوسف بن أيوب فى كل شهر ثلاثين ديناراً[١] ويكون ملازما للقلعة والبيمارستان، وبعد وفاة صلاح الدين أطلق له الملك المعظم عيسى بن الملك العادل خمسة عشر ديناراً ويكون متردداً إلى البيمارستان.

وكان لبعضهم كجبرائيل الكحال ألف درهم فى كل شهر [٢]. وكان لماسويه جامكية من الفضل فى كل شهر ستماية درهم وعلوفة دابته، ثم تزيد إلى ألفى درهم ومعونة فى السنة عشرة آلاف درهم وعلوفة ونزل. وممن كان يأخذ رزقين جبريل بن عبدالله بن بختيشوع، فكان يأخذ برسم الخاص ثلاثمائة درهم شجاعية[٣] وبرسم البيمارستان ثلاثمائة درهم شجاعية سوى الجراية . وكان لعز الدين بن السويدى جامكية فى أربع جهات[٤] فى البيمارستان النورى وفى بيمارستان باب البريد فى دمشق والتردد على قلعة دمشق وتدريسه فى مدرسة الدخْوارية .

وكان من أطباء الأمير سيف الدولة بن حمدان من يأخذ رزقين لتعاطيه علْمين ، ومن يأخذ ثلاثة أرزاق لتعاطيه ثلاثة علوم، وكان فى جملتهم عيسى النفيس الطبيب فكان يأخذ ثلاثة أرزاق : رزقًا للنقل من السريانى إلى العربى، ورزقين آخرين بسبب علْمين آخرين[٥].

ولم يكن حسن موقع الأطباء لدى الخلفاء والملوك وإطلاق الجامكية الوافرة لهم بمانع من أن يشتغل بعضهم فى البيمارستان احتسابا ، فقد كان كمال الدين الحمصى يتردد على البيمارستان الكبير النورى يعالج المرضى فيه احتسابا[٦].

وقد بلغ بعض الأطباء من حسن الحال ورغد العيش إلى درجة عظيمة، فقد بلغ بختيشوع فى زمان الخليفة المتوكل فى الجلالة والرفق وعظم المنزلة وحسن الحال وكثرة المال وكمال المروءة ومباراة الخليفة فى اللباس والزى والطيب والفرش والضيافات والتفسح فى النفقات مبلغا يفوق حد الوصف[٧].

١- تاريخ الحكماء لابن القفطى ص١٤٨ .

٢- ابن القفطى ص١٥٢ – الدرهم يساوى قرشين مصريين أو نصف الفرنك الإفرنسى الذهب تقريبًا .

٣- لعلها منسوبة إلى الأمير علم الدين سنجر الشجاعى لأنه صار وزيراً كبيراً.

٤- ابن أبى أصيبعة ج٢ ص٢١٦ .

٥- ابن القفطى ص٢٥٠ .

٦- ابن أبى أصيبعة ج٢ ص٢٠١ .

٧- ابن القفطى ص١٠٢ .

كراء عملية جراحية

من المستملح أن يعرف أهل زماننا الحاضر مقدار ما كان يتناوله الطبيب فى ذلك العصر السالف أجرًا لعملية أُجريت لمريض . قال سليمان بن حسان: حدثنى أحمد بن يونس الحرّانى قال: حضرت بين يدى أحمد بن وصيف الصابئ وقد حضر سبعة أنفس لقدح أعينهم (وهى العملية التى تعمل للماء أى الكَتَرَ كتًا) وفى جملتهم رجل من أهل خراسان ، أقعده بين يديه ونظر إلي عينيه فرأى ماء تهيأ للقدح ، فساومه على ذلك واتفق معه على ثمانين درهمًا (أى ما قيمته جنيهان الآن) وحلف أنه لايملك غيرهما فلما حلف الرجل اطمأن وضمه إلى نفسه فوقعت يده على عضده فوجد فيها نطاقًا صغيرًا فيه دنانير . فقال له ابن وصيف : ما هذا ؟ فتلوّى فقال له ابن وصيف : قد حلفت بالله وأنت حانث وترجوه رجوع بصرك إليك ! والله لا أعالجك إذ خادعت ربك. فطلب إليه ، فأبى أن يقدحه وصرف إليه الثمانين درهمًا ولم يقدح عينه [١].

نظام المعالجة فى البيمارستان :

الدرس بجانب سرير المريض

كان فى البيمارستان طريقان للعلاج : علاج خارجى أى أن المريض يتناول الدواء من البيمارستان ثم ينصرف ليتعاطاه فى منزله وعلاج داخلى يقيم المريض فى أثنائه فى البيمارستان فى القسم الخاص والقاعة الخاصة بمرضه حتى يشفى.

ففى الطريقة الأولى كان الطبيب يجلس على دكه ويكتب لمن يرد عليه من المرضى للعلاج أوراقًا يعتمدون عليها، ويأخذون بها من البيمارستان الأشربة والأدوية التى يصفها الطبيب[٢].

وأما العلاج الداخلى أى فى داخل البيمارستان ، فكان المرضى يوزعون على القاعات بحسب أمراضهم ، وكان لكل قسم من أقسام البيمارستان طبيب أو اثنان أو ثلاثة أطباء[٣]

١- ابن أبى أصيبعة ج٢ ص٢٣٠ .

٢- ابن أبى أصيبعة ج٢ ص٢٤٢ .

٣- ابن أبى أصيبعة ج٢ ص٢٤٢ .

بحسب اتساعه وكثرة المرضى ، وكان إذا دعا الحال يُدعى طبيب من قسم آخر غير القسم الذى فيه المريض للاستشارة[١].

وكان الأطباء يشتغلون فى البيمارستان بالنوبة فجبريل بن بختيشوع كانت نوبته فى الأسبوع يومين وليلتين[٢].

الدروس الطبية (الاكلينيكية)

قال موفق الدين أبو العباس بن أبى أصيبعة [٣]:

كنت بعد ما يفرغ الحكيم مهذب الدين والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان وأنا معهم أجلس مع الشيخ رضىّ الدين الرحبى فأعاين كيفية استدلاله على الأمراض ؛ وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم وأبحث معه فى كثير من الأمراض ومداواتها ثم قال : وكان معه (أى مع مهذب الدين) فى البيمارستان لمعالجة المرضى الحكيم عمران وهو من أعيان الأطباء وأكابرهم فى المداواة والتصرف فى أنواع العلاج فتضاعف الفوائد المقتبسة من اجتماعهما ومما كان يجرى بينهما من الكلام فى الأمراض ومداواتها وما كانا يصفان للمرضى.

وذكر موفق الدين أبو العباس ابن أبى أصيبعة[٤] نقلاً عن شيخه مهذب الدين عبد الرحيم ابن على: أنه كان فى البيمارستان الكبير النورى وهو يعالج المرضى المقيمين به فكان من جملتهم رجل به استسقاء زقى قد استحكم به وقصد إلى بزله، وكان فى ذلك الوقت فى البيمارستان ابن حمدان الجرائحى وله يد طولى فى العلاج فجزموا على بزل المستسقى، قال: فحضرنا وبزل الموضع على ما يجب . وذكر أن أبا المجد بن أبى الحكم[٥] كان يدور على المرضى بالبيمارستان الكبير النورى، ويتفقد أحوالهم، ويعتبر أمورهم ، وبين يديه المشارفون والقوّام لخدمة المرضى فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لايؤخر عنه

١- ابن أبى أصيبعة ج٢ ص١٧٩ .

٢- ابن القفطى ص١٤٨ .

٣- ابن أبى اصيبعة ج٢ ص٢٤٣ .

٤- ابن أبى أصيبعة ج١ ص١٧٩ .

٥- ابن أبى أصيبعة ج٢ ص١٥٥ .

ولايتواني في ذلك. قال : «وبعد فراغه من ذلك يأتى فيجلس فى الإيوان الكبير الذى للبيمارستان وجميعه مفروش، ويحضر كتب الاشتغال. وكان السلطان نور الدين محمود بن زنكى قد وقف على هذا البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية وكانت فى الخرستانين (الخزانتين) اللذين فى صدر الإيوان ، فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه ، ثم يجرى مباحث طبية ويقرئ التلاميذ ولايزال معهم فى اشتغال ومباحثة ونظر فى الكتب الطبية مقدار ثلاث ساعات، ثم يركب إلى داره».

وكان بعض متقدمى الأطباء قد جعل له مجلسًا عاما لتدريس صناعة الطب للمشتغلين عليه.

وقد وقف مهذب الدين عبد الرحيم بن على سنة ٦٢٢ ، الدار التى له بدمشق ، وجعلها مدرسة يدرس فيها صناعة الطب، ووقف لها ضياعا وعدة أماكن يشتغل منها ما ينصرف فى مصالحها ، وفى جامكية المدرسة وجامكية المشتغلين بها .

ولم يكن الأطباء يغفلون النظر فى أبوال المرضى، فقد كانوا يسمون ذلك القارورة، ويسمون الاستنتاج من نظر البول التفسرة ، فما كان يعالج مريض دون النظر إلى قارورته ، ولهم فى نظرها آراء وعلامات يتعرفون منها حالة البول من صحة وسقم . ونحن نقص الحكاية الآتية للدلالة على مهارة الأطباء وقوة استدلالهم وحسن استنتاجهم من النظر فى بول المريض:

أراد الرشيد أن يمتحن بختيشوع الطبيب، أمام جماعة من الأطباء فقال الرشيد لبعض الخدم : «أحضره ماء دابة حتى نجربه». فمضى الخادم وأحضر قارورة الماء، فلما رآه قال: «يا أمير المؤمنين ليس هذا بول إنسان». قال له أبو قريش وقد كان حاضراً : « كذبت هذا ماء حظية الخليفة». فقال له بختيشوع : «لك أقول أيها الشيخ الكريم، لم يبل هذا إنسان البتة، وإن كان الأمر على ما قلت فلعلها صارت بهيمة». فقال له الخليفة : «من أين علمت أنه ليس ببول إنسان »؟ قال بختيشوع: «لأنه ليس له قوام بول الناس، ولا لونه، ولاريحه» ، ثم التفت الخليفة إلي بختيشوع فقال له: «ما ترى أن نطعم صاحب هذا الماء» فقال: «شعيراً جيداً». فضحك الرشيد ضحكًا شديداً وأمر فخلع عليه خلعة حسنة جليلة ، ووهب له مالاً وافراً، وقال: «بختيشوع يكون رئيس الأطباء كلهم ، وله يسمعون ويطيعون»[1].

١- ابن أبى أصيبعة ج١ ص١٢٦ .

وكان للطبيب الحرية التامة فى العمل والتجريب واستنباط الأساليب المناسبة للعلاج. وكانت التجارب تدون فى كتب خاصة يقرؤها الجمهور من الأطباء ، فقد كان لأبى البيان المدور المتوفى سنة ٥٨٠هـ- ١١٨٤م بالقاهرة كتاب فى مجرياته فى الطب وكان للساهر يوسف القس كنّاش وهو ما استخرجه وجربه فى أيام حياته[١] ولأفرايم بن الزّفّان تعاليق ومجربات ، ولابن العين زربى مجربات فى الطب، ولابن أبى الفضائل الناقد مجربات فى الطب؛ ولمحمد بن زكريا الرازى كتاب عنوانه (قصص وحكايات المرضى) ومنه نسخة فى خزانة كتب بوبليان فى أكسفورد وطبع منه الدكتور العالم المستشرق مكس مايرهوف جزءاً.

وكان لبعض الأطباء أنواع من العلاج هى من مبتكرات قرائحهم كعلاج أوحد الزمان أبى البركات هبة الله بن على بن ملكا أحد الموسومين بالوهم[٢]، وفوق الهمة العظيمة والتدبير الحسن والعناية التامة براحة المرضى ، فقد كان لهم من حسن الخلق وطول الأناة والتسامح مع المرضى الشئ الكثير: كان أبو الحسن سعيد ابن هبة الله[٣] يتولى مداواة المرضى بالبيمارستان العضدى، فإنه كان يوماً بالبيمارستان وقد أتى إلى قاعة المرورين يتفقد أحوالهم ومعالجتهم ، وإذا بامرأة قد أتت إليه واستفتته فيما تعالج به ولداً لها فقال: «أن تلازميه بتناول الأشياء المبردة المرطبة» فهزأ به بعض من كان مقيماً فى تلك القاعة من المرورين وقال : «هذه صفة يصلح أن تقولها لأحد تلامذتك ممن يكون قد اشتغل بالطب وعرف أشياء من قوانينه، وأما هذه المرأة فأى شئ تدرى ما هو من الأشياء المبردة المرطبة ، وإنما سبيله أن تصف لها شيئًا معينًا تعتمد عليه». فلم يتحرج الطبيب من هذا القول. وقد أوصلهم سمو الخلق وبسطة العلم إلى أعلى الدرجات . فإن القاضى ابن المرخم يحيى بن سعد صار أقضى القضاة فى أيام المقتفى ببغداد، وقد كان طبيبًا فى المارستان المحمول وفصاداً فيه [٥]. والإمام العالم علامة زمانه أفضل الدين أبو عبدالله محمد بن نامادار الخونجى قد تميز فى العلوم الحكمية وأتقن العلوم الشرعية . وفى آخر أيامه تولى القضاء

١- ابن أبى أصيبعة ج١ ص٢٠٣ .

٢- ابن أبى أصيبعة ج١ ص١٢٧ و ١٢٩ .

٣- ابن أبى أصيبعة ج٢ ص٢٥٤ .

٤- ابن القفطى ص٤٠٥ .

٥- ابن أبى أصيبعة ج٢ ص١٢٠ .

بمصر وصار قاضى القضاة بها وبأعمالها توفى سنة ٦٤٦هـ وصار سعيد بن البطريق بطريركًا بالاسكندرية (١).

تدريس الطب بالبيمارستان :

وفى مدارس خاصة

ذكرنا أن طلبة الطب كانوا يتلقون علومهم على أساتذتهم فى البيمارستان إذ كانت تهيأ لهم الإيوانات الخاصة المعدة والمجهزة بالآلات والكتب أحسن تجهيز ، فيقعدون بين يدى معلمهم بعد أن يتفقدوا المرضى وينتهوا من علاجهم ، كما كان يفعل أبو المجد ابن أبى الحكم فى البيمارستان النورى الكبير. وإن بعضًا من مشايخ الطب وكبار رؤسائهم كان يجعل له مجلسًا عامًا لتدريس صناعة الطب للمشتغلين عليه فى منزله أو فى المدارس الخاصة.

وذكر ابن أبى أصيبعة(٢) أن الفيلسوف الإمام العالم أبا الفرج بن الطيب كان يقرئ صناعة الطب فى البيمارستان العضدى ويعالج المرضى فيه ، وأن إبراهيم بن بَكُّس(٣) كان يدرس صناعة الطب فى البيمارستان العضدى لما بناه عضد الدولة وكان له منه ما يقوم بكفايته، وأن زاهد العلماء(٤) ألف كتابه فى الفصول والمسائل والجوابات التى أجاب عنها فى مجلس العلم المقرر فى البيمارستان الفارقى.

وكان فى بيمارستان أحمد بن طولون خزانة كتب كانت فى أحد مجالس البيمارستان ، وكان فيها ما يزيد على مائة ألف مجلد فى سائر العلوم (٥). وفى سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) أوقف مهذب الدين عبد الرحيم بن على بن حامد المعروف بالدخوار شيخ الأطباء ورئيسهم داره بدمشق (المدرسة الدخوارية) شرقى سوق المناخليين عند الصاغة العتيقة قبلى الجامع الأموى، ووقف لها ضياعا وعدة أماكن يستغلّ منها ويتصرف فى مصالحها وفى جامكية المدرسين وجامكية المشتغلين بها. فكان إذا فرغ من البيمارستان وافتقد المرضى من أعيان الدولة

١- ابن أبى أصيبعة ج٢ ص٨٦ .

٢- طبقات الأطباء ج١ ص٢٣٩ .

٣- ابن أبى أصيبعة ج١ ص٢٤٤ .

٤- ابن أبى أصيبعة ج١ ص٢٥٣ .

٥- النجوم الزاهرة ص٤٧٢ .

وأكابرها وغيرهم ، يأتى إلى داره ثم يشرح فى القراءة والدرس والمطالعة ، ولابد له مع ذلك من نَسْخ ، فإذا فرغ منه أيضا أذن للجماعة فيدخلون عليه ويأتى قوم بعد قوم من الأطباء والمشتغلين . وكان يقرئ كل واحد منهم درسه ويبحث معه فيه، ويفهمه إياه بقدر طاقته . ويبحث فى ذلك مع المتميزين منهم إن كان الموضع يحتاج إلى فضل بحث أو فيه إشكال يحتاج إلى تحرير وكان إلى جانبه ما يحتاج إليه من الكتب الطبية ومن كتب اللغة : كتاب الصحاح للجوهرى والمجمل لابن فاس وكتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى فكان إذا جاءت فى الدرس كلمة لغة يحتاج إلى كشفها وتحقيقها نظرها فى تلك الكتب.

ثم مرض مهذب الدين عبد الرحيم بن على وتوفى فى يوم الاثنين الخامس عشر من شهر صفر سنة ٦٢٨هـ (٢٤ ديسمبر سنة ١٢٣٠م) ووصى[١] أن يكون المدرس فيها الحكيم شرف الدين على بن الرَّحْبى .

افتتاح المدرسة الدخوارية[٢]

لما كان فى يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٦٢٨هـ (١٨ فبراير سنة ١٢٣٠م) حضر الحكيم سعد الدين إبراهيم بن الحكيم موفق الدين عبد العزيز والقاضى شمس الدين الخواتيمى والقاضى جمال الدين الخَرَسْتانى والقاضى عز الدين السِنْجارى وجماعة من الفقهاء والحكماء ، وشرع الحكيم شرف الدين أبو الحسن على بن يوسف بن حيدرة الرُحْبى فى التدريس بها فى صناعة الطب، واستمر على ذلك وبقى سنين عدة ثم صار المدرس فيما بعد الحكيم بدر الدين المظفر بن قاضى بعلبك ، وذلك أنه لما ملك دمشق الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين مودود ابن الملك العادل ، كتب للحكيم بدر الدين ابن قاضى بعلبك ، منشوراً برياسته على سائر الحكماء فى صناعة الطب، وأن يكون مدرسا للطب فى مدرسة الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم بن على المعروف بالدخوار . وتولى ذلك فى يوم الأربعاء رابع صفر سنة ٦٧٧هـ ثم درس بعده عماد الدين الدُّنَيْسَرى ومحمد بن عبد الرحيم بن مسلمة كمال الدين الطبيب المتوفى سنة ٦٩٧هـ (١٢٩٧م) والجمال المحقق أحمد بن عبدالله بن الحسين الأشقر وقد ولى مشيخة الدخوارية وتوفى سنة ٦٩٤هـ (٢٩٤م) وأمين الدين سلميان بن داود الدمشقى توفى سنة ٧٣٢هـ ثم شهاب الدين الكحال توفى سنة ٧٣٢هـ.

١- ابن أبى أصيبعة ج٢ ص٢٤٤ .

٢- كتاب تنبيه الطالب وإرشاد الدارس عما كان فى دمشق من المدارس (مخطوط) .

إجازة الطب

كان الأطباء فى أول عهد الدول الإسلامية تكتفى لمعاناة التطبيب بقراءة الطب على أى طبيب من النابهين في عصره، حتى إذا آنس من نفسه القدرة على مزاولة الصنعة ، باشرها بدون قيد أو شرط .

وإن أول من نظم صناعة التطبيب وقيدها بنظام خاص حرصاً على مصلحة الجمهور، هو الخليفة العباسى المقتدر بالله جعفر بن المعتضد الذى تولى الخلافة سنة ٢٩٥هـ ، ففرض على من يريد معاناة التطبيب تأدية امتحان للحصول على إجازة تخوله هذا الحق بين الناس .

والسبب الذى دعا الخليفة المقتدر إلى هذا التقييد، هو ما نرويه عن لسان سنان بن ثابت رئيس الأطباء فى عصره وطبيب الخليفة ومن النابهين بين الأطباء:

قال سنان بن ثابت [١]: لما كان فى عام ٣١٩هـ (٩٣١م) ، اتصل بالمقتدر أن غلطاً جرى على رجل من العامة من بعض المتطببين فمات الرجل ، فأمر الخليفة أبا إبراهيم بن محمد بن أبى بطيحة المحتسب بمنع سائر المتطببين من التصرف، إلا من امتحنه سنان بن ثابت بن قُرة ، وكتب له رقعة بخطه بما يطلق له التصرف فيه من الصناعة . فصاروا إلى سنان وامتحنهم وأطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرف فيه. وبلغ عددهم فى جانبى بغداد ثمانمائة رجل ونيف وستين رجلاً ، سوي من استغنى عن محنته باشتهاره بالتقدم فى صناعته وسوي من كان في خدمة السلطان. وصار النظام بعد ذلك : متى أتم الطالب دروسه يتقدم إلى رئيس الأطباء فى القطر المصرى، ووظيفته هى أكبر وظائف الأطباء ، ويطلب إليه إجازته لمعاناة صنعة التطبيب. وكان الطالب يتقدم إليه برسالة فى الفن الذى يريد الحصول على الإجازة فى معاناته . وهذه الرسالة أشبه بما يسمى اليوم أطروحة (تيز Thése) وتكون هذه الرسالة له أو لأحد مشاهير الأطباء المتقدمين أو المعاصرين يكون قد أجاد دراستها فيمتحنه فيها ، ويسأله فى كل ما يتعلق بما فيها من الفن . فإذا أحسن الإجابة أجازه الممتحن بما يطلق له التصرف فيه من الصناعة.

ومن محاسن الصدف أنى عثرت فى دشت قديم فى خزانة كتب أستاذنا وصديقنا العلامة أحمد زكى باشا، على صورتين لاجازتين فى الطب من القرن السادس عشر الميلادى، منحت إحداهما لفصاد ومنحت الأخرى لجراح ، أنقلهما هنا لكى يعلم الباحث ما كان عليه الحال فى تلك العصور:

١- ابن أبى أصيبعة ج١ ص٢٢ .

الإجازة الأولى

وهى من القرن الحادى عشر الهجرى

وهذه صورة ما كتبه الشيخ الأجل عمدة الأطباء ومنهاج الألباء الشيخ شهاب الدين ابن الصايغ[١] الحنفى رئيس الأطباء بالديار المصرية إجازة للشاب المحصل محمد عزّام ، أحد تلامذة الشيخ الأجل والكهف الأحول الشيخ زين الدين عبد المعطى رئيس الجراحين على حفظه لرسالة الفصد كما سنبينه:

الحمدلله ومنه أستمد العناية

الحمدلله الذى وفق من عباده من اختاره لخدمة الفقراء والصالحين وهدى من شاء للطريق القويم والنهج المستقيم على ممر الأوقات والأزمان إلى يوم الدين.

وبعد فقد حضر عندى الشاب المحصل شمس الدين محمد بن عزام بن ... بن ... (هنا كلمات مفقودة) على المؤذن الجروانى [٢] المتشرف بخدمة الجراح والمتقيد بخدمة الشيخ الصالح بقية السلف الصالحين العارفين وشيخ طائفة الجراحين بالبيمارستان المنصورى هو الشيخ عبد المعطى المشهور بابن رسلان نفعنا الله ببركاته ورحم أسلافه العارفين الصالحين وعرض على جميع الرسالة اللطيفة المشتملة على معرفة الفصد وأوقاته وكيفيته وشروطه وما يترتب عليه من المنافع المنسوبة والرسالة المذكورة للشيخ الإمام العلامة التمام شمس الدين محمد بن ساعد الأنصارى[٣] شكر الله سعيه ورحمه وأسكنه بحابيح جناته بمنه وكرمه، عرضاً جيداً دل على حسن حفظه للرسالة المذكورة وقد أجزته أن يرويها عنى بحق روايتها وغيرها من الكتب الطبية (هذا آخر ما عثرت عليه وباقى الإجازة مفقود ضاع مع ما ضاع من نفائس الكتب العربية) .

١- هو أحمد بن سراج الدين الملقب شهاب الدين المعروف بابن الصايغ الحنفى المصرى الشيخ الطبيب الفاضل أخذ العلوم من الشيخ الإمام على بن غانم المقدسى والإمام الفهامة محمد بن محى الدين ناصر الدين التحريرى ووالده الرئيس الشهير سرى الدين وبه انتفع فى الطب وتولى قديماً تدريس الحنفية بالمدرسة البرقوقية ومات عن مشيخة الطب بدار الشفا المنصورى (قلاوون) ورياسة الأطباء قال الشيخ مدين وكانت ولادته كما أخبرنا به فى سنة ٩٤٥هـ (١٥٢٨م) وتوفى فى ربيع الأول سنة ١٠٣٦هـ (١٦٢٦م) ودفن خارج باب النصر ولم يعقب إلا بنتاً وتولت مكانه مشيخة الطب (عن خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ج١) .

٢- فى لب اللباب للسيوطى الجرواانى بالضم ومد الألف نسبة إلى جُروْ امان محلة بإصبهان.

٢- واسم الرسالة نهاية القصد فى صناعة الفصد، منها نسخة مخطوطة بدار الكتب الملكية بالقاهرة.

الإجازة الثانية

وهى كذلك من القرن الحادى عشر الهجرى، وصادرة من رئيس الجراحين بدار الشفا المنصورى (قلاوون)

«صورة ما كتبه الفقير على ذلك:

بسم الله الرحمن الرحيم

من ممد الكون استمد العون. الحمدلله الذى جعل لهذه الأمة بالطب المحمدى شفا ، وداوى علل أفهامهم بصحيح حديثه بعد ما كانوا فى سقم الباطل على شفا. أحمد حمداً يتقوى به الضعيف ، وأشكره شكراً وافياً يكون لنا نعم العلاج عند الحكيم اللطيف . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له الذى جعل الفصد والحجامة للأبدان من أنفع العلاج، إذ بهما ... (كلمة مفقودة) قف الحرارة الردية والمزاج. ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى قطع عرق الاشتراك ، وعلى آله وأصحابه السادة النسّاك ، الذين جمعوا بالعلم والفصاحة بين الحكمة وفصل الخطاب، وعالجوا زمان الجهل بحسن تدبيرهم فعوفى وحفظ لهم الصحة وطاب.

وبعد فقد وقفت على هذه الرسالة العظيمة، والمقالة الكريمة، الموسومة «ببرء الآلام فى صناعة الفصد والحجام» نظم لو ذعى زمانه، وألمعى عصره وأوانه : الشمس شمس الدين محمد القيم شهرة، الجراح صنعة ومهرة، التى أصلها للشيخ الفاضل حاوى الفضائل الشيخ شمس الدين محمد الشربينى الجراح. لازالت شآبيب الرحمة والرضوان على قبره غادية رائحة ، وشذا العبهرى * والريحان من مرقده فائحة ، المرسوم «بغاية المقاصد فيما يجب على المفصود والفاصد» ، إذ هى فى هذا الفن أسمى المقاصد. وقد قرأها عليه قراءة إتقان وإمعان، وحل لمشكلات الألفاظ والمعان، فلم ير بداً من أن يبسطها ليتيسر حفظ تلك الفوائد ، ولتسهل ضبط تلك القواعد فجاءت بجملة أبهى من نور الأنحار، وأضوأ من نور الأسمار، كالتبر المنسبك أو القطر المنسكب . قد أجاد ناظمها فى تحقيقها ، وبذل الجهد فى تحريرها وتنقيحها. وأتقن ألفاظ مبانيها . وغاص بحار معانيها، واستخرج الدر الثمين من أصلها ، وجمع بين فصلها ووصلها ؛ وصارت تجلى كالعروس لمعانيها. ولقد صارت فى هذه الصناعة

١- العبهر : النرجس والياسمين . «المحرر»

العمدة والكفاية واعترف لها الكامل أنها المنهاج والهداية . ونسيت بها التنكرة ، ولم يبق لهذا العلم تذكرة حميدة . وأحجم عندها كل مهذب بالمكنون، وصرح تاريخ الأطباء أنها نص ما فى القانون . فلما ظهرت نتيجة الانتخاب فى المسألة والجواب وتغذى ناظم سلكها بالخاص من اللباب، وصارت الخناصر عليها تعقد، وإن كان لساعد الأنصارى[1] رسالة، فشتان رسالته ورسالة محمد. وكانت عين المقصود، ورقمت فيما يجب على الفاصد والمفصود، استحق راقم وشيها وناسج بردها أن يتوّج بتاج الإجازة فاستخرت الله تعالى وأجزت له أن يتعاطى من صناعة الجراح، ما أتقن معرفته ليحصل له النجاح والفلاح . وهو أن يعالج الجراحات التى تبرأ بالبط ، ويقلع من السنان ما ظهر له من غير شرط. وأن يفصد من الأوردة ويبتر الشرايين وأن يقلع من الأسنان الفاسدة المسوسين (كذا) وأن يلم ما بَعُدَ من تفرق الاتصال، بقطان وغير ذلك وطهارة الأطفال. هذا مع مراجعته وخدمته لرؤساء هذا الفن المتبحرين ، والمهرة الأساتذة العارفين مع تقوى الله والنصح فى الصناعة ، ولايخشى مع ذلك من كساد البضاعة . ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وإياه لصالح الأعمال، فى كل حال ومآل. اللهم إنى أسألك من فضلك العظيم مغفرة لذنوبنا وعافية لأبداننا، لا إله غيرك ، ولا مرجو إلا خيرك رب العالمين».

رقمه بقلمه أحقر عباد الفتاح الفقير للحق على بن محمد بن محمد بن على الجراح خادم الفقراء الضعفاء بدار الشفا بمصر المحروسة ومصليا ومسلما ومحمدا ومحوقلا ومستغفراً بتاريخ صفر الخير من شهور سنة إحدى عشرة وألف (١٦٠٢م) من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والحمد الله وحده ».

١- هو شمس الدين أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصارى المعروف بابن الأكفانى المتوفى سنة ٧٤٩هـ والرسالة تسمى نهاية القصد فى صناعة الفصد.

امتحان الصيادلة

وكذلك حدث فى أيام الخليفة المعتصم بن الرشيد (من ٢١٨-٢٢٧هـ) أنه بينما كان الأفشين حيدر بن كاوس أحد قواد جند المعتصم فى معسكره وهو فى محاربة بابك سنة ٢٢١هـ وكان معه زكريا الطيفورى الطبيب، أمره باحضار جميع من فى عسكره من التجار وحوانيتهم وصناعة كل رجل منهم. فرفع ذلك إليه فلما بلغت القراءة بالقارى إلى موضع الصيادلة قال الأفشين لزكريا الطيفورى: «يا زكريا ضبط هؤلاء الصيادلة عندى أولى مما تقدم فيه فامتحنهم حتى نعرف منهم الناصح من غيره». فقال زكريا: «إن يوسف لقوة الكيميائى قال يومًا للمأمون : إنما آفة الكيميا الصيادلة فإن الصيدلانى لايطلب الإنسان منه شيئًا من الأشياء كان عنده أم لم يكن ، إلا أخبره بأنه عنده ودفع إليه شيئًا من الأشياء التى عنده، وقال: هذا الذى طلبت. فإن رأى أمير المؤمنين أن يضع رسمًا لايعرف ويوجه جماعة إلى الصيادلة فى طلبه لتبتاعه فليفعل ». فقال المأمون : «قد وضعت الاسم وهو شقطيثًا وهى ضيعة تقرب من مدينة السلام» ووجه المأمون جماعة من الرسل يسألهم عن شقطيثًا فكلهم ذكر أنه عنده وأخذ الثمن من الرسل ودفع إليهم شيئًا من حانوته ، فصاروا إلى المأمون بأشياء مختلفة فمنهم من أتى ببعض البذور ومنهم من أتى بقطعة من حجر ومنهم من أتى بوبر فاستحسن المأمون نصح يوسف لقوة.

فدعا الأفشين بدفتر الأسروشنية[١] فأخرج منها نحوًا من عشرين اسمًا ووجه إلى الصيادلة من يطلب منهم أدوية مسماة بتلك الأسماء ، فبعضهم أنكرها وبعضهم ادعى معرفتها وأخذ الدراهم من الرسل ودفع إليهم شيئًا من حانوته . فأمر الأفشين بإحضار جميع الصيادلة فلما حضروا كتب لمن أنكر معرفته تلك الأسماء منشورات أذن لهم فيها بالمقام فى عسكره، ونفى الباقين عن العسكر، ولم يأذن لواحد منهم فى المقام ونادى المنادى بنفيهم وبإباحة دم من وجد منهم فى معسكره. وكتب إلى المعتصم يسأله البعثة إليه بصيادلة لهم أديان ومذهب جميل ومتطببين كذلك فاستحسن المعتصم ذلك ووجه إليه بما سأل[١].

١- الأسروشنية أو الشين تقدم على السين بلدة بما وراء النهر بين سيحون وسمرقند.

٢- ابن أبى أصيبعة ج١ ص١٥٧ .

الحِسبة

ذكرنا الحسبة لأنها فى ذلك الزمن بمثابة التفتيش والرقابة فى هذه الأيام على الأطباء والصيادلة.

الحسبة(١) وظيفة جليلة رفيعة الشأن وموضوعها التحدث فى الأمر والنهى والتحدث على المعايش والصنائع والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح فى معيشته وصناعته . قال الماوردى فى الأحكام السلطانية : وهو مشتق من قولك حَسْبك بمعنى اكْفُف لأنه يكفى الناس مؤونة من يبخسهم حقوقهم . قال النحاس: وحقيقة المحتسب فى اللغة المجتهد فى كفاية المسلمين ومنفعتهم ، إذ حقيقة افتعل عند الخليل وسيبويه بمعنى اجتهد.

المُحتَسِب(٢)

هو من أرباب الوظائف الدينية الست المشهورة . وكان عندهم من وجوه العدول وأعيانهم . وكان من شأنه أنه إذا خلع عليه قرئ سجِلُّه بمصر والقاهرة على المنبر. ويده مطلقة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على قاعدة الحسبة ، ولايحال بينه وبين مصلحة أرادها ويتقدم إلى الولاة بالشدّ منه، ويقيم النواب عنه بالقاهرة ومصر وجميع الأعمال كنواب الحكم. ويجلس بجامعى القاهرة ومصر يومًا بيوم، قال : ورأيت فى بعض سجلاتهم إضافة الحسبة بمصر والقاهرة إلى صاحبى الشرطة بهما أحيانًا (٣).

فى الحسبة :

على الأطباء والكحالين والجرائحين والمجبرين

جاء فى كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة(٤) خاصًا بالأطباء وصناعتهم قال: وينبغى للمحتسب أن يأخذ عليهم عهد أبقراط(٥) الذى أخذه على سائر الأطباء ، ويحلفهم أن لايعطوا

١- صبح الأعشى ج٥ ص٤٥٢ .

٢- صبح الأعشى ج٤ ص٣٧٠ .

٣- صبح الأعشى ج٣ ص٤٨٧ .

٤- نهاية الرتبة فى طلب الحسبة تأليف الشيخ الإمام العالم عبد الرحمن بن نصر الدين عبد الله الشعراوى مخطوط.

٥- سيأتى ذكر عهد أبقراط بعد .

أحداً دواءً مراً ، ولايركبوا له سمّاً، ولايصنعوا السمائم عند أحد من العامة، ولايذكروا للنساء الدواء الذى يسقط الأجنة، ولا للرجال الدواء الذى يقطع النسل، وليغضوا من أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى، ولايُفشوا الأسرار ولا يهتكوا الأستار ، وينبغى للطبيب أن يكون عنده جميع آلات الطب على الكمال مما يحتاج إليه فى صناعة الطب ، غير آلة الكحالين والجرائحين مما يأتى ذكره فى موضعه، وللمحتسب أن يمتحن الأطباء بما ذكره حنين فى كتابه المعروف بمحنة الطبيب فأما (محنة الأطباء) لجالينوس فلايكاد واحد يقوم بما شرط عليهم .

وأما الكحالون فيمتحنهم المحتسب بكتاب حنين بن إسحاق، أعنى العشر المقالات فى العين[١]، فمن وجده فيما امتحنه به عارفًا بتشريح العين وعدد طبقاتها السبع، وعدد رطوباتها الثلاث، وعدد أمراضها الثلاثة، وما يتفرع من ذلك من الأمراض، وكان خبيراً بتركيب الأكحال وأمزجة العقاقير أذن له المحتسب بالتصدى لمداواة أعين الناس، وألا ينبغى أن يفرط فى شئ من آلات صنعته مثل سنانير السُّبَل والظَفْرة ومحك الجرب ومباضع الفصد ودرج المكاحل وغير ذلك.

وأما كحالو الطرقات فلايوثق باكثرهم ، إذ لا دين لهم يصدهم عن التهجم على أعين الناس بالقطع والكحل بغير علم وخبرة بالأمراض والعلل الحادثة، فلاينبغى لأحد أن يركن إليهم فى معالجة عينه ولايثق باكحالهم وشيافاتهم *، فإن منهم من يضع أشيْافا أصلها من النشا والصمغ ويصبغها ألوانًا مختلفة فيصبغ الأحمر بالأسريقون، والأخضر بالكركم ، والنيل والأسود بالقاقيا ، والأصفر بالزعفران ، ومنهم من يجعل أشياف ماميثا[٢] أو يجعل أصله من البان المصرى ويعجنه بالصمغ المحلول ومنهم من يعمل كحلاً من نوى الإهليلج المحرق والفلفل وجميع غشوش أكحالهم لايمكن حصر معرفتها ، فيحلفهم المحتسب على ذلك إذلا يمكن منعهم من الجلوس لمعالجة الناس.

١- هذا الكتاب قد علق عليه الأستاذ الدكتور مايرهوف العالم المستشرق الرمدى بالقاهرة وطبع لحساب الحكومة المصرية.

٢- Collyrx du suc glaucium

* الشيّاف : أدوية للعين . «القاموس المحيط» [المحرر]

وأما المجبرون فلايحل لأحد أن يتصدى للجبر إلا بعد أن يحكم معرفة المقالة السادسة من كناش* فولوس Pandecte de Paul d'Fgine في الجبر (وهو ترجمة حنين بن إسحاق) وأن يعلم عدد عظام الآدمي وهو مئتا عظم وثمانية وأربعون عظما، وصورة كل عظم فيها وشكله وقدره حتى إذا انكسر منها شئ أو انخلع ردّه إلى موضعه على هيئته التي كان عليها فيمتحنهم المحتسب في جميع ذلك.

وأما الجرائحيون فيجب عليهم معرفة كتاب جالينوس المعروف بقطاجا جانوس[1] في الجراحات والمراهم، وأن يعرفوا التشريح وأعضاء الإنسان، وما فيه من العضل والعروق والشرايين والأعصاب ، ليتجنب ذلك في وقت فتح المواد وقطع البواسير ويكون معه دست المباضع فيه مباضع مدورات الرأس والموربات وفأس الجبهة ومنشار القطع ومجرفة الأذن وورَدْ السلع ومرهمدان المراهم، ودواء الكندر القاطع للدم الذي قدمنا صنعته . وقد يبهرجون على الناس بعظام تكون معهم فيدسونها في الجرح ثم يخرجونها منه بمحضر من الناس ويزعمون أن أدويتهم القاطعة أخرجتها . ومنهم من يضع مراهم من الكِلْس المغسول بالزيت ثم يصبغ لونه أحمر بالمغرة أو أخضر بالكركم والنيل أو أسود بالفحم المسحوق . فيعتبر عليهم العريف جميع ذلك.

عهد أبقراط

ذكرنا في كلامنا في الحسبة على الأطباء أن المحتسب يأخذ عليهم عهد أبقراط قال ابن أبي أصيبعة : إن أبقراط قد وضع عهداً استحلف فيه المتعلم لصناعة الطب على أن يكون لازماً للطهارة والفضيلة وهذه نسخة العهد[2] قال أبقراط:

إني أُقسم بالله رب الحياة والموت وواهب الصحة وخالق الشفا وكل علاج، وأُقسم باسقليبيوس وأقسم بأولياء الله من الرجال والنساء جميعًا، وأشهدهم جميعًا على أني أفي بهذه اليمين وهذا الشرط ، وأرى أن المعلم لي هذه الصناعة بمنزلة آبائي وأواسيه في معاشي، وإذا احتاج إلى مال واسيته وواصلته من مالي، وأما الجنس المتناسل منه فأرى أنه مساو

---

* الأصول التي تتشعب منها الفروع «القاموس المحيط» . [المحرر]

١- هذا الكتاب اسمه باللاتينية De medicamentorum compositione Secundum locos et genera, libri XVII.

٢- ابن أبي أصيبعة ج١ ص٢٥ .

لإخوتي وأعلمهم هذه الصناعة إن احتاجوا إلى تعلمها بغير أجرة ولاشرط، وأشرك أولادى وأولاد المعلم لى والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط وأحلفوا بالناموس الطبى فى الوصايا والعلوم وسائر ما فى الصناعة، وأما غير هؤلاء فلا أفعل به ذلك . وأقصد فى جميع التدبير بقدر طاقتى منفعة المرضى. وأما الأشياء التى تضر بهم وتدنى منهم بالجور عليهم فأمنع منها بحسب رأيى . ولا أعطى إذا طلب منى دواء قتالاً ولا أشير أيضاً بمثل هذه المشورة. وكذلك أيضًا لا أرى أن أدنى من النسوة فرزجة تسقط الجنين وأحفظ نفسى فى تدبيرى وصناعتى على الزكاة والطهارة ولا أشق أيضًا عمن فى مثانته حجارة لكن أترك ذلك إلى من كانت حرفته هذا العمل. وكل المنازل التى أدخلها إنما أدخل إليها لمنفعة المرضى وأنا بحالة عن كل جور وظلم وفساد إرادى مقصود إليه فى سائر الأشياء وفى الجماع للنساء والرجال الأحرار منهم والعبيد. وأما الأشياء التى أعاينها فى أوقات علاج المرضى أو أسمعها ، أو فى غير أوقات علاجهم فى تصرف الناس من الأشياء التى لاينطق بها خارجًا فأمسك عنها وأرى أن مثالها لاينطق به».

فمن أكمل هذه اليمين ولم يفسد منها شيئًا كان له أن يكمل تدبيره وصناعته على أفضل الأحوال وأجملها وأن يحمده جميع الناس فيما يأتى من الزمان دائمًا ومن تجاوز ذلك كان بضده أ هـ .

الحسبة على الصيادلة

ذكرنا الحسبة على الأطباء ، ونذكر كذلك الحسبة على الصيادلة لعلاقة ذلك بالطب قال الإمام عبد الرحمن بن نصر الدين عبدالله الشيرازى(١):

«تدليس هذا الباب كثير لايمكن حصر معرفته على التمام فرحم الله من نظرفيه ، وعرف استخراج غشوشه فكتبها فى حواشيه، تقربًا إلى الله تعالى، فهى أضر على الخلق من غيرها، لأن العقاقير والأشربة مختلفة الطبائع والأمزجة ، والتداوى على قدر أمزجتها فمنها ما يصلح لمرض ومزاج فإذا أضيف إليها غيرها أخرجها عن مزاجها فأضرت بالمريض لامحالة. فالواجب عليهم أن يراقبوا الله عز وجل فى ذلك فينبغى للمحتسب أن يخوفهم ويعظهم وينذرهم بالعقوبة والتعزير ويعتبر عليهم عقاقيرهم فى كل أسبوع». ثم ذكر المؤلف غشوشهم مما لايتسع المقام هنا لذكرها فتجتزئ عنها بما ذكرنا.

١- من كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة الباب السابع (مخطوط) .

الباب الثانى

فى

بيمارستانات البلاد الإسلامية على التفصيل



بيمارستان جُنْدَيْسابور

كان هذا البيمارستان من أكبر البيمارستانات فى العصر السابق على الإسلام بثلاثة قرون وإنما ابتدأنا بذكره لأنه كان نعم المعين للعرب على إنشاء البيمارستان بعد ذلك ، وتخريج الأطباء اللازمين لها وظل حافظًا لكيانه وشهرته عهدًا طويلاً إلى ما بعد قيام الدولة العباسية ، حيث ابتدأ المسلمون ينشئون البيمارستانات فى بلادهم وأمصارهم التى افتتحوها .

وجنديسـابور[1] مدينة بخوزستان ويقال لها الخوز، وقد اشتهرت هذه المدينة بمدرستها الطبية وبيمارستانهما اللذين انشأهما كسرى الأول وجلب إليهما المعلمين من يونان . وتلقى التعاليم اليونانية باللغة الآرامية، ولذلك كان للسريان نصيب كبير فيهما، وكانوا أول من ساعد الخلفاء على نشر الطب فى بلادهم بما تخرج منهما من الأطباء والمترجمين الذين برزوا فى الفضائل. قال ابن القفطى: إن أهل جنديسابور من الأطباء فيهم حذق بهذه الصناعة، وعلم من زمن الأكاسرة . وذلك سبب وصولهم إلى هذه المنزلة. ثم قال: ولم يزل أمرهم يقوى فى العلم ويتزايدون فيه ويرقبون العلاج على مقتضى أمزجة بلادهم حتى برزوا فى الفضائل وجماعة منهم يفضلون علاجهم وطريقهم على اليونان والهند، لأنهم أخذوا فضائل كل فرقة فزادوا عليها بما استخرجوه من قبل نفوسهم ورتبوا لهم دساتير وقوانين وكتبًا جمعوا فيها كل حسنة مما يستدل منها على فضلهم وغزارة علمهم ولم يزالوا كذلك حتى ولى المنصور الخلافة وبنى مدينة السلام فعرض له مرض فاستدعى منهم جورجيس بن بختيشوع ... الخ) . وكان الطلاب يؤمون معاهدها وبيمارستانها من كل حدب وصوب من البلاد المجاورة.

وكان العرب قبل الإسلام يستمدون أطباءهم من خريجى جنديسابور . واستطب النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون من بعده أطباء تخرجوا من جنديسابور كالحارث بن

١- جند يسابور مدينة بخوزستان ويقال لها الخوز وهو إقليم واسع بين البصرة وفارس بناها سابور الأول الساسانى بن اردشير ؛ وأسكنها سبى الروم الذين وقعوا فى أسره إثر حربه مع الامبراطور الرومانى اورليان Ourélian ثم افتتحها المسلمون صلحًا فى سنة ١٧ من الهجرة (٦٣٨م) فى أيام عمر بن الخطاب، فتحها أبو موسى الأشعرى عقب احتلاله تُسْتَر. ومن جند يسابور إلى تستر ثمانية فراسخ وإلى السوس ستة فراسخ وتسمى بالسريانية بيت لاباط ثم حرفت إلى بيل آباد ثم أخذت فى الانحطاط والتدهور حتى عفا أثرها قال ياقوت (المتوفى سنة ٦٢٦هـ ١٢٢٨م) فى معجمه : اجتزت بها مراراً ولم يبق منها عين ولا أثر إلا ما يدل على شئ من آثار بائدة وكانت مدينة خصبة كثيرة الخير وبها نخيل وزروع كثيرة.

كلدة وابنه النَضْر بن الحارث بن كلدة . واستطب خلفاء بنى أُمية ابن أثال الطبيب النصرانى أصفاه لنفسه معاوية بن أبى سفيان أول خلفاء بنى أُمية ، وأبا الحكم وحكمًا الدمشقى وتيانوق وغيرهم من الأطباء الذين عرفوا بالعمل فى هذا البيمارستان:

١- جورجيس بن بختيشوع

كان رئيس الأطباء بالبيمارستان فى صدر الدولة العباسية استطبه الخليفة أبو جعفر المنصور لضعف أصابه سنة ١٤٨هـ فبرئ الخليفة فأكرم مثواه وجازاه أحسن الجزاء وفى سنة ١٥٢ مرض جورجيس وعاد إلى جنديسابور.

٢- بختيشوع بن جورجيس

كان يلحق بأبيه فى معرفة صناعة الطب وكان مقيمًا بالبيمارستان بجنديسابور ، وعالج المنصور والمهدى، والرشيد فى سنة ١٧١ فجعله الرشيد رئيسًا على كافة الأطباء.

٣- ابراهيم تلميذ جورجيس

كان تلميذًا لجورجيس بن بختيشوع وصحبه عند معالجته للخليفة المنصور.

٤- سرجيس

تلميذ جورجيس كان مديرًا للبيمارستان فى غيبة أستاذه .

٥- عيسى بن شهلاثا

تلميذ جورجيس بن بختيشوع صحبه فى ذهابه إلى بغداد لمعالجة المنصور.

٦- جبريل بن بختيشوع

ابن جورجيس كان طبيبًا حاذقًا نبيلا خدم الخليفة الرشيد ثلاثا وعشرين سنة ثم خدم من بعده الأمين والمأمون مات سنة ٢١٣هـ ٨٢٨م.

٧- بختيشوع بن جبريل

ابن بختيشوع كان نبيل القدر وبلغ من عظم المنزلة والحال وكثرة المال لم يبلغه أحد من معاصريه من الأطباء خدم الخلفاء الواثق بالله ، ثم المستعين بالله ابنى المعتصم، ثم المهتدى بالله والمتوكل على الله، فصلحت حاله، وعلت منزلته، وكثر ماله، واتسعت نفقاته إلى درجة تفوق الوصف. مات يوم الأحد لثمانٍ بقين من صفر سنة ٢٥٦هـ ٨٧٠م.

٨- سابور بن سهل

كان ملازمًا لبيمارستان جنديسابور عالمًا بقوى الأدوية خدم المتوكل وتوفى يوم الاثنين لتسع بقين من ذى الحجة سنة ٢٥٥هـ.

٩- ماسويه

أبو يوحنا أقام ببيمارستان جنديسابور أربعين سنة تعرف الأدواء وصار أعلم أهل زمانه بالأدوية وأتصل بالفضل بن يحيى فأوصله بعد ذلك بالخليفة هرون الرشيد ولازم خدمته.

١٠- دهشتك

كان رئيسًا للبيمارستان بجنديسابور فأمره الرشيد باتخاذ بيمارستان وقلده رياسته ثم أعفاه منه.

١١- ميخائيل ابن أخى دهشتك

كان مقيماً بالبيمارستان بجنديسابور مع دهشتك

١٢- عيسى بن طاهر بخت

من أطباء البيمارستان بجنديسابور وهو تلميذ جورجيس ابن بختيشوع

بيمارستانات مصر

١- بيمارستان زقاق القناديل

قيل إنه كان فى الدولة الأموية مارستان[١] فى زقاق القناديل دار أبي زبيد . وزقاق القناديل- ويقال له زقاق القنديل - من أزقة الفسطاط . قال القضاعى [٢] إنما وسم زقاق القناديل أو القنديل لأنه كان برسم قنديل كان على باب عمرو بن العاص وفى هذا الزقاق ولد الإمام الحافظ ابن سيد الناس صاحب السيرة[٣] المتوفى سنة ٧٣٤هـ .

٢- بيمارستان المعافر

هذا المارستان[٤] كان فى المعافر[٥] التى موضعها ما بين العامر من مدينة مصر (الفسطاط) وبين مُصلَى خولان[٦] التى بالقرافية، بناه الفتح بن خاقان[٧] فى أيام الخليفة المتوكل على الله وقد باد أثره .

٣- البيمارستان العتيق

ويعرف بالبيمارستان الأعلى[٨] أنشأه أحمد بن طولون فى سنة ٢٥٩هـ ٨٧٢م وقيل ٢٦١هـ وذكر أن مبلغ ما أنفق عليه وعلى مستغله ستون ألف دينار . وحبس عليه سوق الرقيق وغيره ولم يكن قبل ذلك فى مصر مارستان. وشرط ألا يعالج فيه جندى ولامملوك، وكان يشارفه بنفسه ويركب إليه يوما فى كل أسبوع.

١- الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩هـ ج٤ ص٩٩ .

٢- الانتصار ج٤ ص١٣ .

٣- اسمها عيون الأثر فى فنون المغازى والشمايل والسير.

٤- خطط المقريزى ج٢ ص٤٠٦ .

٥- هم بنو المعافر بن يعفر بن مرة بن أدد من قبائل العرب التى نزلت هذه الجهة.

٦- هم بنو خولان بن عمر بن مالك بن زيد بن عريب من القبائل التى نزلت هذه الخطة.

٧- الفتح بن خاقان وزير المتوكل على الله وحمو أحمد بن طولون قتل مع الخليفة فى ليلة واحدة سنة ٢٤٧ هـ٨٦١م.

٨- الانتصار لابن دقماق ج٤ ص٩٩ .

قال أبو العباس أحمد القلقشندى[١] أول من اتخذ البيمارستان بمصر أحمد بن طولون بناه بالفسطاط وهو موجود إلى الآن[٢] وبلغت أجرة مقعد بكري عند البيمارستان الطولونى بالفسطاط فى كل يوم اثنى عشر درهمًا . وهذا المارستان[٣] كان موضعه فى أرض العسكر[٤] وهى الكيمان والصحراء التى تقع بين جامع ابن طولون وكوم الجارح[٥] وفيما بين قنطرة السدّ التى على الخليج ظاهر مدينة مصر وبين السور الذى يفصل بين القرافة وبين مصر . وقد اندثر هذا المارستان فى جملة ما اندثر من الآثار ولم يبق له الآن أثر. وقال أبو عمر محمد بن يوسف الكندى[٦] فى كتاب الأمراء : وأمر أحمد بن طولون ببنيان المارستان للمرضى فبُنِى لهم فى سنة ٢٥٩هـ (٨٧٢م) .

وقال محمد بن داود فى ذم أحمد بن طولون وبيمارستانه :

ألا أيُّها الأغفالُ إيهًا تأملوا وهل يوقظ الأذهان غير التأمل

١- صبح الأعشى ج٣ ص٣٢٧ .

٢- أى إلى عصر القلقشندى المتوفى سنة ٨٧١هـ (١٤١٨م) .

٣- خطط المقريزى ج٢ ص٤٠٥ .

٤- فى سنة ١٣٣ هـ تولى أبو عون عبد الملك بن يزيد ولاية مصر باستخلاف صالح بن على بن عبدالله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمى . وهو أول من ولى مصر من قبل خلفاء بنى العباس . ففى أيام أبى عون هذا سكنت أمراء مصر العسكر، وسببه أنه لما قدم صالح بن على العباسى وأبو عون بجموعهما إلى مصر فى طلب مروان الحمار نزلت عساكرهما الصحراء جنّب جبل يشكر الذى هو الآن جامع ابن طولون، وكان فضاء فلما رأى أبو عون ذلك أمر أصحابه بالبناء فيه فبنوا وبنى هو أيضا دار الإمارة ومسجداً عرف بجامع العسكر وعملت الشرطة أيضًا فى العسكر وقيل لها الشرطة العليا. وإلى جانبها بنى الأمير أحمد بن طولون جامعه الموجود الآن وسمى من يومئذ ذلك الفضاء «العسكر» وصار منزلا لأمراء مصر بعد أبى عون . وصار العسكر مدينة ذات أسواق ودور عظيمة وفيه أيضًا بنى الأمير أحمد بن طولون بيمارستانه، وكان البيمارستان المذكور بالقرب من بركة قارون التى صارت الآن كيمانا ؛ وبعضها بركة على يسار من مشى من حَدْرة أبى قميحة يريد قنطرة السد (النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ص٢٦٢ طبع ليدن سنة ١٨٥٢ وص٣٢٦ج طبعة دار الكتب بالقاهرة) .

٥- هو الكوم المتصل برحبة موقف الطحانين وكان هذا الخط من أعمر الأخطاط بالفسطاط.

٦- كتاب الولاة وكتاب القضاة ص١٦٢ طبع اليسوعيين ببيروت.

ألم تعلموا أن ابن طولون نَقْمة ... تُسَيرُ من سُفْل إليكم ومن عل

ولولا جناياتُ الذُنوب لما عَلَمتْ ... عليكم يدُ العلْجِ السخيف المُجَهلِ

يعالج مرْضاكم ويَرْمى جريحكم ... حبيش القلب أدْهَمَ أعْزَلِ؟

فياليت مارستانه نيط بِاسْتِه ... وما فيه من علْج عُتلٍ مُقَلَّلِ

فكم ضجّةٍ للناس من خَلْفِ سِتْرِه ... تُضَجُّ إلى قَلْبٍ عن الله مُقفل

وقال جامع السيرة الطولونية وفى سنة ٢٦١هـ بنى أحمد بن طولون المارستان، ولم يكن قبل ذلك فى مصر مارستان ولما فرغ منه حبس عليه دار الديوان ودوره فى الأساكفة والقيسارية وسوق الرقيق وشرط فى المارستان ألايعالج فيه جندى ولا مملوك وعمل حمامين للمارستان أحدهما للرجال والآخر للنساء ، حبسهما على المارستان وغيره . وشرط أنه إذا جئ بعليل تنزع عنه ثيابه ونفقته وتحفظ عند أمين المارستان ثم يلبس ثيابًا ويفرش له ويغذى ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ فإذا أكل فَرُوجًا ورغيفًا أمر بالانصراف وأُعطى ماله وثيابه . وفى سنة ٢٦٢هـ (٨٧٥م) كان ما حبسه على المارستان والعين والمسجد فى الجبل الذى يسمى تَنّور فرعون أعيانًا كثيرة وكان بلغ ما أنفق على المارستان ومستغله ستين ألف دينار، فكان يركب بنفسه فى كل يوم جمعة ويتفقد خزائن المارستان وما فيها والأطباء وينظر إلى المرضى وسائر المعلولين والمحبوسين من المجانين. دخل مرّة حتى وقف عند المجانيين فناداه واحد منهم مغلول : «أيها الأمير اسمع كلامى ما أنا بمجنون ، وإنما عملت على حيلة، وفى نفسى شهوة رمّانة عريشية أكبر ما يكون ». فأمر له بها من ساعته ففرح بها وهزها فى يده ورازها ثم غافل أحمد بن طولون ورمى بها فى صدره فنضحت على ثيابه، ولو تمكنت منه لأتت على صدره فأمرهم أن يحتفظوا به ، ثم لم يعاود بعد ذلك النظر فى البيمارستان .

ودخل مصر فى سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م) ابن جبير[١] الرحالة المغربى العظيم وشاهد البيمارستان الذى بالقاهرة وقال: إنه مفخرة من مفاخر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وأطنب فى وصفه بما سيأتى ذكره بعد. ثم قال : « وفى مصر (الفسطاط) مارستان

١- رحلة ابن جبير ص٥٢ طبع ليدن (ولد ابن جبير ببلنسية سنة ٥٤٠هـ (١١٤٥م) وتوفى بالاسكندرية سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧م) .

آخر على مثل ذلك الرسم بعينه يريد مارستان أحمد بن طولون . وقال السخاوى[1] إن أحمد بن طولون بنى إلى جانب جامعه البيمارستان وكان فى أحد مجالس البيمارستان العتيق أى بيمارستان أحمد بن طولون خزانة كتب كان فيها ما يزيد على مائة ألف مجلد فى سائر العلوم يطول الأمر فى عدتها[2].

ولما آلت الدولة الطولونية إلى الزوال بخروج شيبان بن أحمد ابن طولون آخر ملوكها من مصر فى ليلة الخميس لليلة خلت من ربيع الأول ٢٩٢هـ ودخلها محمد بن سليمان الكاتب من قبل المكتفى بالله، أخذ الشعراء فى رثائهم والتحسر عليهم فنظموا القصائد الطوال فى ذلك. ومن هؤلاء الشعراء سعيد القاضى . قال يرثى الدولة الطولونية (وما تركت) من جلائل الآثار فى قصيدة مطلعها :

جرى دَمْعُه ما بين سَحْرٍ إلى نَحْرِ   ولم يَجْرِ حتى أسْلَمَتْه يد الصبْرِ

إلى أن قال يرثى المارستان[3]:

ولاتَنْسَ مارستانه واتساعه   وتَوْسِعة الأرزاقِ للحَوْلِ والشهر

وما فيه من قوّامه وكُفاتِه   ورِفْقهِمُ بالمُعْتَفين ذوى الفَقْرِ*

فللميت المقبور حسنُ جهازه   وللحىّ رِفْقٍ فى علاج وفى جَبْرِ

وعمل أحمد بن طولون[4] فى مؤخرة جامعه ميضأة وخزانة شراب فيها جميع الشرابات والأدوية وعليها خدم وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة [5].

١- تحفة الأحباب ج٤ ص٤ هامش نفح الطيب طبع القاهرة.

٢- النجوم الزاهرة ص٤٧٢ طبع ليدن (ج٤ ص١٠١) طبع دار الكتب.

٣- كتاب الولاة وكتاب القضاة لأبى عمر محمد بن يوسف الكندى ص٢٥٦ .

* العافى : طالب فضل أو رزق [المحرر] .

٤- خطط المقريزى ج١ ص٤٠٥ .

٥- فى كتاب أسرار الحكماء لياقوت المستعصمى (ص١٠٨ طبع الجوائب) : «أن أحمد بن طولون أراد أن يكتب صكاك أحباسه التى حبسها بمصر من المسجد العتيق والمارستان فتولى كتابة ذلك أبو حازم قاضى دمشق فلما جاءت الصكاك أحضر علماء الشروط لينظروا هل فيها شئ يفسدها ؛ فنظروا فقالوا ليس فيها شئ؛ فنظر فيها أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوى وهو يومئذ شاب فقال : «فيها غلط» فطلبوا منه بيانه فأبى. فأحضره ابن طولون وقال : «إن كنت لم تذكر الغلط لرسلى فاذكره لى» فقال: «لا أفعل» قال : «ولم؟» قال: «لأن أبا حازم رجل عالم وعسى أن يكون الصواب معه وقد خفى على» فأعجب ذلك ابن طولون =

من عُرِف من الأطباء بخدمة البيمارستان العتيق :

١- **محمد بن عبدون** الجيلى العذرى رحل إلى المشرق ودخل البصرة وإلى مدينة فسطاط مصر ودبَّر مارستانها ومهر فى الطب ورجع إلى الأندلس سنة ٣٦٠ . وخدم بالطب المستنصر بالله والمؤيد بالله وكان قبل مؤدبًا فى الحساب والهندسة . قال القاضى صاعد الأندلسى[١] : «وأخبرنى أبو عثمان سعيد بن البُغُونْش الطليطلى : أنه لم يلق فى قرطبة أيام طلبه من يلحق بمحمد بن عبدون الجيلى فى الطب.

٢- **سعيد بن نوفل**[٢] طبيب نصرانى كان فى خدمة أحمد بن طولون .

٣- **شمس الدين** محمد بن عبدالله بن عبد الرحمن المصرى مدرس الأطباء بجامع ابن طولون كان فاضلاً له نظم مات فى شوال (١٧) سنة ٧٧٢هـ[٣].

٤- المارستان الأسفل[٤]

بالفسطاط أو بيمارستان كافور الاخشيد، بناه الخازن الذى عمر المقياس بالأهراء، عَمره وعَمر الميضأتين المرسومة إحداهما لتغسيل الموتى والسقاية ، والحمامين المعروفين بحمامى بوران ... وذلك فى سنة ٣٤٦هـ قال القضاعى: «إن الاخشيد أمير مصر حبس جميع ما بناه من قيسارية ودور وحوانيت على المارستان الأسفل والميضأتين والسقايتين وأكفان الموت» وذكر شيوخ مصر المؤرخون أن هذا المارستان كان فيه من الأزيار الصينى الكبار والبرانى والقدور النحاس والهواوين والطسوت وغير ذلك ما يساوى ثلاثة آلاف دينار . ونقل إليه من المارستان

= وأجازه وقال له : «تخرج إلى أبى حازم وتوافقه على ما ينبغى» فخرج إليه فاعترف أبو حازم بالغلط . فلما رجع الطحاوى إلى مصر وحضر مجلس ابن طولون سأله فقال: «كان الصواب مع أبى حازم وقد رجعت إلى قوله» وأسر ما كان بينهما فزاد فى نفس ابن طولون وقربه وشرفه ١هـ وهذا غاية ما يستطيعه بشر فى الاحتياط لمصلحة الوقف فانظر مقدار حرصهم واجتهادهم لتبقى أوقافهم عامرة يعم نفعها وخيرها الناس كافة ... .

١- طبقات الأمم ص٨١ .

٢- حسن المحاضرة للسيوطى ج١ ص٣١١ .

٣- الدرر الكامنة لابن حجر وحسن المحاضرة للسيوطى ج١ ص٣١٥ .

٤- الانتصار لابن دقماق ج٣ وج٤ ص٩٩ .

الذى بناه أحمد بن طولون أضعاف ذلك وليس به الآن[١] شراب ولا دواء يلتمسه فقير وإنما يطبخ فيه فى السنة ... (كلمة غير مفهومة) يسير أكثر الضعفاء لايصلون إليه ثم بطل ذلك» وقال تقى الدين المقريزى : هذا المارستان بناه كافور الاخشيد وهو قائم بتدبير دولة الأمير أبى القاسم أنوجور بن محمد الاخشيد بمدينة مصر فى سنة ٣٤٦هـ ٩٥٧م.

٥- بيمارستان القشاشين

قال القاضى محى الدين بن عبد الظاهر[٢] : بلغنى أن البيمارستان كان أولاً بالقشاشين يعنى المكان المعروف الآن (أى فى زمن ابن عبد الظاهر) بالخراطين على القرب من الجامع الأزهر، وهناك كانت دار الضرب بناها مأمون البطائحى وزير الأمر بأحكام الله قبالة البيمارستان .

قال تقى الدين المقريزى[٣] فى كلامه عن درب خربة صالح: «هذا الدرب على يسرة من سلك من أول الخراطين إلى الجامع الأزهر ، كان موضعه فى القديم مارستانًا ثم صار مساكن، وعرف بخربة صالح، وفيه سوق الصنادقيين . وقال عن سوق الصنادقيين : إنه تجاه المدرسة السيوفية . كان موضعه القديم من جملة المارستان فيستفاد من ذلك أن ذلك المارستان قد عفا أثره قبل محى الدين بن عبد الظاهر [٤].

١- هذا قول ابن دقماق المولود ٧٥٠هـ المتوفى سنة ٨٠٩هـ (١٣٤٩-١٤٠٦م) .

٢- صبح الأعشى ج٣ ص٣٦٩ .

٣- الخطط والآثار ج٢ ص٤٠ .

٤- هو محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر القاضى فتح الدين ابن القاضى محى الدين الجدامى الرومى المصرى المعروف بابن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء ومؤتمن المملكة بالديار المصرية ؛ مولده بالقاهرة سنة ٦٠٨هـ تفقه ومهر فى الإنشاء والأدب وسار فى الدولة المنصورية (قلاوون) برأيه وعقله وحسن سياسته توفى بقلعة دمشق سنة ٦٩١هـ ودفن بسفح قاسيون(المنهل الصافى) «مخطوط».

٦- بيمارستان السُّقطيين

كان هذا البيمارستان فى سوق السقطيين خارج باب زويلة بجوار دار التفاح . قال ابن أبى أصيبعة[١]:

كان أبو الحجاج يكحل فى البيمارستان بالقاهرة غير الموضع الذى صار حينئذ بالقاهرة بيمارستانًا وهو من جملة القصر، يريد أنه غير بيمارستان صلاح الدين أو البيمارستان الناصرى . قال : وكان البيمارستان فى ذلك الوقت فى السقطيين أسفل القاهرة .

الأطباء الذين عملوا فى هذا البيمارستان :

١- شهاب الدين أبو الحجاج يوسف الكحال كان يكحل فى هذا البيمارستان.

٧- البيمارستان الناصرى أو الصلاحى

أو بيمارستان صلاح الدين

لما ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب[٢] الديار المصرية (سنة ٥٦٧هـ ١١٧١م) واستولى على القصر قصر الفاطميين ، كان فى القصر قاعة بناها العزيز بالله في سنة ٣٨٤هـ (٩٩٤م) فجعلها السلطان صلاح الدين بيمارستانًا ، وهو البيمارستان العتيق داخل القصر ، وهو باق على هيئته إلى الآن (أى إلى زمن القلقشندى وكانت وفاته سنة ٨٢١هـ (١٤١٨م) ويقال: إن فيها أى القاعة طِلّسمًا لايدخلها نمل، وإن ذلك هو السبب الموجب لجعلها بميارستانا .

وقال أبو السرور البكرى[٣] فى كلامه على البيمارستان:

قصر أولاد الشيخ من جملة القصر الكبير وكان قاعة فسكنها الوزير الصاحب معين الدين حسين بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حَمُّويَة ، فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب فعرف به المارستان العتيق.

١- طبقات الأطباء ج٢ ص٢٤٧ .

٢- صبح الأعشى ج٣ ص٤٠ .

٣- كتاب قطف الأزهار فى الخطط والآثار مخطوط .

قال القاضى الفاضل فى متجددات سنة ٥٧٧هـ (١١٨١م):

«أمر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بفتح مارستان للمرضى والضعفاء فاختير مكانًا بالقصر، وأفرد برسم من جملة الرباع الديوانية ، مشاهرة[١] مبلغها مائتا دينار وغلّات جهتها الفيوم واستخدم له أطباء وكحّالين وجراحيين وشارفًا وعاملاً وخُداماً ووجد الناس به رفقًا وبه نفعًا ». وقال ابن عبد الظاهر:

«كان البيمارستان قاعة بناها العزيز بالله سنة ٣٨٤هـ (٩٩٤م) وقيل : إن القرآن مكتوب على حيطانها . ومن خواصها أنه لا يدخلها نمل لطلّسْم بها ولما قيل ذلك لصلاح الدين يوسف ابن أيوب قال : هذا يصلح أن يكون بيمارستانًا وسألت مباشريه عن ذلك فقالوا صحيح».

قال أبو الحسن محمد بن جبير[٢] الرحالة الأندلسى عند زيارته لمدينة القاهرة سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م) وذلك فى عهد السلطان صلاح الدين:

«ومما شاهدناه فى مفاخر هذا السلطان، المارستان الذى بمدينة القاهرة، وهو قصر من القصور الرائعة ، حسنًا واتساعًا ، أبرزه لهذه الفضيلة تأجُرًا واحتسابًا ، وعين قيمًا من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنّه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها، ووضعت فى مقاصير ذلك القصر أسرةً يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى. وبين يدى ذلك القيم خدمة يتكلفون بتفقد أحوال المرضى بكُرة وعشيّة ، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم. وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى ولهن أيضًا من يكفلهن . ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك من الحديد اتخذت مجالس للمجانين . ولهم أيضًا من يتفقد فى كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها. والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد فى الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد» وقال على مبارك باشا [٣]: «لما تولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب السلطنة وفرق أماكن قصر الخلافة على أمرائه ليسكنوا فيها ، جعل موضعا منها مارستانًا وهو المارستان المشهور بالعتيق وجعل بابه من حارة ملوخية ، وهي حارة قائد القواد قديمًا وموضعه الآن الدار المعروفة بدار غمرى الحصرى مع ما جاورها من الدور كما وجدنا ذلك

١- السلوك للمقريزى ص٨٧ .

٢- رحلة ابن جبير ص٥١ طبع ليدن.

٣- الخطط الجديدة ج٢ ص٨١ .

فى حجج الأملاك وهو بآخر الحارة من جهة بابها الصغير الذى هو من جهة قصر الشوك. وأصل هذا الباب أحد أبواب القصر الكبير الشرقى وكان يسمى باب قصر الشوك ويدخل منه إلى البيمارستان العتيق .

الأطباء الذين عملوا فى هذا المارستان:

١- رضى الدين الرحبى: هو الإمام العالم رضى الدين أبو الحجاج يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبى كان والده من الرَحبْة وكانت صناعة الكحل أغلب عليه ، كان مولده بجزيرة ابن عمر سنة ٥٣٤هـ (١١٣٩م) سافر إلى بغداد واشتغل بصناعة الطب، وكان وصوله إلى دمشق مع أبيه سنة ٥٥٥هـ وكان فى ذلك الوقت ملكها السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى، واجتمع بالملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فحسن موقعه عنده وأطلق له فى كل شهر ثلاثين ديناراً. ويكون ملازماً للقلعة والبيمارستان بالقاهرة ولما توفى صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ (١١٩٢م) عاد إلى دمشق وبقى فيها إلى أن توفى سنة ٦٣١هـ (١٢٢٣م) وعاش نحو المائة سنة. وكان من محاسن عادات رضى الدين أنه ما كان يقرب الطعام إلا إذا طلبته شهوته؛ وأنه كان أبداً يتوخي ألاَّ يصعد فى سلم وكان يصف السلّم بأنه منشار العمر.

٢- ابراهيم بن الرئيس ميمون: هو أبو المني إبراهيم بن الرئيس موسى بن ميمون منشؤه فسطاط مصر، وكان طبيباً مشهوراً عالمًا بصناعة الطب وكان فى خدمة الملك الكامل محمد بن أبى بكر بن أيوب، ويتردد إلى البيمارستان الذى بالقاهرة من القصر ويعالج المرضى فيه. قال ابن أبى أصيبعة . «واجتمعت به فى سنة ٦٣١ أو ٦٣٢هـ بالقاهرة وكنت حينئذ أطب فى المارستان فوجدته شيخًا طويلاً نحيف الجسم لطيف الكلام، توفى سنة نيف وثلاثين وستمائة وعاش ٨٦ سنة».

٣- موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجى المعروف بابن أبى أصيبعة . ولد بدمشق وكان متقنًا لصناعة الكحل وعمه رشيد الدين على بن خليفة كان كحالاً ببيمارستان دمشق . قرأ الحكمة على رضى الدين الجيلى واجتمع بابن البيطار بدمشق سنة ٦٣٣هـ (١٢٣٥م) وشاهد معه فى ظاهر دمشق كثيراً من النبات فى مواضعه . وخدم الطب فى البيمارستان الذى أنشأه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بالقصر، ثم دخل فى خدمة الأمير عز الدين فَرخشاه صاحب صرخد وتوفى سنة ٦٨٨هـ (١٢٦٩م) وقد جاوز السبعين .

٤- **الشيخ السديد بن أبي البيان** : هو سديد الدين أبو الفضائل داود بن أبى البيان سليمان بن أبى الفرج إسرائيل بن أبى الطيب سليمان بن مبارك إسرائيل قرّاء، مولده سنة ٥٥٦هـ (١١٦٠م) بالقاهرة كان شيخًا خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة وكان يعالج المرضى بالبيمارستان الناصرى بالقاهرة خدم الملك العادل أبا بكر ابن أيوب وعاش فوق الثمانين.

٥- **القاضى نفيس الدين بن الزبير**: هو القاضى نفيس الدين أبو القاسم هبة الله بن صدقة بن عبدالله الكولى (والكولم من بلاد الهند) ولد سنة ٥٥٦هـ (١١٦٠م) قرأ صناعة الطب وأتقن صناعة الكحل وعلم الجراحة ، ولاه الملك الكامل بن الملك العادل رياسة الطب بالديار المصرية ويكحل فى البيمارستان الناصرى الذى كان من جملة القصر وتوفى سنة ٦٣٦هـ (١٢٣٨م) .

٨- بيمارستان الاسكندرية

قال تقى الدين المقريزى [١]: فى السابع عشر من شوال سنة ٥٧٧هـ سار السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الاسكندرية فدخلها فى الخامس والعشرين من شهر شوال وشرع فى قراءة الموطأ وانشأ بها مارستانًا ودارًا للمغاربة ومدرسة على ضريح المعظم توران شاه .

١- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك.

٩- البيمارستان الكبير المنصورى
أو دار الشفاء
أو مارستان قلاوون(١)

هذا المارستان(٢) بخط بين القصرين(٣) من القاهرة ، كان قاعة للسيدة الشريفة ست الملك(٤) ابنة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله أبى تميم مَعَدّ وأخت الحاكم بأمر الله منصور، ثم عرف بدار الأمير فخر الدين جِهارْكَس(٥) بعد زوال الدولة الفاطمية وبدار مُوسَك(٦) ثم صارت للملك المفضل قُطْب الدين أحمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب. فاستقر بها هو وذريته فصار يقال لها الدار القطبية . ولم تزل بيد ذريته إلى أن أخذها الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى من الست الجليلة عصمة الدين مؤنسة خاتون القطبية ابنة الملك العال وأخت الملك المفضل قطب الدين أحمد، وعوضت عن ذلك قصر الزُمرّد برحبة باب العيد فى ١٨ ربيع الأول وقيل فى ١٢ منه سنة ٦٨٢هـ- ١٢٨٣م بمباشرة الأمير علم الدين سنجر

١- قلاوون هو الملك المنصور قلاوون الصالحى الشهير بالألفى ملك مصر فى سنة ٦٧٨هـ الموافقة ١٢٧٩ ميلادية ، وسمى بالألفى لأن آقْ سنقر الكاملى كان قد اشتراه بألف دينار توفى بظاهر القاهرة سنة ٦٨٩هـ ١٢٩٠م وهو قاصد الغزو فى ذى القعدة ودفن بتربته بالقبة المنصورية داخل البيمارستان.

٢- الخطط والآثار للمقريزى ج٢ ص٤٠٦ .

٣- هما القصر الكبير الشرقى الذى بناه جوهر قائد الفاطميين وفاتح مصر للمعز لدين الله الخليفة الفاطمى وتم بناؤه سنة ٣٦٠هـ والقصر الصغير الغربى بناه العزيز بالله أبو منصور نزار قيل إنه بنى سنة ٤٥٠ .

٤- توفيت ست الملك فى مستهل جمادى الآخرة سنة ٤٢٥هـ وخلفت ثمانية آلاف جارية ووجد فى ذخائرها قطعة ياقوت أحمر زنته عشرة مثاقيل (عقد الجمان للعينى).

٥- قال ابن خلكان : هو أبو منصور جِهارْكَسْ بن عبدالله الناصرى الصلاحى الملقب فخر الدين كان من كبار أمراء الدولة الصلاحية وكان كريما نبيل القدر عالى الهمة بنى بالقاهرة القيسارية الكبرى المنسوبة إليه. رأيت جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون لم نر فى شئ من البلاد مثلها فى حسنها وعظمها وإحكام بنائها . وبنى بأعلاها مسجداً كبيراً وربعًا معلقًا وتوفى فى شهور سنة ٦٠٨ بدمشق ودفن بها فى جبل الصالحية ومعنى جهاركس أربعة أنفس.

٦- الأمير عز الدين موسك الصلاحى من كبار أمراء الدولة الأيوبية.

الشـجـاعى(١) مدير الممالك ورسم بعمارتها مارستانًا وقبة ومدرسة. فتولى الشجاعى أمر العمارة وأظهر من الاهتمام والاحتفال ما لم يسمع بمثله حتى تم الغرض فى أسرع مدة وهى أحد عشر شهراً وأيام. وكان ذرع هذه الدار عشرة آلاف وستمائة ذراع . وكان الشروع فى بنائها مارستانًا فى أول ربيع الآخر سنة ٦٨٣هـ - ١٢٨٤م فأبقى القاعة على حالها وعملها مارستانًا وهى ذات إيوانات أربعة بكل إيوان شاذروان ، وبدور قاعتها فسقية يصير إليها الماء من الشاذروان . ولما نجزت العمارة وقف عليها الملك المنصور من الأملاك بديار مصر القياس والرباع والحوانيت والحمامات والفنادق والأحكار وغير ذلك، والضياع بالشام ما يقارب ألف ألف درهم فى كل سنة ورتب مصارف المارستان والقبة والمدرسة ومكتب الأيتام. ووكل الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى أمير جندار فى وقف ما عينه من المواضع وترتيب أرباب الوظائف وغيرهم، وجعل النظر لنفسه أيام حياته ثم من بعده لأولاده ، ثم من بعدهم لحاكم المسلمين الشافعى فضمن وقفه كتابًا(٢) تاريخه يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر صفر سنة ٦٨٠هـ (١٢٨١م) ٤ يونيـة . ولما تكامل ذلك ركب السلطان(٣) وشاهده وجلس بالبيمارستان ومعه الأمراء والقضاة والعلماء، وأخبر بعض من شهد السلطان وشهد عليه أنه استدعى قدحًا من

١- هو سنجر بن عبدالله الشجاعى المنصورى الأمير الكبير علم الدين وزير الديار المصرية ومشد دواوينها ثم نائب سلطنة دمشق، وكان رجلا طوالا تام الخلقة أبيض اللون أسود اللحية عليه وقار وهيبة وسكون. وكان فى أنفه كبر وفى خلقه شراسة وفى طبيعته جبروت وانتقام وعسف . وله خبرة بالسياسة والعمارة وكان أولاً قد ربى بدمشق عند امرأة تسمى بست قجا بجوار المدرسة المنكلانية، ثم انتقل إلى القاهرة وتعلم الخط وقراءة الأدب واتصل بالأمير عز الدين الشجاعى مشد الدواوين وإليه ينسب بالشجاعى ، ثم اتصل بالملك المنصور قلاوون وهو فى جملة الأمراء ولما تسلطن قلاوون تقدم سنجر المذكور عنده وجعله شاد الدواوين ثم ولاه الوزارة بالديار المصرية، ثم ولاه نيابة دمشق ثم عزل عنها وكان له ميل إلى الدين وتعظيم الإسلام وهو الذى كان مندبًا على عمارة البيمارستان المنصورى بين القصرين فتممه فى مدة يسيرة، ونهض بهذا العمل العظيم وفرغ منه فى أيام قلائل ، وكان يستعمل الصناع والفعلة بالبندق حتى لا يفوته من هو بعيد عنه فى أعلى سقالة أو غيرها، ثم عمل الوزارة فى أول الدولة الناصرية محمد بن قلاوون أكثر من شهر وحدثته نفسه بما فوق الوزارة فعصى ووقع له أمور فقتل وعلق رأسه على سور القلعة . وكانت وفاته فى ٢٤ صفر سنة ٦٩٣ (المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى لابن تغرى بردى حوادث تلك السنة) .

٢- سنأتى على ذكره مفصلاً.

٣- نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى حوادث سنة ٦٨٢هـ .

شراب فشربه ، وقال : قد وقفت هذا على مثلى فمن دونى وأوقفه السلطان على الملك والمملوك الكبير والصغير والحرّ والعبد والذكر والأنثى ، وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة ومن مات جهزه ، وكفن ودفن . ورتب فيه الحكماء الطائعية والكحالين والجرائحية والمجبرين لمعالجة الرُمْد والمرضى والمجرحين والمكسورين من الرجال والنساء ، ورتب به الفراشين والفراشات والقوَمة لخدمة المرضى وإصلاح أماكنهم وتنظيفها وغسل ثيابهم وخدمتهم فى الحمام ، وقرر لهم على ذلك الجامكيات الوافرة وعملت التخوت والفرش والطراريح والأقطاع والمخدات واللُحُف والملاءات لكل مريض فرش كامل. وأفرد لكل طائفة من المرضى أمكنة تختص بهم، فجعلت الأواوين الأربعة المتقابلة للمرضى بالحميات وغيرها. وجعلت قاعدة للرّمد، وقاعة للجرحى ، وقاعة لمن أفرط به الإسهال، وقاعة للنساء ، ومكان حسن للمرورين من الرجال ومثله للنساء، والمياه تجرى فى أكثر هذه الأماكن . وأفردت أماكن لطبخ الطعام والأشربة والأدوية والمعاجين وتركيب الأكحال والشيافات[1] والسفوفات وعمل المراهم والأدهان وتركيب الدرياقات، وأماكن لحواصل العقاقير وغيرها من هذه الأصناف المذكورة ومكان يفرق منه الشراب وغير ذلك مما يحتاج إليه .

ورتب فيه مكان يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء درس طب ينتفع به الطلبة. ولم يحصر السلطان أثابه الله هذا المكان المبارك بعده فى المرضى يقف عندها المباشر ويمنع من عداها، بل جعله سبيلا لكل من يصل إليه فى سائر الأوقات من غنى وفقير ، ولم يقتصر أيضًا فيه على من يقيم به من المرضى بل رتب لمن يطلب وهو فى منزله ما يحتاج إلى من الأشربة والأغذية والأدوية، حتى إن هؤلاء زادوا فى وقت من الأوقات على مئتين غير من هو مقيم بالبيمارستان . ولقد باشرته فى شوال (النويرى يروى ذلك) سنة ٧٠٢هـ إلى آخر رمضان سنة ٧٠٧ فكان يصرف منه فى بعض الأيام من الشراب المطبوخ خاصة ما يزيد على خمسة قناطير بالمصرى فى اليوم الواحد للمرتبين والطوارئ غير السكر والمطابيخ من الأدوية وغير ذلك من الأغذية والأدهان والدريافات وغيرها .

ورتب فى البيمارستان من المباشرين والأمناء من يقوم بوظائفه وابتياع ما يحتاج إليه من الأصناف وضبط ما يدخل إلى المكان وما يخرج منه خاصة من غير أن يكون لهم تعلق فى استخراج الأموال ، وإنما يبتاعون الأصناف ويحيلون بثمنها على ديوان صندوق المستخرج ويكتبون فى كل شهر عمل استحقاق لسائر أرباب الجامكيات والخزانات من سائر أرباب

١- الشيافة : الفتيلة.

الوظائف والمباشرين يكتبه العامل ويكتب عليه الشهود ويأمر الناظر بصرفه يحيلون بثمنها على ديوان صندوق المستخرج ويصرف على حكمه . وهذه الطائفة من المباشرين بالبيمارستان هم مباشرو الإدارة ، وأما مباشرو الصندوق والرباع فإليهم يرجع تحرير جهات الأوقاف فى الخلق والمسكون والمعطل واستخراج الأموال ومحاسبات المستأجرين وصرف الأموال بمقتضى حوالة مباشرى الإدارة ومباشرة العمارة وعمل الاستحقاق، ولايتصرفون فى غير ذلك كما لايتصرف مباشر الإدارة فى صرف الأموال إلا حوالة بإرادتهم.

وأما العمارة فلها مباشرون ينفردون بها من ابتياع الأصناف واستعمال الصباغ ومرمة الأوقاف وغير ذلك مما يدخل فى وظيفتهم وهم يحالون بأثمان الأصناف على الصندوق كما يفعل فى الإدارة وينقل عليهم من الصندوق من المال ما يصرفونه لأرباب الأجر خاصة ويكتبون فى كل شهر عمل استحقاق بثمن الأصناف وأرباب الأجر ويخصمونه بما أحالوا به على الصندوق وما وصل إليه من المال، ويسوقونه إلى فايض أو متأخر ويرفع كل طائفة من هؤلاء المباشرين حساباتهم مياومة ومشاهرة ومساناة إلى الناظر والمستوفى فى هذا ما يتعلق بالبيمارستان.

من أين بنى البيمارستان المنصورى

قال ابن دقماق [1]: فى سنة ٦٤٩ أمر المعز بإخلاء قلعة الروضة ولم يترك بها أحداً. ثم إن الملك المنصور قلاوون لما أراد عمارة البيمارستان أخربها وأخذ حواصلها وعمر بها المارستان والمدرسة والتربة. وقال جلال الدين السيوطى [2] : فلما تسلطن الملك المنصور قلاوون وشرع فى بناء المارستان والقبة والمدرسة المنصورية، نقل من قلعة الروضة ما يحتاج إليه من العمد الصوان والعمد الرخام التى كانت قبل عمارة القلعة بالبرابيو غير ذلك . ولما تمت عمارة المدرسة والبيمارستان وكان على عمارتها الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ، دخل عليه الشرف البوصيرى فمدحه بقصيدة أولها:

أنشأت مدرسة ومارستانا لتصحح الأديان والأبدانا

فأعجبه ذلك منه وأجزل عطاءه ، ورتب فى المدرسة غير الدروس الفقهية درس طب.

١- كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج٤ ص١١٠ .

٢- حسن المحاضرة ج٢ ص٢٧٠ طبع القاهرة.

مرتبة نظر البيمارستان

قال أبو العباس أحمد القلقشندى[1] : ابتنى السلطان قلاوون رحمه الله دار ست الملك أخت الحاكم، المعروفة بالدار القطبية، بيمارستانا فى سنة ٦٨٣هـ ١٢٨٤م بمباشرة الأمير علم الدين سنجر الشجاعى، وجعل من داخله المدرسة المنصورية والتربة فبقى معالم بعض الدار على ما هو عليه وغير بعضها . وهو من المعروف العظيم الذى ليس له نظير فى الدنيا. ونظره مرتبة سنية يتولاه الوزراء ومن فى معناهم قال فى مسالك الأبصار: «وهو الجليل المقدار، الجليل الآثار، الجميل الإيثار ، لعظم بنائه وكثرة أوقافه وسعة إنفاقه وتنوع الأطباء والكحالين والجرائحية فيه» .

وقال ابن بطوطة [2]: «وأما المارستان الذى بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لايحصى ويذكر أن محياه ألف دينار كل يوم».

سبب بناء المارستان

قال تقى الدين المقريزى [3]: «وكان سبب بنائه أن الملك المنصور لما توجه وهو أمير إلى غزاة الروم فى أيام الظاهر بيبرس سنة ٦٧٥هـ- ١٢٧٦م ، أصابه بدمشق قولنج عظيم، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من مارستان نور الدين الشهيد ، فبرأ وركب حتي شاهد المارستان فأعجب به ونذر إن أتاه الله الملك أن يبنى مارستانًا . فلما تسلطن أخذ فى عمل ذلك فوقع الاختيار على الدار القطبية ، وعوض أهلها عنها قصر الزمرد ، وولى الأمير علم الدين سنجر الشجاعى أمر عمارته .

وذكر المؤرخون سببًا آخر فى بناء المارستان فقال ابن إياس [4]: إن سبب بناء المارستان

١- صبح الأعشى ج٣ ص٣٦٩ .

٢- رحلة ابن بطوطة ج١ ص٧١ طبع باريس خرج ابن بطوطة من طنجة موطنه الأصلى قاصداً الحج فى سنة ٧٢٥هـ- ١٣٢٥م ثم خطر له أن يزور بلاداً كثيرة فى طريقه إلى مكة فاتسع فى سياحته وأمضى ٢٤ عامًا متنقلا بين البلدان ومنها مصر وكتب ما شاهده لما عاد إلى بلاده .

٣- الخطط والآثار ج١ ص١١٦ .

٤- بدائع الزهور ج١ ، ص١١٦ .

هذا: أن الملك المنصور قلاوون أمر مماليكه أن يضعوا السيف فى العوام لأمر واجب تغيير خاطر السلطان عليهم ، فإنهم خالفوا أمره فى شئ فعل بجهلهم ، فأمر بقتلهم فلعب فيهم السيف ثلاثة أيام فقتل فى هذه المدة ما لايحصى عدده، وراح الصالح بالطالح، وربما عوقب من لم يجن . فلما زاد الأمر عن الحد، طلع القضاة ومشايخ العلم إلى السلطان وشفعوا فيهم فعفا عنهم وكف عنهم القتل ، فلما جرى ما جرى وراق خاطر السلطان ندم على ما فعله، وبنى هذا المارستان وجعل له جملة أوقاف على رواتب بر وإحسان ، وفعل من أنواع الخير ما لم يفعله غيره من الملوك ، ليكفر الله عنه ما فعله بالناس لعل الحسنات تذهب السيئات كما قال الله تعالى.

وعابوا المارستان[١] لكثرة عسف الناس فى عمله وذلك أنه لما وقع اختيار السلطان على عمل الديار القطبية مارستاناً ، ندب الطواشى حسام الدين بلالاً المغيثى للكلام فى شرائها فساس الأمر فى ذلك حتى أنعمت مؤنسة خاتون ببيعها ، على أن تعوض عنها بدار تلمّها وعيالها ، فعوضت قصر الزمرد برحبة باب العيد مع مبلغ من المال حمل إليها. ووقع البيه على هذا فندب السلطان الأمير سنجر الشجاعى للعمارة فأخرج النساء من القطبية من غير مهلة، وأخذ ثلاثمائة أسير، وجمع صناع القاهرة ومصر وتقدم إليهم بأن يعملوا بأجمعهم فى الدار القطبية ، ومنعهم أن يعملوا لأحد فى المدينتين شغلاً وشدد عليهم فى ذلك، وكان مهاباً فلازموا العمل عنده ونقل من قلعة الروضة ما احتاج إليه من العمد الصوان والعمد الرخام والقواعد والأعتاب والرخام البديع وغير ذلك. وصار يركب إليها كل يوم وينقل الأنقاض المذكورة على العجل إلى المارستان ، ويعود إلى المارستان فيقف مع الصناع على الأساقيل حتى لايتوانوا فى عملهم وأوقف مماليكه بين القصرين، وكان إذا مر أحد ولو جلّ ألزمه أن يرفع حجراً ويلقيه فى موضع العمارة فينزل الجندى والرئيس عن فرسه حتى يفعل ذلك فترك أكثر الناس المرور هناك.

١- الخطط والآثار للمقريزى ص٤٠٧ .

استمرار تهد * البيمارستان المنصوري بالعمارة والإصلاح

وفي عهد الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون في سنة ٧٢٦هـ حصل[١] الشروع في إصلاح البيمارستان المنصوري والقبة والمدرسة وكان الأمير جمال الدين آقوش الأشرفي ناظر الأوقاف قبل ذلك، كان قد رسم أن لايترك أحداً من المرضى بالبيمارستان ومن عوفي أو أبل يخرج منه فخلت بذلك الأواوين من المرضى وأكثر القاعات ولم يبق بالبيمارستان إلا المرورون وبعض المرضى وحصل الشروع في العمارة فأصلحت الجدران وجدد البياض والأدهان ونحت ظاهر القبة والمدرسة والمآذنة بالأزاميل ، واستمرت العمارة إلى أواخر جمادى الأولى وخلت الأواوين الأربعة بالبيمارستان من مستهل هذه السن إلى يوم الثلاثاء حادي عشر جمادى الأولى فرسم في هذا اليوم بتنزيل المرضى وكان جملة ما صرف على هذه العمارة تقارب ستين ألف دينار.

وقال المقريزي[٢]: «في يوم الاثنين سادس شعبان سنة ٧٢٦هـ أنشأ الأمير جمال الدين آقوش نائب الكرك قاعة بالبيمارستان المنصوري ونحت جدر البيمارستان والمدرسة المبنية بالحجر كلها داخلاً وخارجًا وطرا (طلا) الطراز الذهب من خارج القبة والمدرسة حتى صار كأنه جديد وعمل خيمة يزيد طولها على مائة ذراع وركبها لتستر على مقاعد الأقفاص وتستر أهلها من الحر، ونقل الحوض من جانب باب المارستان لكثرة تأذى الناس برائحة النتن ، وعمل موضعه سبيل ماء عذب لشرب الناس وكان مصروف ذلك كله من ماله دون مال الوقف.

وقال الفيومي [٣]: « كان الأمير الكبير جمال الدين آقوش الأشرفي في أثناء توليته نظر البيمارستان المنصوري ، يحسن إلى المرضى ويتفقد أحوالهم في الليل ويتنكر ويدخل إليهم قبل الفجر ويسأل الضعفاء عن سائر أحوالهم حتى عن الفرّاش والطبيب.

---

* هكذا في الأصل ولعل الصواب «تعهد» على نحو ما ينبئ السياق «المحرر»

١- نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري حوادث سنة ٧٢٦ .

٢- السلوك في معرفة دول الملوك ج٢ ص٢٦١ .

٣- نثر الجمان في تراجم الأعيان للفيومي حوادث سنة ٧٣٦هـ (توفي الأمير آقوش في يوم الأحد ٧ جمادي الأولى سنة ٧٣٦) .

ويدخل إلي مارستان المجانين ويباشر أحوالهم بنفسه ويتحدث معهم ولايغفل عن مصلحة تتعلق بمباشرته » وقال خالد البلوى[١] عن مارستان القاهرة فى عصره يريد المارستان الكبير المنصورى : «أخبرنى الشيخ العالم المؤرخ شمس الدين الكركى أنه يكحل فيه كل يوم من المرضى الداخلين إليه والناقهين الخارجين أربعة آلاف نفس وتارات يزيدون وينقصون، ولايخرج منه كل من يبرأ من مرض حتى يعطى إحسانًا إليه وإنعامًا : كسوة للباسه، ودراهم لنفقاته .

وأما ما يعالج المرضى به من قناطير الأشربة المقطرة والأكحال الرقيقة الطبية التى تسحق فيها دنانير الذهب الإبريز ، وفصوص الياقوت النفيس ، وأنوع اللؤلؤ الثمين، فشئ يهول السماع، ويعم ذلك الجمع ، إلى ما يضاف إلى ذلك كله من لحوم الطير والأغنام على اختلافها وتباين أصنافها مع ما يحتاج إليه كل واحد ممن يوافيه ويحل فيه ، لفرشه وعرشه من غطاء ووطاء ومشموم ومزرور وشبه ذلك مما هو مُعَدّ على أكمله هنالك، وما ليس مثله إلا فى منزل أمير أو خليفة وقد رتب على ذلك كله من الأطباء الماهرين والشهود المبرزين والنظار العارفين والخدام المتصرفين كل من هو فى معالجته موثوق بعدالته ، مسلَّم له فى معرفته ، غير مقصر فى تصرفه وخدمته. ولو استقصيت الكلام فى هذا المارستان وحده لكان مجلداً مستقلاً بنفسه، أو فى مبانيه الرائقة وصناعاته الفائقة وتواريخه المذهبة ونقوشه العجيبة المنتخبة التى ترفل فى ملابس الإعجاب وتسحر العقول والألباب ما يفتن النفوس، ويكسف أنواع البدور والشموس وتعجز عن وصف بعضها خطا الأقلام فى ساحة الطروس فما وقعت عين على مثله ولاسمعت أذن بشبهه وشكله :

تجاوز حدَّ الوهم واللحظ والمنى ... وأعشى الحجا لألائه المتضارى

فتنعكس الأفكار وهى خواسر ... وتنقلب الأبصار وهى خواسى

وفى يوم الأثنين[٢] ٣ صفر سنة ٧٤٣ استقر الأمير جنكلى بن البابا فى نظر البيمارستان عوضًا عن الجاولى.

١- تاج المفرق فى تحلية أهل الشرق لأبى البقاء خالد البلوى الأندلسى قاضى قنتورية Cantoria وهى رحلته إلى الحجاز مشحونة بالفوائد والفرائد خرج فيها من بلدة بالمغرب يوم السبت ١٨ صفر سنة ٧٣٦ هـ ومر بالقاهرة فوصف ما شاهده فيها وهى مخطوط بخزانة كتب المرحوم أحمد تيمور باشا رحمه الله .

٢- السلوك للمقريزى ج٢ ص٦٦٤ .

وفى يوم الخميس(١) ربيع الأول سنة ٧٤٣ وقعت منازعة بين الأمير جنكلى بن البابا وبين الضياء المحتسب بسبب وقف الملك المنصور على القبة المنصورية ، فإنه أراد إضافته إلى المارستان وصرف متحصله فى مصارف المارستان فلم يوافقه الضياء ، واحتج بأن لهذا مصرفًا عينه واقفه لقراء وخدام ، ووافقه القضاة على ذلك .

وفى المحرم(٢) من سنة ٧٤٧ خلع على الأمير أرغون العلائى ، واستقر فى نظر البيمارستان المنصورى عوضًا عن الأمير جنكلى بن البابا، فنزل إليه وأعاد جماعة ممن قطعهم ابن الأطروش بعد موت الأمير جنكلى . وانشأ بجوار باب المارستان سبيل ماء ومكتب سبيل لقراءة أيتام المسلمين القرآن الكريم ووقف عليه وقفًا بناحية من الضواحى.

وفى ١٤ محرم ٧٥٢هـ خلع السلطان الملك الصالح الحسن بن محمد بن قلاوون على الضياء يوسف الشامى وأُعيد إلى حسبة القاهرة ونظر المارستان عوضًا عن ابن الأطروش ، بسفارة النائب لكلام نقله ابن الأطروش عن الوزير فسبُّه وأهانه وتحدث فى عزله وعود الضياء. فعرض الضياء حواصل المارستان فلم يجد فيها شيئًا وكتب بذلك أوراقًا وأوقف النائب عليها، فنزل النائب معه إلى المارستان ، واستدعى القضاة وأرباب الوظائف بالمارستان وأحضر ابن الأطروش وطلب كتاب الوقف وقرأه حتى وصل فيه القارئ إلى قوله عن الناظر «القيِّم» : «ويكون على وفاء بالحساب وأمور الكتابة» فقال الضياء لابن الأطروش : «قد سمعت ما شرطه الواقف فيك وأنت عامى مشهور ببيع الخرائط لاتدرى شيئًا مما شرط الواقف وناوله ورقة حساب ليقرأها ، فقام إليه بعض الفقهاء وقال: هذا معه تدريس وإعادة ، وأنا أسأله عن شئ فإن أجاب استحق المعلوم. وأخذته الألسنة من كل جهة فقال النائب : «يا قوم هذا رجل عامى وقد أخطأ وما بقى إلا الستر عليه» فاعترف أنه لايدرى الحساب وأنه عاجز عن المباشرة وألزم نفسه ألاّ يعود إليها أبدًا بإشهاد وكتب فيه قضاة القضاة ونوابهم يتضمن قوارع مُشنَعَةٌ وما زال النائب بأخصامه حتى كفوًا عنه . ثم قام لكشف أحوال المرضى فوجدت فرشهم قد تلفت ولها ثلاث سنين لم تغير، فسد النائب خلله والصرف.

وفى شهر ذى القعدة سنة ٧٥٥ فى عهد سلطنة السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون خلع السلطان على الأمير صرغتمش واستقر فى نظر المارستان المنصورى وكان قد

١- السلوك فى معرفة دول الملوك للمقريزى ج٢ ص٦٦٧ .

٢- السلوك ج٢ ص٧٥٩ .

تعطل نظره من متحدث ترك وانفرد بالكلام فيه القاضي علاء الدين بن الأطروش وفسد حال وقفه، فإنه كان يكثر من مهاداة أمراء الدولة ومديريها ويهمل عمارة رباعه حتى تشققت، فنزل إليه الأمير صرغتمش ودار فيه على المرضى فساءه ما رأى من ضياعهم وقلة العنايةبهم، فاستدعى القاضي ضياء الدين يوسف بن أبى بكر محمد بن خطيب بيت الآبار الشامي وعرض عليه التحدث في المارستان كما كان عوضًا عن ابن الأطروش ، فامتنع من ذلك ، فما زال به حتى أجاب وركب إلى أوقاف المارستان بالمهندسين لكشف ما يحتاج إليه من العمارة؛ فكتب تقدير المصروفات ثلاثمائة ألف درهم ومنع من يتعرض لهم واتصلحت أحوال المرضى أيضًا.

وفى شعبان سنة ٩٠٢[١] أمر السلطان الملك الناصر أبو السعادات محمد بن الأشرف قايتباى (وكان الخليفة وقتئذ المتوكل على الله العباسى) بأن تقطع الحيات التى تصنع فى البيمارستان بحضرته حتى يتفرج عليها ، فأحضروها بين يديه بقاعة البحرة فقطعت بحضرته وهو ينظر إليها وخلع على رئيس الطب شمس الدين القوصونى وولده والحاوى الذى أحضر الحيات وآخرين.

وفى سنة ١١٩٠هـ (١٧٧٦م) جدد الأمير عبد الرحمن كتخدا[٢] المارستان المنصورى وهدم أعلى القبة الكبيرة المنصورية والقبة التى كانت بأعلى الفسحة من خارج ، ولم يعد عمارتها بل سقف قبة المدفن فقط، وترك الأخرى مكشوفة . ورتب له أرزاقًا وأخبازًا زيادة على البقايا القديمة ولما عزم على ترميمه وعمارته أراد أن يحتاط بجهات وقفه فلم يجد له كتاب وقف[٣] ولا دفترًا ، وكانت كتب أوقافه ودفاتره فى داخل خزانة الكتب فاحترقت بما فيها من كتب العلم والمصاحف ونسخ الوقفيات والدفاتر . ووقفه يشتمل على وقف الملك المنصور قلاوون الكبير الأصلى ووقف ولده الملك الناصر محمد بن قلاوون ووقف ابن الناصر أبى الفداء إسماعيل وغير ذلك من مرتبات الملوك من أولاده . ثم إنه وجد دفتر من دفاتر الشطب المستجدة من بعض المباشرين وذلك بعد الفحص والتفتيش فاستدل به على بعض الجهات المحتكرة .

١- بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ج١ ص٣٥٠ طبع اسطنبول.

٢- عجائب الآثار فى التراجم والأخبار لعبد الرحمن الجبرتى ج٢ ص٦ طبع بولاق.

٣- خطط مصر Description de l'Egypte ج١٨ ص٣١٩ الطبعة الثانية.

وفى خطط مصر التى وضعتها الحملة الفرنسية على مصر من سنة١٧٩٨إلى سنة ١٨٠١قال المسيو جومارا Gomara أحد العلماء الذين استقدمهم نابليون مع الحملة : أنشئ فى القاهرة منذ خمسة قرون أو ستة ، عدة مارستانات تضم الأعِلاَّء والمرضى والمجانين ، ولم يبق منها سوى مارستان واحد هو مارستان قلاوون، تجتمع فيه المجانين من الجنسين. ومارستان القاهرة هذا لايزال أكثر شهرة من مارستان دمشق، وقد كان فى الأصل مخصصاً للمجانين ثم جعل لقبول كل نوع من الأمراض ، وصرف عليه سلاطين مصر مالاً وافراً، وأفرد فيه لكل مرض قاعة خاصة وطبيب خاص، وللذكور فيه قسم منعزل عن قسم الإناث . وكان يدخله كل المرضى فقراء وأغنياء بدون تمييز، وكان يجلب إليه الأطباء من مختلف جهات الشرق ويجزل لهم العطاء ، وكانت له خزانة شراب «صيدلية» مجهزة بالأدوية والأدوات. ويقال: إن كل مريض كانت نفقاته فى كل يوم ديناراً، وكان له شخصان يقومان بخدمته. وكان المؤرقون من المرضى يعزلون فى قاعة منفردة يشنفون فيها آذانهم بسماع ألحان الموسيقى الشجية أو يتسلون باستماع القصص يلقيها عليهم القصاص . وكان المرضى الذين يستعيدون صحتهم يعزلون عن باقى المرضى ويمتعون بمشاهدة الرقص ، وكانت تمثل أمامهم الروايات المضحكة وكان يعطى لكل مريض حين خروجه من المارستان خمس قطع من الذهب، حتى لايضطر إلى الالتجاء إلى العمل الشاق فى الحال. وبنى السلطان قلاوون المدرسة التابعة للمارستان فى المكان الذى هى فيه فى الوقت الحاضر وكان يدرس فيها الطب والفقه.

وقال بريس دئفن[١] Prisse d;avennes كانت قاعات المرضى تدفأ بإحراق البخور أو تبرد بالمراوح الكبيرة الممتدة من طرف القاعة إلى الطرف الثانى، وكانت أرض القاعات تغطى بأغصان شجر الحناء أو شجر الرمان، أو شجر المصطكى أو بسعاليج الشجيرات العطرية. وكان البلسان[٢] يؤتى به من عين شمس إلى المارستان لعلاج المرضى. وقد كان يصرف من

١- Prisse d'avennes : L'Art Arabe; les monuments du caire Paris 1877 .

٢- جاء فى كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس حوادث سنة ٩١٤هـ : ومن النوادر أن البلسان وهو الذي يسمونه البلسم كان قد انقطع زريعته من أرض المطرية فى أوائل سنة ٩٠٠هـ وكانت مصر تفخر بذلك على سائر البلاد وكانت ملوك الفرنج تتغالى فى دهن هذا البلسم ويشترونه بثقله ذهبًا ولايتم عندهم التنصر حتى يضعوا من دهنه شيئًا فى ماء المعمودية وينغمسون فيه وكان يستخرج دهنه فى فصل الربيع فى برمهات . فلما انقطعت زريعته من أرض المطرية تنكر السلطان لذلك ولازال يفحص عن أمره حتى أحضر إليه بلسان برى من بعض أماكن الحجاز وهو فى طينه فزرعه فى المطرية فى مكانه المشهور به فنتج وطلع لما سقي من ماء تلك البئر التى هناك فنتج فى هذه السنة وطلع ما كان قد بطل أمره من مصر فعدّ ذلك من محاسن الملك الأشرف قانصوه الغورى.

الوقف على بعض أجواق تأتى كل يوم إلى المارستان لتسلية المرضى بالغناء أو بالعزف على الآلات الموسيقية . ولتخفيف ألم الانتظار وطول الوقت على المريض كان المؤذنون فى المسجد يؤذنون فى السحر وفى الفجر ساعتين قبل الميعاد حتى يخفف قلق المرضى الذين أضجرهم السهر وطول الوقت وقد شاهد علماء الحملة الفرنسية هذه العناية بأنفسهم . وجاء فى هذه الخطط أيضا: إن هذا البناء الذى كان فيما غبر من الأيام ملجأ مفتوحًا فى الشدائد ، قد اضمحلت حالته بعد ذلك وزالت عنه السعادة الأولى التى كان يرفل فى حلاها ، أو بعبارة أخرى كاد لايبقى منه غير ظله بسبب ظلم الترك والمماليك وإهمالهم ولاسيما تبديد أمواله.

وعندما دخله المسيو جومار كان عدد المرضى فيه خمسين أو ستين عدا المجانين وكانوا يسكنون قاعات فى الدور الأرضى مفتوحة من كل جانب ، وليس بها أسرّة أو أثاث . وكان المجانين يشغلون قسمًا آخر من البناء منقسمًا إلى قاعتين ، لكل من الزوجين قاعة خاصة . وكان عدد المجانين عشرة يسكنون حجرات مقفلة بشبابيك الحديد وفى رقابهم السلاسل ، وكان بينهم نوبيان أحدهما فتى مسرور محتبس منذ ثلاث سنين والثانى عبد للألفى بك (أحد أمراء المماليك) احتبس منذ أربعة شهور، ورجل سرىّ يعتريه الجنون فى كل شهر مرة وآخر معه زوجته الخ وكانت النساء عرايا أو أشبه بالعرايا وهذا البناء المتسع متصل بمسجد السلطان المنصور قلاوون . وقد أمر القائد العام الفرنسى رئيس الأطباء فى الحملة بزيارة المارستان وتقديم تقرير عن حالته وعن الإصلاح اللازم له فتوجه إليه المسيو ديجانت Degeanette مستصحبًا معه الشيخ عبدالله الشرقاوى وهاك ماجاء فى تقريره قال: توجهت اليوم إلى الشيخ عبدالله الشرقاوى فصحبنى إلى المارستان وربما كنت أول مسيحى وطئت قدمه أرض ذلك المكان .. فعندما دخلنا رأيت مظاهر الاحترام التى جرت العادة أن تقدم لمثل هذا الشيخ، ولكن كان يشوبها الشعور بقلق ربما كان سببه وجودى بينهم ، ثم فرش بساط جلس فوقه الشيخ ثم تكلم بكلام أدركت منه أنه يلقى عليهم موضوع مهمتى وأنه يأمرهم بمعاونتى على تأديتها.

فالمارستان مكان متسع ردئ الموضع يسع فى المتوسط مائة مريض وفيه فى الوقت الحاضر سبعة وعشرون مريضًا ، وأربعة عشر مجنونًا سبعة رجال وسبع نسوة. وفى المرضى كثير من العميان وأكثرهم مصاب بالسرطان وبعضهم أنهكته الأمراض العضالة المتروكة من غير علاج، وجميعهم من غير إسعاف سوى توزيع الغذاء عليهم وهو من الخبز والأرز والعدس وهم لايتصورون أن فى الإمكان تخفيف أوجاعهم ، وهم بتركهم هكذا تحت رحمة الأقدار لم يعرفوا قط حتى أبسط الأدوية . ويقيم المجانين فى ناحيتين منعزلتين فى إحداهما ثمانى عشرة

حجرة للرجال وفى الأخرى ثمانى عشرة للنساء. وقد رأيت الرجال مصابين بالبرد والمالنخوليا وأكثرهم مُسن ورأيت فتى فقط كان فى حالة هياج فكان يزأر كالأسد ثم انتقل فجأة إلى هدوء أعقبه ابتسام ودهشة . وحجر النساء ليست كلها محاطة بشبابيك الحديد وكانت النسوة كلهن مصفدات ولكنهن غير مثبتات فى الجدران كالرجال، وإحدى هاته النسوة وهى طاعنة فى السن تقدمت نحوى حتى وسط الحوش وهى تبكى وتطلب إحسانا وكانت الأخيرات متحجبات حتى لم يمكن أن ألحظ شيئًا من ملامحهن . ووقف الذين اصطحبونى فى كل مكان على باب هذه الدايرة وكانت امرأتان تحرسان بابها الداخلى محجبتان على الدوام ومتجهتان بوجوههما إلى الجدار أثناء زيارتى وكانت هناك فتاة صغيرة جميلة قاعدة القرفصاء ووجها وجسمها يكادان يكونان عاريين فلما لمحتنى داخلا فرحت كثيرًا وسلمت على مرارًا بحنى رأسها ووضع يديها المغلولتين فوق صدرها وكانت تتكلم بنشاط، ولكنى لم أفهم منها غير كلمة سنيور وكانت تعيدها مرارًا ولكنها غريبة عن لسانها.

ولقد شككت فى كونها مجنونة لأن ظلم الرجال كثيرًا ما زجّ بالعقلاء فى هذه المحال المحزنة.

على أن شكوك الطبيب وهو الذكى الفؤاد كان لها أساس من الصحة فقد علمنا بعد ذلك أن هذه الفتاة الشقية الحظ قد أطلق سراحها ولكن الذين زجوا بها فى هذ االمكان لم ينلهم عقاب.

وبعد أن زرت كل شئ بالعناية التامة لحقت بالشيخ الذى كان ينتظرنى بالمسجد الذى هو من البيمارستان فوجدته يصلى أمام التربة الفخمة المدفون فيها الملك الناصر محمد بن قلاوون الذى أعد هذا المكان لأيام الشدائد.

وجاء فى الخطط أيضا [١]: إنه كان للبيمارستان وقف كافٍ للصرف عليه وكانت له عدا ذلك مصادر أخرى متعددة للإيراد مثل الترياق المعمول به فى القاهرة فقد كان محتكرًا له ومخصصًا إيراده للصرف على البيمارستان.

وقال فيجرى بك[٢] : كان هذا المارستان قد أخذ فى الاضمحلال ففتحه جنتمكان [أى

١- الخطط الفرنسية ج١٨ ص٣٢٤ .

٢- كتاب حسن البراعة فى علم الزراعة ج٢ ص١٦٧ طبع سنة ١٢٨٣هـ ١٨٦٦ م بولاق.

٣- Georges Ebers : L'gypte Alexandrie et le Caire Traduction Gaston Maspero. Paris 1800 .

ساكن الجنة] الحاج محمد على باشا ورتب له مبلغا من الدراهم أيضا يصرف على الفقراء والمساكين الذين يأتون إليه.

وفى أواسط القرن التاسع عشر الميلادى زار القاهرة العالم الأثرى الألمانى جورج ايبرس Georges Ebers وكتب عن مارستان قلاوون ما ننقله هنا قال : إنه موجود فى سوق النحاسين وهم يشتغلون فى قاعاته ، ولقد تخرب ولم يبق منه سوى تربة مؤسسة يأتى إليها المرضى يزورون مخلفات السلطان بقصد الشفاء: فيمسون عمامته لشفاء أوجاع الرأس؛ وقفطانه للشفاء من الحميات المنقطعة وتجتمع الشابات من النساء والأمهات ومعهن أولادهن فتطلب الواحدة منهن فى القبلة من الله أن يرزقها ولداً ذكراً لأهمية الذكور عند الوطنيين فلاتكون المرأة سعيدة إذا لم ترزق ولداً ذكراً. فتأتى النساء أمام القبلة فينزعن اللباس عن أنفسهن ويغطين وجوههن بأيديهن ويقفزن من ناحية من نواحى القبلة إلى الناحية الأخرى بخطوة واحدة ويكررن القفز مراراً حتى ينهكهن التعب ، حتى لقد ترى بعضهن من التعب ممددة ومطروحة فوق الأرض مغمى عليها حتى تفيق من غشيتها . وكان كثير من النسوة يأتى بالأطفال الصغار حتى قبل أن تقوى على المشى أجسامهم ويطلب فك عقدة ألسنتهم. وكانت النساء تأتى بالأطفال إلى حجر أسود عريض بقرب الشباك الذى إلى اليمين وتعصر ليمونة خضراء فوق الحجر وتفرش العصارة فوق الحجر وتحكه بحجر أخر صغير حتى إذا تلون حامض الليمون باللون الوردى الناشئ من الحجر الأسود الحديدى، تحمل الأطفال على لحسه فتتألم الأطفال من حموضة الليمون، وتصيح صارخة بأصواتها، فتسر الأم لسماعها صياح طفلها وكلما علا صوته من شدة الحموضة أيقنت الأم بتمام المعجزة وشفاء ابنها وانفكاك عقدة لسانه . وللنساء اعتقاد خاص فى عمودى القبلة وجزأيهما السفليين وهما مغطيان بطبقة تجعل منظرهما سمجا بسبب عصارة الليمون.

وفى دار الآثار العربية طبق كبير من العقيق ارتفاعه عشرة سنتيمترات وقطره خمسة وأربعون سنتميترا وبه ثمانية عشر ضلعا من الخارج. وشكل الطبق ينم على كونه رومانى الأصل ربما يكون قد أهداه أحد ملوك الروم إلى السلطان الملك المنصور قلاوون أو إلى ابنه الملك الناصر محمد، وقد رجح ذلك حضرة الباحث المحقق حسين راشد أمين دار الآثار العربية. وكان هذا الطبق أولا بيمارستان قلاوون ثم نقل إلى دار الآثار حفظا له وصيانة من التلف أو الضياع لنفاسته وندورته. وأرجح أن هذا الطبق هو الذى كان يعصر فيه الليمون ويحك بحجر أخر حتى يحمر السائل ثم يرغم الطفل على لحسه . وأما قفز النسوة أمام القبلة كما ذكر إيبرس، فالراجح أيضا أن النسوة كن يضعن الطبق أمام القبلة ثم يخطون فوقه سبع مرات فكًا لعقمهن وطلبا للحبل وهذه عادة مشهورة فى مصر من تخطى أى شئ غريب جملة مرات من أجل الحبل وهذه صورة الطبق:



الشكل (١)

طبق من العقيق وجد فى بيمارستان قلاوون

وفى سنة ١٨٥٦ كان البيمارستان المنصورى قد بلغ الغاية من الاضمحلال وهجره المرضى ولم يبق به سوى المجانين ، فنقلت منه المجانين[1] إلى ورشة الجوخ ببولاق ولم يكن بهذا المحل الاستعداد اللازم لذلك وكانوا غير معتنى بهم فأنشئ مستشفى للمجانيب فى بعض السراى الحمراء التى أنشأها الخديوى إسماعيل باشا بالعباسية ثم أُحرقت وكان نقل المجانيب من ورشة الجوخ ببولاق إلى العباسية سنة ١٨٨٠م.

وقال بريس دافن الذى زار القاهرة فى ذلك العصر ووصف البيمارستان فى كتابه : إنه قد حصلت تغييرات عديدة فى أبنيته فى عصور مختلفة، ولاسيما قد نقلت المجانين منه إلى غيره من الأمكنة فقد انصرف المشرفون عليه بتأجير قاعاته للسكن فصار كأنه وكالة ، وصارت مرافقه مخازن لصناع النحاس وتجاوره وقال: إن درس هذا المارستان الكبير له أهمية عظمى فى تاريخ العمارة العربية حيث لم يبق الآن بناء مثله من عصره.

١- خطط مصر لعلى باشا مبارك ج١ ص٩٦ .

وبعد أن انتقلت المجانين من بيمارستان قلاوون إلى ورشة الجوخ ببولاق تحول حال البيمارستان، فبعد أن كان خاصاً بالمجانين عاد إلى ما كان عليه فى السابق من معالجة سائر الأمراض وكان يتولى العلاج فيه ويدير شؤونه أطباء كيفما كانوا، حتى تولى شؤونه الدكتور حسين عوف بك وكان من خيرة الأطباء المتعلمين فن الطب طبقًا للنظام العلمى الحديث. وكان الدكتور حسين عوف هذا طبيبًا كحالاً فطنًا ، فتولى علاج أمراض العيون فيه هو ثم ابنه الدكتور محمد عوف باشا مساعداً له أولاً ثم متوليًا لشؤونه من بعده . ومن هنا أخذ البيمارستان يكون خاصاً بأمراض العيون إلى اليوم .

وممن عمل فى هذا البيمارستان بعدهم الدكتور محمد بكير والدكتور محمد أمين بك . وفى سنة ١٨٩٥ عين الدكتور سعد سامح بك الطبيب الكحال مديراً للبيمارستان ورئيساً لأطبائه ثم أحيل إلى المعاش فى يناير سنة ١٩١٢، ثم خلفه فى رياسة البيمارستان الدكتور محمد شاكر بك إلى شهر مارس سنة ١٩١٥ . وفى أبريل سنة ١٩١٥ تولى رياسة البيمارستان الدكتور محمد طاهر بك إلى شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ حيث خلفه فى الرياسة الدكتور سالم هنداوى بك، ولايزال إلى الآن متوليًا رياسة المارستان وكبير أطبائه ، ويعاونه فى علاج الرمد نحو عشرة أطباء آخرون.

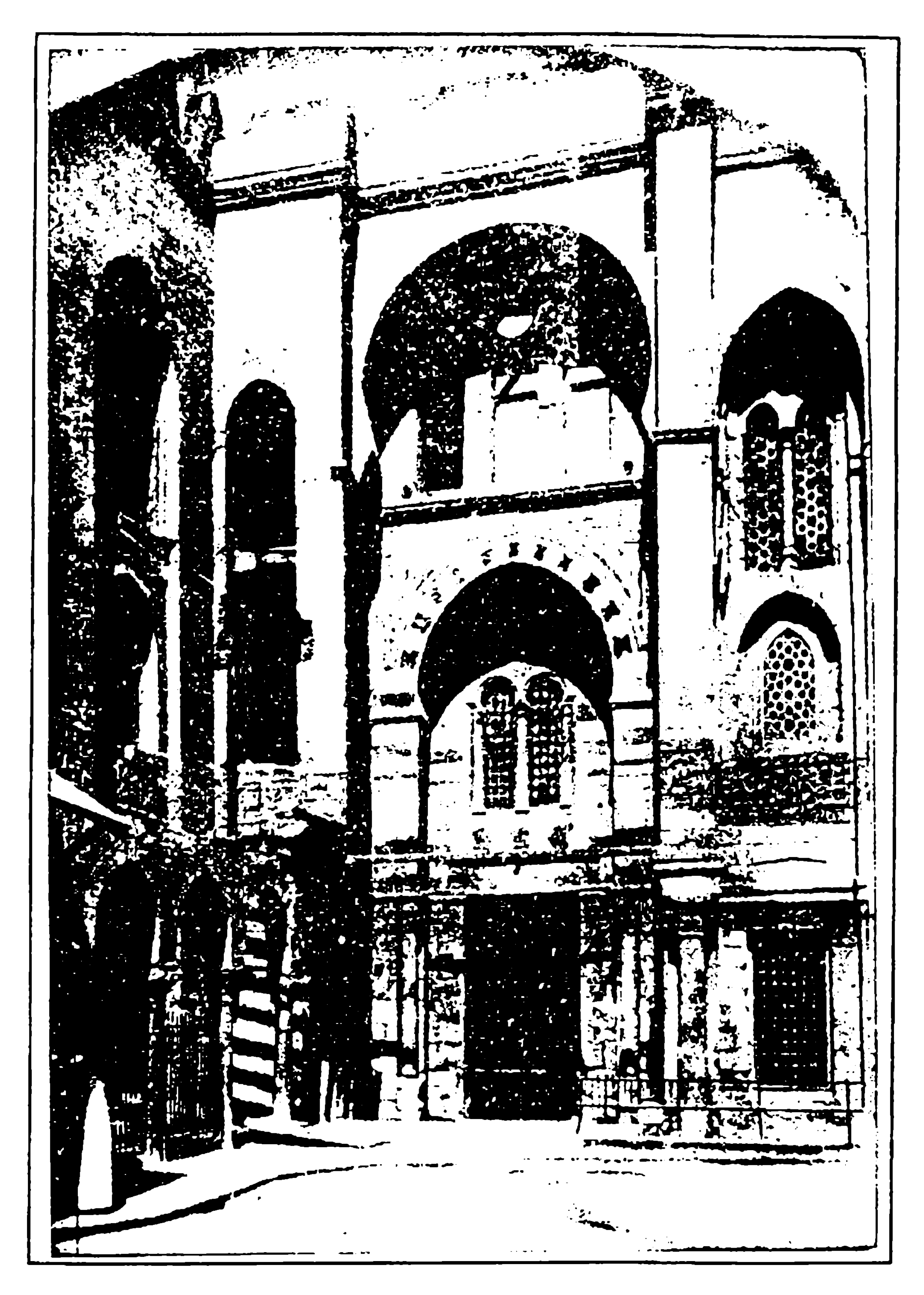
الآثار الباقية من البيمارستان المنصورى (قلاوون)

لعبت بالبيمارستان المنصورى يد الزمان ، فأصبح أثراً بعد عين وعفت آثاره، وزالت معالمه، ولم يبق منه سوى النزر اليسير من رسومه ومرافقه ، ولما كانت لجنة حفظ الآثار العربية هى المنوط بها المحافظة على مثل هذه الآثار القيمة ، والعناية بما أبقته يد التخريب رأينا أن نأتى هنا بما كتبه المؤرخ المهندس العالم مكس هرتزيك كبير مهندسى اللجنة، عن حال المارستان الحاضرة منقولاً عن محاضر جلساتها المندرجة فى مجموعتها السابعة والعشرين الصادرة فى سنة ١٩١٠م صفحة ١٤١[١] قال:

المارستان المنصورى هو من أهم عمائر الفن العربى فى مصر ولم يبق منه فى الوقت الحاضر إلا بقايا نادرة هى:

---

(1) Comité de conservation des monuments de l'art Arabe exercice 1910 dassicale 2 éme p. 141 .



شكل (٢)

الباب الكبير لبيمارستان قلاوون

١- جزء من الإيوان الشرقى وفسقية من الرخام Bassin والقاعة القبلية وبعض ألواح منقوشة فى سقف الإيوان البحرى وتدل التحلية الجبسية Ornement en Plâtre فى بعض النوافذ التى لاتزال موجودة على حالها فى الردهة الشرقية وأعمال الفسيفساء فى الفسقية، على أن زخارف المارستان لم تكن تقل نفاسة عن زخارف التربة التى هى أسلم بناء حفظ للآن من أبنية قلاوون، وتوجد فى آخر ردهة المارستان القديم مكسوتين بخطوط من الرخام الملون وقاع الفسقية مغطى بالفسيفساء الدقيقة الصنع جداً ولاتزال سليمة وهى مكونة من جزأين : فرغ مستطيل مسطح فى وسط جزء مربع مجوف . وكان الماء يأتى إلى الفسقية كما يكون فى الفساقى العمومية يخرج من جدار القاع بأنبوب ثم يجرى فوق لوح من الرخام كالسلسبيل فى الفساقى العمومية. والبناء المسند فوقه لوح الرخام لايزال قائماً.

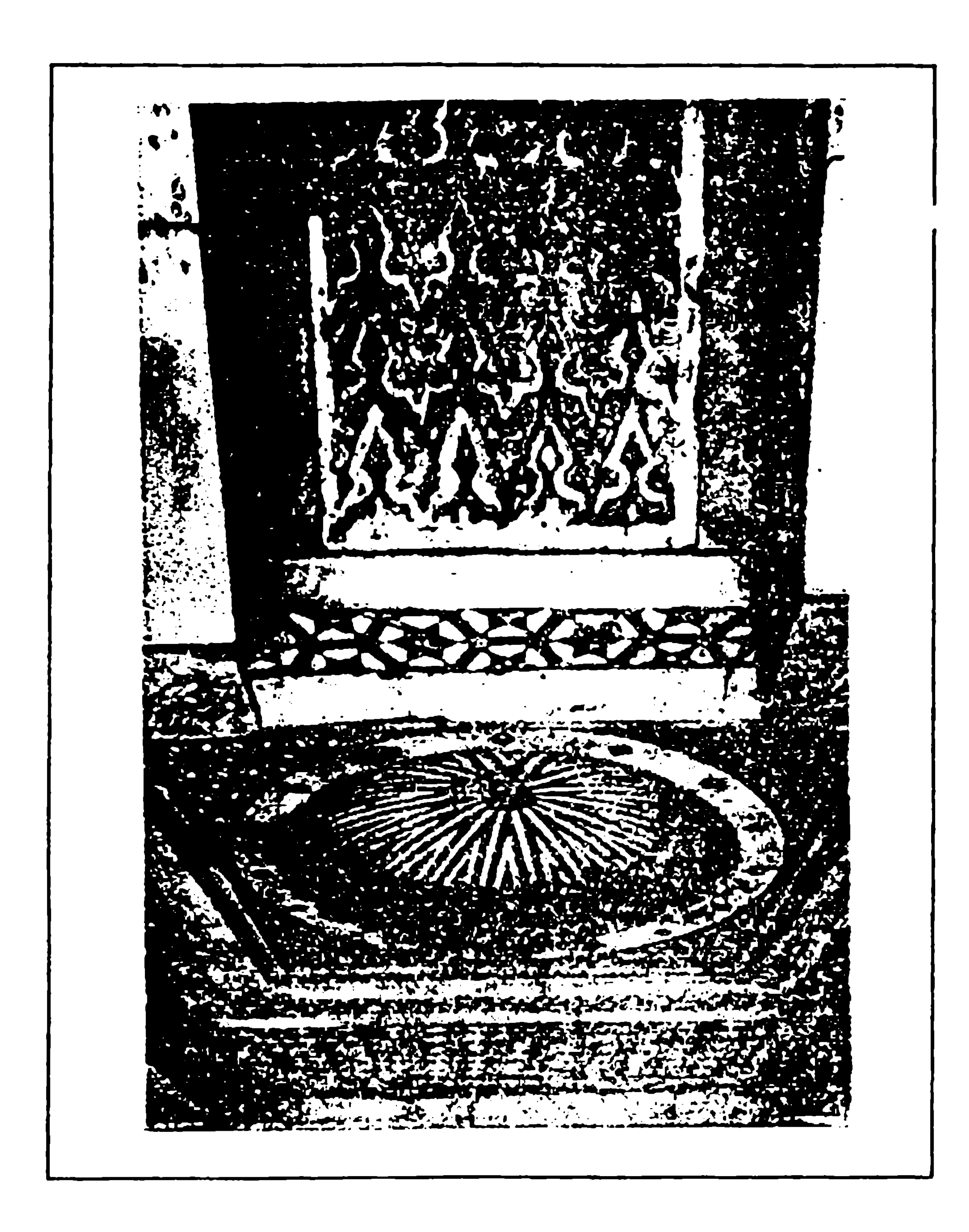
واللوحة الخامسة عشر من كتاب بسكال كوست[1] تبين صورة البيمارستان . وفى اللوحة التالية قطاع أفقى للبيمارستان مار بردهة البيمارستان التى فى وسطها الفسقية ، وقد اعتمد المؤلف على كثير من الأصول لإعادة تخطيط البيمارستان ، وعلى الأقل المعالم الكبيرة منه فعدد ٢٥ فى الرسم المذكور يدل على الردهة المسماة قاعة الناقهين من الرجال والفسقية مبيّنة فيه بعدد ٤٣ وهكذا . ويخرج من الفسقية قناة تخترق القاعة بطولها وهذا النظام يشبه مثيله فى قصر الحمراء وفى قصر زيزا.

والمظنون أن هذا النظام كان شائعاً فى القصور فى جميع البلدان الإسلامية. وقد أفاض المقريزى فى الكلام عن معلومات قيمة عن هذا البيمارستان الذى يعد أشهر مارستان فى العصور الوسطى وذكر الشاذروان Jetdéau الذى فيه والفسقية التى تعد المثل الوحيد من نوعها.

وفى سنة ١٩٠٥ صحت عزيمة لجنة حفظ الآثار العربية على الاحتفاظ بالأجزاء القديمة التالية[2]:

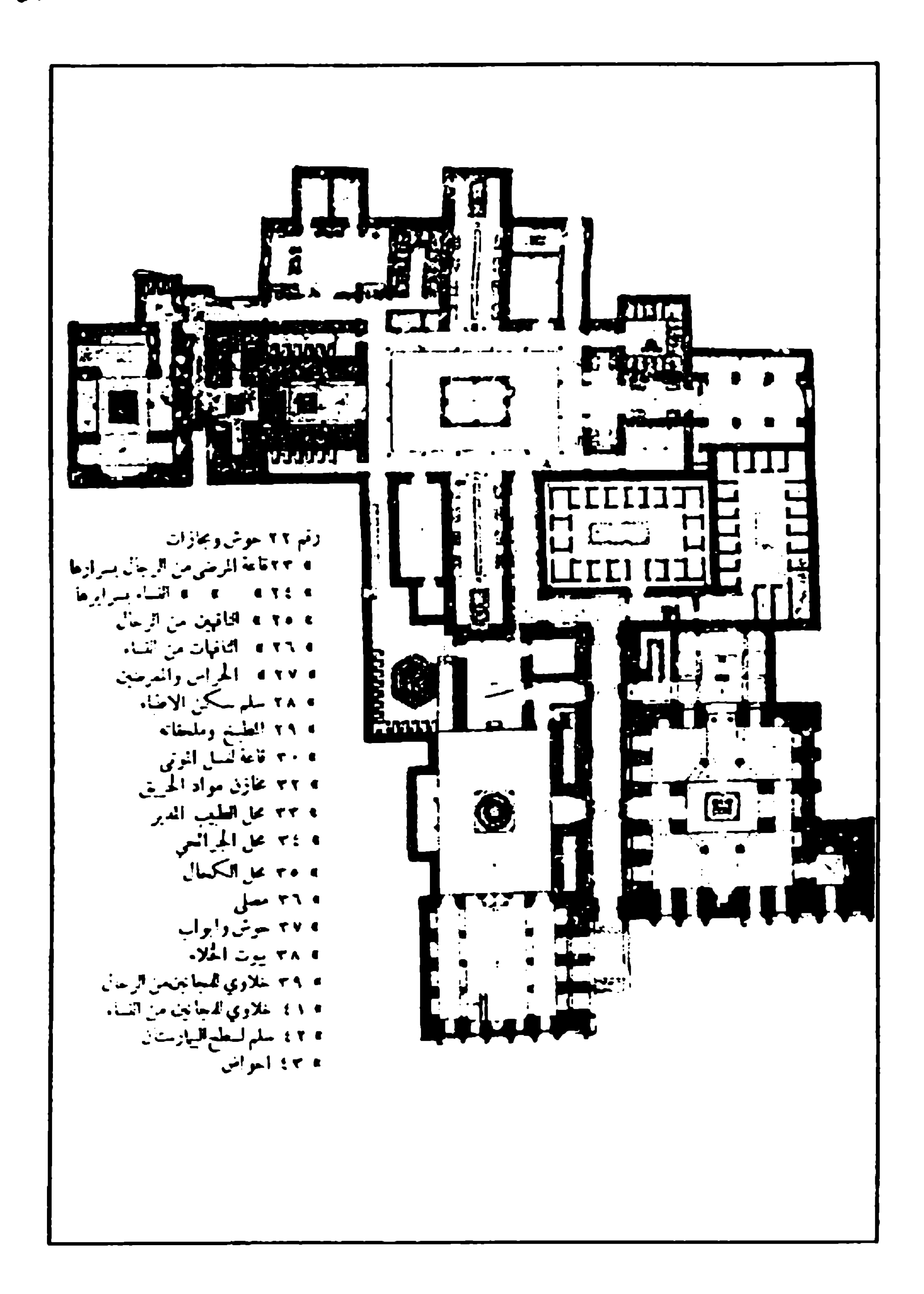
1- Coste (pascal) - Architecture arabe ou monuments du kaire mesurés et dessinés de 1818 à 1828 . Paris 1839 .

2- Rapport de la Section technique, exercice 1906 fascicule 23 éme page 7.



شكل (٣)

الفسقية والسلسبيل



شكل (٤)

تخطيط أساسات بيمارستان قلاوون نقلاً عن بكال كست

١- بقايا الإيوان الشرقى حيث توجد فيه ثلاثة منافذ بزخرفها ، ونظراً لحالة التلف القائمة بهذا الإيوان يجتهد فى حالة تعذر الاحتفاظ بأجزائه القيمة فى أماكنها فى أن تنقل إلى المتحف، وإلاّ يكتفى بعمل قوالب منها بالملاط اجتناباً لتهدمها التدريجى بفعل الزمن.

٢- قوس الإيوان الجنوبى وزخارفه الجبسية النفيسة.

٣- الإيوان الغربى ولاسيما طرف هذا الإيوان حيث توجد زخارف مغطاة بطلاء حديث.

٤- الإيوان الشمال المطل على الحوش الوسطانى: لم يحتفظ بشكله الأصلى ولايزال قوسه الكبير موجوداً، ولكن سد جزء منه للمساعدة على تثبيت ثلاث أقواس بالبناء بالحجر المنحوت، خلافا للموجود فى الإيوانات الأخرى التى هى مبنية جميعها بالطوب الأحمر . ولو أن اختلاف مادة البناء هذا ، دليل واضح على أن الإيوان الشمالى ، جدد بناؤه فإن القسم الفنى يرى مع ذلك وجوب الوصاية بالاحتفاظ به .

٥- القاعة الكبرى المربعة فى جنوب المارستان المذكورة في تقرير عدد ٢٤١ والتى تشتمل على عمد من الرخام وأقواس عنى بتشابهها بعضها لبعض وقد كشفت حديثاً بعناية كبير مهندسى اللجنة.

ويرى القسم الفنى أنه يتعذر الاحتفاظ بهذه القاعة بسبب بعدها من مجموعة الأجزاء المهمة فى هذا الأثر والتى سبق ذكرها، إلا إذا أُلحقت كما هى بالبناء الجديد للمستشفى ، وفى حالة تعذر إلحاق هذه القاعة بالبناء الجديد تنقل من مكانها الحالى ويعاد بناؤها فى حوش جامع الحاكم.

الكتابات الأثرية فى البيمارستان المنصورى

فوق الباب المعد للدخول إلى المدرسة والقبة والمارستان الكتابة الآتية:

١- أمر بإنشاء هذه القبة الشريفة المعظمة والمدرسة المباركة والبيمارستان المبارك ، مولانا السلطان الأعظم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى. وكان ابتداء عمارة ذلك فى ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة والفراغ منه فى جمادى الآخرة سنة أربع وثمانين وستمائة.



شكل (٥)

قوس الإيوان الجنوبى

«من كتاب هرتز باشا»

وعلى فخذى باب الدخول أسفل البوابة الكبرى، لوحان من الرخام ملصقان على ارتفاع مترين من الأرض على يمين الباب ويساره، سعة كل منهما ٧٠ فى ٧٠ سنتميترا ومنقوش عليهما الكتابة الآتية المركبة من سبعة سطور بالخط النسخى الملوكى والحرف الدقيق وهى كثيرة النقط قليلة الحروف اللينة وصورتهما واحدة إلا اختلافًا قليلا وهذا نصها(١):

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله، لما كان بتاريخ يوم الاثنين سابع عشر ذى الحجة سنة ٧٩١ فى نظر المقر السيفى قان تمر، عزّ نصره ، برز المرسوم الشريف السلطانى الملكى المنصورى الصالحى خلد الله ملكه، أن ينعم على مستحق ريع وقف البيمارستان المنصورى ما يخص بيت المال السلطانى من إرث من يتوفى من أرباب وظائفه ومباشريه وسكان أوقافه نعمة مستمرة على الدوام والاستمرار ، لايتغير حكمها ولايندرس رسمها ولعنة الله على من يسعى فى تبديله أو إبطاله فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه.

الأعيان التى كانت موقوفه على البيمارستان المنصورى

الأعيان التى كانت محبوسة على المارستان المنصورى كثيرة وقد تغيرت معالمها وباد الكثير منها بطول الزمن ، وتغير الدول وكثرة القلاقل والفتن ولم يبق منها إلى اليوم إلا القليل جدًا بحيث لايكفى للقيام بالصرف على المارستان كشروط واقفه . وسنذكر تلك الأعيان التى كانت موقوفة ومكان وجودها ، نقلاً عن مؤرخى ذلك العصر للدلالة على ما كان عليه المارستان من الشهرة والعظمة. ولقد يأتى الكثير من ذلك أيضًا عند ما ننقل القسم الخيرى من الوقفية الأصلية.

فمن الأوقاف بمدينة الفسطاط :

١- **قيسارية الصبانة بالفسطاط** (٢): هذه القيسارية من الأوقاف المنصورية (قلاوون) على مصالح البيمارستان المنصورى بالقاهرة .

1- Max van Berchem: materiaux pour un corpus inscriptionum arabicorum tome XIX fascicale II Egypte 1896 , p. 128 et 134 .

٢- الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق ج٤ ص٣٨ .



شكل (٦)

الإيوان القبلى من بيمارستان قلاوون

«نقلا عن ماكس هرتز»

٢- **فندق الملك السعيد بالفسطاط**(١) وهو فندق كبير يعلوه رَبْع كبير عُمِّر فى أيام الملك السعيد محمد بن بركة خان ثم ملكه قلاوون الألفى وهو اليوم (أى فى زمن المؤرخ ابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩) وقف على المارستان المنصورى وكراؤه فى كل شهر نحو الألفى درهم .

وبالقاهرة : ٣- **حمام الساباط**(٢) قال ابن عبد الظاهر: «كان فى القصر باب يعرف بباب الساباط كان الخليفة فى العيد يخرج منه إلى الميدان وهو الحرنشف (الخرنفش الآن) إلى المنْحر لتنحر فيه الضحايا ويعرف هذا الحمام فى زماننا (أى زمن المقريزى المتوفى سنة ٨٤٩هـ ١٤٤١م بحمام المارستان المنصورى وهذا الحمام هو حمام القصر الصغير الغربى ويعرف أيضًا بحمام الصُنَيْمة فلما زالت الدولة الفاطمية من القاهرة ، بيع هذا الحمام جملة مرار فلما تملكه الملك المنصور قلاوون وأنشأ المارستان الكبير المنصورى صارت فيما بعد فيما هو موقوف عليه وهى الآن من أوقافه».

٤- **قيسارية المحلى** وقيسارية الضيافة وقف المارستان المنصورى(٣) .

٥- **قيسارية الفاضل**(٤) هذه القيسارية على يمنة من يدخل من باب زويلة عرفت بالقاضى عبد الرحيم بن على البيسانى وهى الآن فى أوقاف المارستان المنصورى .

٦- **سوق القفيصات**(٥) (بصيغة الجمع والتصغير جمع قفص) فإنه كان معدًا لجلوس أناس على تخوت تجاه شبابيك القبة المنصورية وفوق تلك التخوت أقفاص صغار من حديد مشبك، فيها الطرائف من الخواتيم والفصوص وأساور النسوان وخلاخيلهن وغير ذلك وهذه الأقفاص يأخذ أجرة الأرض التى عليها مباشرة المارستان المنصورى.

٨- **سوق الكتبيين** (٦): أحدثت بعد سنة ٧٠٠ يحيط بها سوق الأمشاطيين وسوق النقليين وهما بين المدرسة الصالحية والصاغة وجميع ذلك جار فى أوقاف المارستان المنصورى.

١- الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق ج٤ ص٤٠ .

٢ - المقريزى ، ج٢ ، ص٨٠ .

٣ - المقريزى ، ج٢، ص٨٦ .

٤- المقريزى ج٢ ص٨٩ .

٥- المقريزى الخطط والآثار ج٢ ص٩٧ .

٦- المقريزى ، الخطط والآثار ج٢، ص٨٩ .

صورة من حال البيمارستان المنصورى فى بعض عصوره

بعض من تولى النظر على البيمارستان

إن السلطان قلاوون حينما أوقف البيمارستان جعل النظر عليه فى حياته لنفسه ثم لأولاده من بعده ثم من بعدهم لحاكم المسلمين الشافعى.

وسنأتى فى هذا الفصل بذكر بعض الذين تولوا النظر على البيمارستان فى عصور مختلفة من حياته، لبيان ما كان عليه البيمارستان من المكانة والعظمة ، فمن تولى النظر عليه:

١- **على بن عبد الواحد**[١] بن أحمد بن الخضر الشيخ علاء الدين الحلبى نزيل دمشق، كان شيخاً كبيراً متميزاً من رؤساء الدولة الناصرية خدم فى الجهات وولى نظر البيمارستان المنصورى وغيره وتوفى سنة ٦٩٧هـ .

٢- **محمد بن على**[٢] بن محمد بن محمد بن على بن عثمان الشيخ شمس الدين أبو عبدالله بن الفاضل نور الدين أبى الحسن البدرشى ثم القاهرى المولود بالقاهرة سنة ٧٨٨هـ اختص بجانى بك الصوفى وباشر البيمارستان فى أيامه وعلا كلامه وعظم أمره ، مات يوم الاثنين فى ١٧ شوال سنة ٨٤٦هـ .

٣- **محمود بن محمد**[٣] بن على بن عبدالله قاضى القضاة جمال الدين أبو الثناء القيصرى الرومى الأصل العجمى الحنفى ، قاضى قضاة الديار المصرية وناظر جيوشها وشيخ الشيخونية، باشر عدة وظائف كالتدريس فى الصرغتمشية وغيرها والخطابة بمدرسة السلطان برقوق ونظر البيمارستان المنصورى توفى ليلة الأحد فى ٧ ربيع الأول سنة ٧٩٩ .

٤- **على بن عبدالله** بن محمد الأمير علاء الدين بن الطبلاوى[٤] نسبة إلى قرية بالمنوفية بالوجه البحرى تسمى طبلاه ، نشأ بالقاهرة من جملة العوام إلى أن مات عمه بهاء الدين الطبلاوى وكان تاجراً بقيسارية جهاركس بالقاهرة وله مال فورثه بنو عمه على هذا وغيره، فلما صار متمولاً سعى إلى أن صار مشدَّ القصر السلطانى بقلعة الجبل، ثم ولى شدَّ

١- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى لابن تغرى بردى ج٢ ص٤٠٨ مخطوط .

٢- التبر المسبوك فى نيل السلوك للسخاوى ص٥٨ .

٣- المنهل الصافى لابن تغرى بردى.

٤- المنهل الصافى ج٢ ص٤٠٧ .

البيمارستان المنصوري ، ولا يزال يتقرب عند الملك الظاهر برقوق حتى أدخله في غالب أشغاله وصار له كلمة في الدولة ثم غضب عليه السلطان لأمور صدرت منه ثم نفي إلى الكرك وقتل بغزة سنة ٨٠٢هـ .

٥- محمد بن أحمد بن عبدالملك القاضي شمس الدين الدميري[١] الملكي ولي حسبة القاهرة في الأيام الأشرفية شعبان بن حسين ثم ولي بعد ذلك مرة، وولي نظر الأحباس ونظر البيمارستان المنصوري وقضاء العسكر على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه . ولم يزل ينتقل في الوظائف إلى أن توفي يوم الاثنين ٩ رمضان سنة ٨١٣هـ .

٦- علي بن مفلح القاضي نور الدين[٢] ناظر البيمارستان المنصوري ووكيل بيت المال بالأطباق بالقلعة وعد من رؤساء الناس وتوفي يوم الجمعة ١٢ ذي الحجة سنة ٨٤١هـ .

٧- محمد بن محمد بن محمد بدر الدين بن شمس الدين الدميري[٣] ثم القاهري، كان جده ناظر البيمارستان وولي الحسبة واستمر هذا في مشارفة المارستان ، مات في رمضان سنة ٨٤٦هـ .

٨- محمد بن محمد بدير بن الدين العباسي المعروف بالعجمي[٤] زوج أخت البدر الدميري ورفيقه في مشارفة البيمارستان مات في شوال سنة ٨٤٦هـ .

٩- في يوم الاثنين ثاني شهر ربيع الآخر سنة ٨٥٠ استقر المولوي السفطي في نظر البيمارستان المنصوري بعد عزل المحبي بن الأشقر ولبس الخلعة لذلك ، وفي يوم الخميس خامس ربيع الآخر انتقض الأمر وألبس المحبي خلعة الاستمرار في اليوم المذكور.

١٠- في يوم الأربعاء سلخ شهر ذي الحجة ٨٥١هـ طلع القاضي الشافعي[٥] إلى السلطان بأربعة عشر ألف دينار من حاصل البيمارستان ، فعرضها عليه فشكره على ذلك، وغفل عن كونه لم يعمل فيه بمراد الواقف بل حَجَّر في تنزيل المرضى وغيره وأمر بمسح دهاليزه وكنسه وعدم التمكين من المشي فيه بالنعال حتى أنشدني الشيخ أبو عبدالله الراعي لنفسه:

١- المنهل الصافي.

٢- المنهل الصافي ج٢ ص٤٥٠ .

٣- التبر المسبوك في نيل السلوك للسخاوي ص٦٠ .

٤- التبر المسبوك ص٥٩ .

٥- التبر المسبوك ص١٤٤ .

مرستانكم يشكو الخلاء وما به ... من الكنس والمسح الذى ليس ينفع

وناظره إذا جار فى حكمه له ... فيمنعه المرضى ومع ذا يجعجع

بتعميره قفراً مضيعا فياله ... خليًا من المرضى ولكن مقرقع

أواوينه مأوى الكلاب لتعجبوا ... ولا رمد فيها ولا متوجع

وبلدتنا مملوءة من مريضنا ... فلاعينه تهمى ولا القلب يخشع

يمشى مريض العين بالباب حافيًا ... فويق بلاط صار للعين يقلع

فنسأل ربى أن يفرج كربنا ... ويرحم مرضانا وذو الجور يرفع[1]

١١- فى يوم الاثنين ٣ جمادى الآخرة سنة ٨٥٤هـ خلع على الشرفى الأنصارى باستقراره فى نظر البيمارستان والخانقاه الصلاحية سعيد السعداء والجوالى والكسوة ووكالة بيت المال[2].

١٢- محمد بن أحمد بن يوسف بن حجاج القاضى ولى الدين[3] السفطى المولود سنة ٧٩٠هـ قرره السلطان فى نظر البيمارستان المنصورى سنة ٨٤٩هـ فازداد وجاهة وعزا واجتهد فى عمارته وعمارة أوقافه والحث على تنمية مستأجراته وسائر جهاته حتى الأحكار وما نسب إليه من الآثار مع التضييق على مباشريه ، والتحرى فى المريض المنزل فيه بحيث زاد على الحد وقل من المرضى فيه العدد، وتحامى الناس المجئ إليه بأنفسهم أو بمرضاتهم ، فصار بذلك مكنوسًا ممسوحًا . ومنع الناس من المشى فيه إلا حفاة وحجر فى كل ما أشرت إليه غاية التحجير فاجتمع فى الوقف بسبب هذا كله من الأموال ما يفوق الوصف وفيه نوع شبه بما سلكه الشمس محمد بن أحمد بن عبد الملك النميرى فى المارستان أيضًا ، وإن لم يبلغ حد صاحب الترجمة ولا كاد . وقد تعرض لصنيعه فى ذلك أبو عبدالله الراعى فى نظمه كما سيأتى .

١٣- فى شهر صفر من سنة ٩٠١هـ خلع على الأتابكى تمراز[4] وقرر فى نظر البيمارستان المنصورى، فتوجه إلى هناك فى موكب حافل وسلطان العصر فى ذلك الوقت الملك الأشرف أبو النصر قايتباى المحمودى الظاهرى.

١- هذا الشعر ركيك للغاية ولايكاد يكون شعراً ولكنه صورة صحيحة لذلك العصر.

٢- التبر المسبوك ص٣١٩ .

٣- التبر المسبوك ص٣٣٥ والضوء اللامع للسخاوى .

٤- بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ج٢ ص٢٩٢ .

١٤- فى شوال سنة ٩٠٨هـ خلع على معين الدين شمس[1] وقرر فى وكالة بيت المال ونظر البيمارستان المنصورى فعظم أمره جداً .

١٥- فى سنة ٩٢٣هـ فى حكم السلطان سليم المعروف بابن عثمان[2] خلع المقر السيفى ملك الأمراء خاير بك بن بلباس نائب السلطنة بالديار المصرية على الزينى بركات بن موسى وقرره مدبر المملكة وناظر الحسبة الشريفة وناظر البيمارستان المنصورى الخ ...

الثقة بالبيمارستان المنصورى

للدلالة على ما كان للبيمارستان المنصورى من الثقة فى نفوس الناس نذكر بعض الذين عولجوا به من أكابر العلماء ومشاهير الوقت منهم .

١- عثمان بن على بن عثمان بن إسماعيل بن يوسف قاضى القضاة فخر الدين المعروف بابن خطيب جبرين قاضى حلب مولده فى ربيع الآخر سنة ٦٦٢ هـ بالحسينية بالقاهرة مرض بالبيمارستان المنصورى ومات به سنة ٧٣٨هـ [3].

٢- زين الدين أبو يحيى زكريا الأنصارى رأس القضاء الشافعى توفى سنة ٩٢٦هـ بالبيمارستان بالقاهرة .

ونكتفى بهذين الاسمين خشية الإطالة.

وقفية السلطان قلاوون على البيمارستان المنصورى

من الوثائق التاريخية الثمينة التى قل أن يجود الزمان بمثلها لطول العهد واضطراب الأحوال وتغير الدول، الوقفية التى أوقفها السلطان الملك المنصور قلاوون على تربته ومدرسته وبيمارستانه . فإنها من أوثق المصادر التى يستعان بها فى تحقيق أحوال ذلك الزمان الذى وضعت فيه، ومعرفة ما بلغته مصر فيه من الرقى والمدنية ولقد كانت هذه الوقفية فى حكم الشئ المفقود . فإن المؤرخ عبد الرحمن حسن الجبرتى المتوفى سنة ١٢٤٠هـ ١٨٢٥ م قد ذكر ضمن حوادث كتابه: أن وقفية السلطان قلاوون قد احترقت فى داخل خزانة كتب البيمارستان

١- بدائع الزهور لابن إياس ج٤ ص٥٠ .

٢- بدائع الزهور ج٣ ص١٣٥ .

٣- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى.

وأن الأمير عبد الرحمن كتخدا عندما أراد تجديد البيمارستان فى سنة ١١٩٠هـ وحبس بعض الأموال عليه لم يجد كتاب وقفه .

ومن حسن الاتفاق أنه فى المدة التى تولى فيها المرحوم إبراهيم باشا نجيب إدارة ديوان الأوقاف (من ديسمبر سنة ١٩١٢ إلى ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٣) عثر فى محفوظات الديوان على وقفية السلطان قلاوون، وطلب الديوان من العلامة المرحوم أحمد زكى باشا قراءة الوقفية ، فانتهز الفرصة واستنسخ لنفسه منها نسخة للخزانة الزكية، ولم يسبق لأحد ما قبل ذلك رؤية هذه الوقفية أو معرفة ما فيها . وقد تفضل الأستاذ المرحوم أحمد زكى باشا فأعارنيها ضمن ما أعارنى من نفائس خزانته .

وهذه الوقفية هى أربع وقفيات معًا الثلاث الأوليات منها تمت فى عهد قلاوون نفسه فى ثلاث سنين متتالية وهى سنوات ٦٨٤ و ٦٨٥ و٦٨٦ ، والرابعة عملت فى عهد الأمير عبد الرحمن كتخدا من أمراء المماليك الذين حكموا مصر فى العهد العثمانى وذلك فى سنة ١١٩٠ هـ وذلك طبقًا لما ذكر فى وقفية الأمير كتخدا فقد جاء فيها فى السطر ٩٩ ما يلى : «.......... التى من جملة كتب الأوقاف المذكورة الثلاثة كتب الرق الغزال الملصقة المؤرخ أحدهم (كذا) فى ١٣ من شهر ذى الحجة الحرام ختام سنة ٦٨٤ والثانى مؤرخ فى ١٢ شهر صفر الخير، والضم والإلحاق الشرعى الملحق بذيله المؤرخ فى حادى عشر شهر صفر المذكور كلاهما سنة ٦٨٥، والثالث مؤرخ فى ٢٤ شهر رجب الفرد الحرام سنة ٦٨٦ هذا ما دلت عليه كتب الأوقاف المذكورة على الحكم المعين والمشروح بأعاليه».

وسنأتى على ديباجة الوقفية ثم على الشروط الخاصة بالبيمارستان وحده دون الخاص منها بالتربة أو المدرسة أو القبة أو المسجد ، ثم نتتبع ذلك بذكر وقفية الأمير كتخدا لما احتوت عليه من الأمور العظيمة الهامة للإنسانية .

ديباجة وقفية السلطان الملك المنصور قلاوون

هذا كتاب وقف صحيح شرعي، وحبس صريح مرضي، أمر بتسطيره وإنشائه وتحريره ، مولانا وسيدنا السلطان الأعظم السيد الأجل الملك المنصور العالم العادل ، الكافي الكافل، المؤيد المظفر ، الهمام غياث الأنام، سيف الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين ، قامع الكفرة والمشركين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين ، ملك البحرين خادم الحرمين الشريفين، أبو المظفر قلاوون الصالحي قسيم أمير المؤمنين سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والأقاليم والقلاع والحصون، خلد الله ملكه وجعل الأرض بأسرها ملكه ، وجدد له في كل يوم نصراً وملكه بساط الأرض براً وبحراً . وأشهد على نفسه الشريفة- صانها من كل محذور ، وبلغها ما تؤمله في سائر الأوقات والدهور- بما تضمنه هذا المكتوب واشتمل عليه ونسب فيه الإشهاد إليه . وهو أنه - خلد الله ملكه وسلطانه ، وأفاض على كافة الرعايا عدله وإحسانه- وقف وحبس وسبّل وحرّم وأبّد وتصدق بجميع ما هو له- خلد الله ملكه- وفي يده وملكه وتصرفه وهو جميع الرّبْع الكامل المعروف بالعلمي أرضًا وبناءً الذي هو بالقاهرة المحروسة بالقرب من قيسارية جهاركس .... الخ ما وقفه من أملاكه وتراثه ندعه ونبدأ بشروط الواقف قال :

.... أما بعد

سطر فإن أحق ما انتهزت فرص أجره العزائم، وأحرزت مواهب
بره الغنائم ، وأجدر ما تنبه لاغتنام ثوابه كل نائم، وأولى ما توجه إليه كل

٢٣ متوجه وقام إليه كل قائم، ما عادت بالخيرات عوائده ، وزادت فى

٢٤ المسرات زوائده ، واستمرت على الآباء فوائده ، واستقرت على التقوى

٢٥ بتطاول الآمال قواعده ، وهى الأوقاف العميم برها ، المقيم أجرها ،

٢٦ الجسيم وفرها ، الكريم نخرها ، فهى الحسنات التى هى أثمان

٢٧ الجنان، والقربات التى فيها رضوان الرحمن ، والصدقات التى هى مهور

٢٨ الحور الحسان ، والنفقات التى هى بحور الأجور لا اللؤلؤ والمرجان

....

٤٢ ولايخفى ما فيها من إدخال السرور على المريض الفقير، وإيصال الجبور

٤٣ إلى قلبه الكسير، وإغنائه بإيوائه ومداواته ، الذى لايعبر عن وفور

٤٤ أجرها بتعبير ، فطوبى لمن عامل مولاه العزيز الغفار ، وراقبه

٤٥ مراقبة العالم بسره ونجواه فى الإيراد والإصدار، وأقرضه أحسن القروض

٤٦ على حسب الإمكان والاقتدار، وانتهز الفرصة بالاستباق

٤٧ وأحرز باغتنام أجرها قصب السباق، فساعد الفقير المسلم على

٤٨ إزالة ألمه ، ومداواة سقمه مساعدة تنجيه غداً من عذاب ربه الخلاق

٤٩ ورجاء أن تكون له بها عند الله الرتبة العظمى ، والقربة التى لايخاف بأجرها

٥٠ ظلماً ولا هضماً ، والحسنة التى لاتبقى لذنبه غماً

٥١ ولما علم بذلك مولانا السيد الأجل

٥٢ السلطان الملك المنصور العالم العادل

٨٣ ...... فتقدم أمره الشريف ، العالى المنيف ، إلى ولى دولته، وغذى نعمته

٨٤ والمتشرف بخدمته ، والمخصوص فى هذا الوقف بوكالته، الجناب

٨٥ العالى الأمرى الأجلى الأوحدى الكبيرى المؤيدى المجاهدى المقدمى العضدى

٨٦ النصرى العزى عز الدين، عز الإسلام فخر الأنام، مقدم الجيوش نصرة
المجاهدين

٨٧ عضد الملوك والسلاطين أبى سعيد أيبك بن عبدالله الملكى الصالحى النجمى المعروف

٨٨ بالأفرم أمير جاندار الملكى المنصورى السيفى أدام الله نعمته، أن يقف عنه

٨٩ خلد الله ملكه ويحبّس ويسبّل جميع ما هو جار فى ملك مولانا السلطان الملك المنصور

٩٥ .... جميع أراضى البستان

٩٦ .... الذى ذلك بظاهر القاهرة

٩٧ خارج بابى الشعرية والفتوح غربى الجامع الظاهرى المستجد العامر

٩٨ بذكر الله

٢٦٠ على ما نص مولانا السلطان المنصور الموقوف عنه بإذنه المذكور خلد الله مملكته على بيانه

٢٦١ وذكر تعيينه ذكرًا مصدقًا خبره لعيانه ، وشرح مصارفه شرحًا يبقى على الأبد وترادف زمانه؟

٢٦٢ وبين شروطه بيانًا لاينقضى بانقضاء أوانه، من مصالح البيمارستان المبارك المنصورى المستجد

٢٦٣ إنشاؤه ، والبديع بناؤه ، والمعدوم فى الآفاق مثاله، والمشهور فى الأقطار

٢٦٤ حسن وصفه وجماله، لقد أعجز همم الملوك الأول ، وحوى كل وصف .جميل واكتمل

٢٦٥ وحدّث عنه العيان والخبر، ودل على علو الهمة فيه كالسيف دلّ على التأثير بالأثر؛

٢٦٦ من أكحال تكون فيه معدة للسبيل ، وأشربة تحلو كالسبيل، وأطباء تحضره في

٢٦٧	البكرة والأصيل ، غير ذلك مما يشفى السقيم ويبرى العليل، وفروض وأوان،
٢٦٨	وقومَة وخُدَّام ومطعوم ومشروب ومشموم مستمراً أبدا على الدوام وسيأتى بيان ذلك
٢٦٩	فيه مفصلا مبيناً ، ومشروحاً معينا. وهذا المارستان المذكور بالقاهرة المحروسة بين القصرين
٢٧٠	بخط المدارس الكاملية والصالحية والظاهرية ، رحم الله واقفيها على يمنة السالك من المدرسة
٢٧١	الكاملية إلى باب الزهومة وفنادق الطواشى شمس الخواص مسرور رحمه الله، وفندقى الحجر والفاكهة
٢٧٢	والحريريين والسقطيين والشرابشيين وغير ذلك، وإلى بسرة السالك من ذلك إلى المدرسة الكاملية والجامعي الأصغر والأنور ....
٢٧٣	ويتوصل إلى هذا المارستان المذكور من الباب الكبير المبنى بالرخام المفصوص ، المقابل لباب ٢٧٤ التربة الصالحية النجمية رحم الله واقفها المدخول منه إلى الدهليز المستطيل المسلوك منه إلى القبة المباركة التى
٢٧٥	على يمنة الداخل فيه وإلى المدرسة التى هى بالعلم الشريف معظمة
٢٩١	.... وهذا المارستان هو الذى وقفه مولانا السلطان الملك المنصور الموكل الموقوف عنه خلد الله ملكه
٢٩٣	بيمارستان لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء من الأغنياء المثرين والفقراء المحتاجين
٢٩٤	بالقاهرة ومصر وضواحيها من المقيمين بها والواردين إليها من البلاد والأعمال على اختلاف
٢٩٥	أجناسهم وأوصافهم وتباين أمراضهم وأوصابهم، من أمراض الأجسام قلت أو كثرت
٢٩٦	اتفقت أو اختلفت ، وأمراض الحواس خفيت أو ظهرت، واختلال العقول التى حفظها أعظم

٢٩٧ المقاصد والأغراض ، وأول ما يجب الإقبال عليه دون الانحراف عنه والإعراض، وغير ذلك مما تدعو

٢٩٨ حاجة الإنسان إلى صلاحه وإصلاحه بالأدوية والعقاقير المتعارفة عند أهل صناعة الطب

٢٩٩ والانشغال فيه بعلم الطب والاشتغال به، يدخلونه جموعًا ووحدانا وشيوخا وشبانا ، وبلغاء

٣٠٠ وصبيانًا ، وحرمًا وولدانا ، يقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم إلى حين برئهم وشفائهم

٣٠١ ويصرف ما هو معد فيه للمداواة، ويفرق للبعيد والقريب، والأهلى والغريب، والقوي والضعيف،

٣٠٢ والدنى والشريف، والعلى والحقير ، والغنى والفقير، والمأمور والأمير، والأعمى والبصير.

٣٠٣ والمفضول والفاضل، والمشهور والخامل والرفيع والوضيع ، والمترف والصعلوك،

٣٠٤ والمليك والمملوك، من غير اشتراط لعوض من الأعواض ، ولا تعويض بإنكار على ذلك

٣٠٥ ولا اعتراض ، بل لمحض فضل الله وطوله الجسيم، وأجره الكريم وبره العميم، لينتفع بذلك

٣٠٩ .... فقبل هذا الوكيل المذكور هذا التوكيل قبولاً صحيحًا سائغًا

٣١٠ شرعيًا ، ووقف بإذن مولانا السلطان الملك المنصور ..وكل المذكور خلد الله مملكته ، وحبس عنه

٣١٤ المارستان المستجد المنصورى المحدود أعلاه ، وعلى من يقوم بمصالح المرضى به من الأطباء والكحالين

٣١٥ والجرائحيين وطباخى الشراب والمزاور والطعوم وصانعى المعاجين والأكحال والأدوية والمسهلات

٣١٦ المفردة والمركبة ، وعلى القومة والفراشين والخزان والأمناء والمباشرين وغيرهم ممن جرت عادة أمثالهم بذلك.

٣١٧ وعلى ما يقوم بمداواة المرضى من الأطعمة والأشربة والأكحال والشيافات والمعاجين والمراهم

٣١٨ والأدهان والشربات، والأدوية المركبة ، والمفردة ، والفرش والقدور والآلات المعدة للانتفاع

٣١٩ بها فى مثله . وسيأتى ذكر ذلك مفصلا فيه مبينا مشروحا معينا، على أن الناظر فى هذا الوقف

٣٢٠ والمتولى عليه يؤّجر العقار من هذا الوقف المذكور وما شاء منه بنفسه أو بنائبه مدة ثلاث سنين

٣٢١ فما دونها بأجرة المثل فما فوقها ويؤجر الأراضى مدة ثلاث سنين فما دونها بأجرة المثل فما فوقها

٣٢٢ ولايدخل عقداً على عقد ولايؤجره لمتشرد ولا لمتعزز ، ولا لمن تخشى سطوته، ولا لمن ينسى الوقف

٣٢٣ فى يده، ويبدأ من ذلك بعمارة ما يجب عمارته فى الوقف والبيمارستان، المذكور ذلك فيه من إصلاح وترميم

٣٢٤ أو بناء هديم ، على وجه لاضرر فيه ولاضرار ولا إجحاف بأحد فى جد ولا إصرار ، وبتخير

٣٢٥ الناظر فى تحصيل ريع هذا الوقف وحسن الحال على حسب الإمكان وبطلب ذلك

٣٢٦ حيث كان فى كل جهة ومكان ، بحيث لا يُفْرط ولا يُفَرِّط ولايخرج فى سلوكه عن السنين المتوسطة

٣٧ ولايهمل حقا معينا ولايغفل عن أمر يكون صلاحه بينا، لتكون هذه الصدقة طيبة مقبوله

٣٢٨ وهذا السعى يرجو مولانا السلطان الملك المنصور- خلد الله ملكه - به من ربه قبوله

٣٢٩ فقد قال صلى الله عليه وسلم فيما ورد عنه من الأخبار الصحيحة المنقولة: «إذا مات العبد اقنطع عمله

٣٣٠ إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له» ثم ما فضل بعد ذلك

٣٣١ صرف منه الناظر ما يرى صرفه لمن يتولى إنجاز ذلك واستخراج أجرته وعمارته وصرف ريعه فى وجوهه المشترطة فيه وتفرقة أشربته وأدويته

٣٣٢ من شدّ

٣٣٣ وناظر ومشارف ومشاهد وكاتب وخازن ، ويصرف لكل منهم من ريع هذا الوقف

٣٣٤ أجرة مثله عن تصرفه في ذلك وفعله، ولا يولى الناظر في هذا الوقف يهوديا ولا

٣٣٥ نصرانيًا ولايمكنه من مباشرة شئ من هذا الوقف بل يكون المتولى مسلما ظاهر الأمانة

٣٣٦ عارفًا بأنواع الكتابة، كافيًا فيما يتولاه موصوفا بدينه ودرايته وخبرته

٣٣٧ ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف، ثمن ما تدعو

٣٣٨ حاجة المرضى إليه من سرر حديد أو خشب على ما يراه مصلحته ولحف محشوة قطنًا وطراريح محشوة

٣٣٩ بالقطن أيضا، وملاحف قطن ومخاد طرح أو أدم محشوة على ما يراه ويؤدى إليه اجتهاده وهو مخير بين

٣٤٠ أن يفصل كل نوع من ذلك ويصرف أجرة خياطته وعمله وثمن حشوه وبين أن يشترى ذلك

٣٤١ معمولا مكملا فيجعل لكل مريض من الفرش والسرر على حسب حاله وما يقتضيه مرضه عاملا فى

٣٤٢ حق كل منهم بتقوى الله وطاعته باذلا جهده وغاية نصيحته ، فهم رعيته وكل مسئول عن

٣٤٣ رعيته ويصرف الناظر فى هذا الوقف

٣٤٤ ثمن سكر يصنعه أشربة مختلفة الأنواع، ومعاجين وثمن ما يحتاج إليه لأجل ذلك من الفواكه

٣٤٥ والخماير، رسم الأشربة وثمن ما يحتاج إليه من أصناف الأدوية والمعاجين والعقاقير والمراهم

٣٤٦ والأكحال والشيافات والذرورات والأدهان والسفوفات والدرياقات والأقراص

٣٤٧ وغير ذلك يصنع كل صنف فى وقته وأوانه ، ويدخره تحت يده فى أوعية معدة له، فإذا

٣٤٨ فرغ استعمل مثله من ريع هذا الوقف ولايصرف من ذلك لأحد شيئًا إلا بقدر حاجته إليه

٣٤٩ ولايزيده عليها، وذلك بحسب الزمان، وما تدعو الحاجة إليه بحسب الفصول وأوقات الاستعمال

٣٥٠ ويقدم فى ذلك الأحوج فالأحوج من المرضى والمحتاجين والضعفاء والمنقطعين والفقراء

٣٥١ والمساكين ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف

٣٥٢ ما تدعو حاجة المرضى إليه من مشموم فى كل يوم، وزبادى فخار برسم أغذيتهم وأقداح

٣٥٣ زجاج وغرار برسم أشربتهم وكيزان وأباريق فخار وقصارى فخار

٣٥٤ وزيت للوقود عليهم ، وبماء من بحر النيل المبارك برسم شربهم وأغذيتهم

٣٥٥ و...... لأجل تغطية أغذيتهم عند صرفها عليهم وفى ثمن مراوح خوص لأجل استعمالهم إياها فى الحرّ

٣٥٦ ويصرف الناظر ثمن ذلك من ريع هذا الوقف فى غير إسراف ولا إجحاف ولازيادة على

٣٥٧ ما يحتاج إليه كل ذلك بحسب ما تدعو الحاجة لزيادة الأجر والثواب

٣٥٨ ويصرف الناظر فى هذا الوقف لرجلين مسلمين موصوفين

٣٥٩ بالديانة والأمانة يكون أحدهما خازنًا لمخزن حاصل التفرقة ، يتولى تفرقة الأشربة والأكحال والأعشاب

٣٦٠ والمعاجين والأدهان والشيافات ، المأذون له فى صرف ذلك من المباشرين، ويكون الآخر أمينًا

٣٦١ يتسلم صبيحة كل يوم وعشيته أقداح الشراب المختصة بالمرضى والمختلين من الرجال والنساء،

٣٦٢ المقيمين بهذا المارستان ، ويفرق ذلك عليهم ويباشر شرب كل منهم لما وصف له من ذلك،

٣٦٣ ويباشر المطبخ بهذا المارستان وما يطبخ به للمرضى من مزاور ودجاج وفراريج ولحم وغير ذلك،

٣٦٤ ويجعل لكل مريض ما طبخ له في كل يوم فى زبدية منفردة له من غير مشاركة مع مريض آخر ويغطيها

٣٦٥ ويوصلها إلى المريض إلى أن يتكامل إطعامهم ويستوفى كل منهم غذاءه وعشاءه وما وصف له

٣٦٦ بكرة وعشية . ويصرف الناظر لكل منهما من ريع هذا الوقف ما يرى صرفه إليه من غير حيف

٣٦٧ ولا شطط . وللناظر الشهادة عليها فى العدة إذا لم يكفيا ما اشترط عليهما مباشرته ويصرف

٣٦٨ له أجرة مثله من ريع هذا الوقف ويصرف الناظر

٣٦٩ من ريع هذا الوقف لمن ينصبه بهذا المارستان من الأطباء المسلمين الطبائعيين والكحالين والجرائحيين

٣٧٠ بحسب ما يقتضيه الزمان وحاجة المرضى وهو مخير فى العدة وتقرير الجامكيات ما لم يكن فى ذلك

٣٧١ حيف ولا شطط يباشرون المرضى والمختلين الرجال والنساء بهذا المارستان مجتمعين ومتناوبين

٣٧٢ باتفاقهم على التناوب ، أو بإذن الناظر فى التناوب، ويسألون عن أحوالهم وما

٣٧٣ يتجدد لكل منهم من زيادة مرض أو نقص ويكتبون بما يصلح لكل مريض من شراب وغذاء وغيره،

٣٧٤ فى دستور ورق ليصرف على حكمه، ويلتزمون المبيت فى كل ليلة بالبيمارستان مجتمعين أو متناوبين

٣٧٥ ويجلس الأطباء الكحالون لمداواة أعين الرمداء[1] بهذا المارستان ولمداواة من يرد إليهم به

٣٧٦ من المسلمين بحيث لايرد أحد من المسلمين الرمداء من مداواة عينيه بكرة كل يوم ويباشرون المداواة

٣٧٧ ويتلطفون فيها ويرفقون بالرمداء فى ملاطفتهم وإن كان بينهم من به قروح أو أمراض فى عينه تقتضى

٣٧٨ مراجعة الكحال للطبيب الطبائعى، راجعه وأحضره معه وباشر معه من غير انفراد عنه ويراجعه فى

٣٧٩ أحوال بُرئه وشفائه ويصرف الناظر فى

٣٨٠ هذا الوقف لمن ينصبه شيخًا للاشتغال عليه بعلم الطب على اختلافه يجلس بالمسطبة الكبرى المعينة له

٣٨١ فى كتاب الوقف المشار إليه للاشتغال بعلم الطب فى اختلاف أوضاعه فى الأوقات التى يعينها له .

٣٨٢ الناظر ما يرى صرفه إليه وليكن جملة أطباء البيمارستان المبارك من غير زيادة عن العدد

١- لم نجد هذا الجمع فى كتب اللغة فأبقيناه على حاله كما فعلنا فى غيره من الأغلاط والكلمات العامية الواردة فى نصوص الوقف أو غيرها من النقول.

٣٨٣ ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف للقومة والفراشين

٣٨٤ الرجال والنساء بهذا البيمارستان ما يرى صرفه إلى كل بحسب عمله على أن كلاً منهم يقوم بخدمة المرضى

٣٨٥ والمختلين الرجال والنساء بهذا البيمارستان ويغسل ثيابهم وتنظيف أماكنهم وإصلاح شؤونهم

٣٨٦ والقيام بمصالحهم على ما يراه من العدة والتقرير بحيث لايزيد فى العدة ولا فى المقادير على الحاجة إليه

٣٨٧ فى ذلك بحسب الزمان والمكان ويصرف الناظر

٣٨٨ ما تدعو الحاجة إليه فى تكفين من يموت بهذا المارستان من المرضى والمختلين الرجال والنساء، فيصرف

٣٨٩ ما يحتاج إليه برسم غسله وثمن كفنه وحنوطه وأجرة غاسله وحافر قبره ومواراته فى قبره على السنة

٣٩٠ النبوية والحالة المرضية، ومن كان مريضًا فى بيته وهو فقير كان للناظر أن يصرف إليه ما يحتاج إليه

٣٩١ من حاصل هذا المارستان من الأشربة والأدوية والمعاجين وغيرها مع عدم التضييق فى الصرف

٣٩٢ على من هو مقيم به، فإن مات بين أهله صرف إليه الناظر

٣٩٣ فى موته بتجهيزه وتغسيله وتكفينه وحمله إلى مدفنه ومواراته فى قبره ما يليق بين أهله . وليس للناظر

٣٩٤ فى هذا الوقف أن ينزل بهذا المارستان من المرضى ولا من المختلين ولا من الأطباء ولا من المباشرين

٣٩٥ ولا من أرباب الوظائف بهذا المارستان يهوديًا ولانصرانيًا فإن فعل شيئًا من ذلك أو أذن فيه

٣٩٦ ففعله مردود وإذنه فيه غير معمول به، وقد باء بسخطه وإثمه. ومن حصل له الشفا والعافية

٣٩٧ ممن هو مقيم بهذا المارستان المبارك صرف الناظر إليه من ريع هذا الوقف المذكور كسوة مثله

٣٩٨ على العادة ، بحسب الحال من غير زيادة تقتضى التضييق على المرضى والقيام بمصالحهم ، كل ذلك على ما

٣٩٩ يراه الناظر ويؤدى إليه اجتهاده بحسب ما تدعو إليه الحاجة ويحصل منه مزيد الأجور لمولانا

٤٠٠ السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين، أعز الله به الدين وأمتع ببقائه الإسلام والمسلمين

٤٠١ فإن نقص ريع الوقف المذكور عن استيعاب المصارف المذكورة أعلاه ، قدم الناظر صرف

٤٠٢ الأهم فالأهم من ذلك، من الأطعمة والأشربة والأدوية والسفوفات والمعاجين ومداواة

٤٠٣ الرمد، وتقديم الأحوج فالأحوج بحسب ما تقضيه المصلحة وزيادة الأجور والثواب.

٤٠٤ وعلى الناظر فى هذا الوقت* أن يراعى تقوى الله سبحانه وتعالى سراً وجهراً، ولايقدم صاحب جاه على

٤٠٥ ضعيف ولا قوياً على ماهو أضعف منه ولا متأهلاً على غريبه بل يقدم فى الصرف إليه

٤٠٦ زيادة الأجور والثواب والتقرب إلى رب الأرباب، فإن تعذر الصرف والعياذ بالله تعالى**

٤٠٧ إلى الجهات المذكورة أو إلى شئ منها كان ذلك مصروفاً إلى الفقراء والمساكين من المسلمين أينما كانوا

٤٠٨ وحيث ما وجدوا وجعل هذا الجناب العالى الأميرى

٤٠٩ العزى الوكيل الوكيل الواقف بإذن موكله مولانا السيد الأجل السلطان الملك المنصور

---

* تمييز الكلمات من عندى «المحرر»

** لعلها «الوقف» «المحرر»

٤١٢	.... ثم من بعده رزقه الله أطول الأعمار وملكه سائر النواحى والأقطار للأمثل فالأمثل
٤١٣	.... من أولاده وأولاد أولاده ، وإن سفلوا ثم للأمثل فالأمثل من عتقاء مولانا السلطان
٤١٤	الملك المنصور المسمى أعز الله أنصاره وإذا انقرضوا كان النظر فى ذلك لحاكم المسلمين الشافعى
٤١٥	المذهب بالقاهرة ومصر المحروسة ، ثم من بعده لمن يوجد من حكام المسلمين يوم ذلك على اختلاف مذاهبهم

....

٤٢٤	وصار جميع ما وصف وحدد بعاليه وقفًا محرمًا بحرمات الله الأكيدة التى هى أجمع للتحريم ، فلايحل
٤٢٥	لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر ويعلم أنه إلى ربه الكريم صائر من سلطان أو وزير ، أو مشير أو قاضى
٤٢٦	أو محتسب أو وكيل بيت مال، أو أمير أو آمر ، نقض هذا الوقف ولانقض شئ منه ولاتعطيله ولافسخه .
٤٢٧	ولاتحويله ولا السعى فى إبطال شئ منه ولا الاعتراض إليه ولا إخراجه عن سبيله
٤٢٨	فمن فعل ذلك أو أعان عليه أو سعى فيه ....
٤٣٧	.... وقعت
٤٣٨	الشهادة عليه بعد قراءته بتاريخ اليوم المبارك يوم الثلاثاء الثانى عشر من شهر صفر المبارك
٤٣٩	من شهور سنة خمس وثمانين وستمائة، الله يقضيها بخير وحسبنا الله ونعم الوكيل

الشهود (وهم ثمانية)

.... وبذلك أشهد .... وبذلك أشهد

يوسف بن سليمان محمد بن محمد .... محمد بن عبد العزيز بن أحمد

ابن عمر بن اللهب؟

.... وبذلك أشهد .... وبذلك أشهد

محمد بن محمد بن عبد العزيز بن رشيق عيسى بن عمر بن خالد بن

عبد المحسن الشافعى

اسماعيل بن الحسن الأنصارى) (محمد بن محمد بن محمد البكرى

الحسينى

على عبد العزيز بن على

وقفية الأمير عبد الرحمن كتخدا

هى إعلام شرعى صادر من مجلس الشرع الشريف إلى الأمير عبد الرحمن كتخدا بتثبيته ناظراً على وقف السلطان المنصور قلاوون وهو الذى ذكر الجبرتى أنه جدد عمارة المارستان المنصورى وأراد أن يحتاط بجهات وقفه . ومن هذا الإعلام تعلم تمام العلم الحال التى كان عليها المارستان فى ذلك العصر من نظام وترتيب فى الإدارة والعلاج، وهو من دواعى الاغتباط لمصر، وها هو ذا الإعلام(١)

سيد الملوك والسلاطين إسكندر صاحب

١٠ القرآن مولانا السلطان الملك المنصور أبو المظفر قلاوون الصالحى قسيم أمير المؤمنين

وسلطان الديار المصرية، كان تغمده الله بالرحمة والرضوان وأسكنه أعلى فراديس الجنان وقف وحبّس وسبّل

١١ وأبّد وأكد وخلد وتصدق بجميع القبة العظمى وجميع المدرسة المباركة وجميع المارستان بصدر الدهليز الجامع لذلك، ومكتب السبيل علو باب القيسارية المستجدة والصهريج بداخل

١٢ البيمارستان المرقوم ، وما يتبع ذلك من الرجال والنساء، وأواوين الضعفاء والمرضى ، وفساقى المياه وبيوت الأخلية وغير ذلك ....

١٥ وجميع الأماكن والحوانيت والحواصل والخزائن والربوعة والطباق والعقارات الكائنة بمصر المحروسة بالخط المذكور

١٦ والأطيان التابعة لذلك، المرصد ذلك جميعه على مصالح القبة والمدرسة والبيمارستان والمكتب والصهريج المذكورين أعلاه ، المشمول ذلك جميعه وما ألحق به من قبل مولانا السلطان الأشرف برسباى والمرحومة جانم

١- أثبتناه بالحرف ولم نصلح من لغته شيئاً.

١٧ عتيقة الجمالى يوسف زوجة بشتك الداوادار الخازندار مولانا السلطان الموصى إليه، وما أنجز لجهة وقف مولانا السلطان الموصى إليه من الأوقاف التابعة لذلك على الحاكم المعين باستيمار الوقف بنظر وتحدث

١٨ فخر الأكابر والأعيان الجناب المكرم الأمير عبد الرحمن كتخدا بن المرحوم الأمير حسن كتخدا طائفة مستحفظان القاز دغلى بمصر كان بموجب تقريره فى ذلك من قبل مولانا شيخ الإسلام المشار إليه أعلاه المؤرخ فى شهر

١٩ ذى الحجة الحرام ختام سنة أربع وسبعين ومائة وألف (١١٧٤) المرتب على الفرمان الشريف الواجب القبول والتشريف من حضرة الوزير المعظم والدستور المكرم والمشير المفخم مولانا أحمد باشا محافظ الديار المصرية

٢٠ دامت سعادته السنية المؤرخ فى شهر ذى الحجة المذكور سنة ١١٧٤ المذكور وقفًا صحيحًا شرعيًا على ما يبين فيه : فلما القبة المذكورة فإنه وقف رواقها

٢٣ .... وأما الخزاين التى بالقبة المذكورة فإنه وقفها لحفظ الكتب..........

٢٥ وأما المدرسة المباركة .... فإنه وقفها على الفقهاء والمتفقهة على مذاهب الأئمة الأربعة ....

٣٢ .... وأما البيمارستان المذكور المستجد من قبل مولانا السلطان المشار إليه ....

٢٤ **................ فإنه وقف ذلك بيمارستانا لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء والأغنياء والفقراء بالقاهرة ومصر وضواحيها من المقيمين بهما والواردين إليهما ، من البلاد والأعمال على اختلاف أجناسهم وأوصافهم وسائر أمراضهم ، من أمراض الأجسام قلت أو كثرت اتفقت أو اختلفت ، وأمراض الحواس خفت أو ظهرت ***

٣٦ واختلال العقول التى حفظها أعظم المقاصد والأغراض، وأول ما يجب الإقبال

---

* تمييز الكلمات من عندى «المحرر»

على ذوى الانحراف عنه والإعراض، وغير ذلك مما تدعو حاجة الإنسان إلى
صلاحه وإصلاحه بالأدوية والعقاقير

٣٧ المتعارفة عن أهل صناعة الطب والاشتغال فيه بعلم الطب والاشتغال به،
ويدخلونه جموعا ووحدانا وشيوخا وشبابا وبُلاغًا وصبيانًا وحرما وولدانا تقيم
المرضى الفقراء من الرجال

٣٨ **والنساء لمداواتهم إلى حين برئهم وشفائهم ويصرف ما هو معين فيه للمداواة**
ويفرق على البعيد والقريب ، والأهل والغريب والقوى والضعيف ، والدانى
والشريف ، والحقير والغنى والفقير

٣٩ **والمأمور والأمير، والأعمى والبصير ، والمفضول والفاضل، والمشهول والخامل،**
والرفيع والوضيع ، والمترف والصعلوك والمليك والمملوك من غير اشتراط
لعوض من الأعواض ، ولاتعريض بإنكار

٤٠ على ذلك ولا اعتراض ، بل لمحض فضل الله العظيم .... على أن تكون

٤١ المسطبة الكبرى التى بالبيمارستان المرقوم مرصدة ، لجلوس مدرس من
الحكماء الأطباء عارفًا بالطب وأوضاعه متبحرًا فى فضله لكثرة عمله واطلاعه
عالمًا بأسباب الأمراض وعلاجاتها، ولجلوس المشتغلين

٤٢ بعلم الطب على اختلافه . وتكون المسطبة المقابلة لها مرصدة لجلوس
المستخدمين والمباشرين لإدارة البيمارستان المرقوم وتكون القاعة التى على
يمنة باب الدخول للبيمارستان المرقوم مرصدة *

٤٣ لحفظ ما يفرق من حواصل البيمارستان المذكور من أشربة وأكحال وأدوية
مفردة ومركبة ، معاجين وأدهان وبرياقات ومراهم وشيافات وغير ذلك . وتكون
القاعة المتوصل إليها من الباب الثالث

٤٤ مرصدة لإقامة الرمداء من الرجال الفقراء أو لمن يرى الناظر إقامته بها من
المرضى . ويكون المخزن الكبير المتوصل إليه من الباب السادس مرصدًا
لحفظ الأعشاب ، وتكون القاعة المتوصل إليها من الباب

٤٥ السابع برسم إقامة المرضى الفقراء الرجال المسهولين، وتكون المسطبة

الكبرى المتوصل إليها من الدهليز الذى بذوله باب المطبخ برسم إقامة المجروحات والمكسورات من النساء، وتكون القاعات الثلاث

٤٦ الباقيات من البيمارستان المذكور المتوصل إلى ذلك من الدهليز المتوصل منه إلى المطبخ المرصد لطبخ الأشربة وإلى المخزنين بجوار المرصدين لحفظ حواصل المطبخ مرصدان برسم إقامة المريضات الفقيرات

٤٧ من النساء وعلو ذلك برسم إقامة من يخدمهن من النساء وباقى بيوت قاعة البيمارستان المرقوم مرصدة لحواصل البيمارستان المرقوم ولإقامة من يرى الناظر إقامته بها من المرضى الفقراء الرجال

٤٨ والنساء وتكون القاعة المرصدة لإقامة المختلين من الرجال برسم إقامة كل من يرد إليها من المختلين الرجال ، وكذلك القاعة المجاورة لها فإنها مرصدة برسم المختلات من النساء ، وأذن مولانا

٤٩ السلطان المشار إليه أعلاه فى الإنشاء على سطح بيوت المختلين من الرجال والنساء مساكن برسم القومة والخدام بالبيمارستان المرقوم. وتكون أواوين قاعة البيمارستان المرقوم برسم

٥٠ إقامة المرضى الفقراء الرجال دون النساء على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم وعلى الأطباء المرتبين بالبيمارستان المرقوم والكحالين والجرائحيين مباشرة المرضى بالبيمارستان الرجال والنساء مريضاً بعد

٥١ مريض بحيث يستوعبون جميع المرضى بالمباشرة فى كل يوم بكرة وعشية ، وعلى كل من القومة والفراشين بالبيمارستان المرقوم أن يتعاهد المرضى ويقوم بما يحتاج إليه من غسل ثيابه وتنظيف

٥٢ مكانه وإصلاح شأنه وحك رجليه والقيام بمصالحه ، والاهتمام بشرابه وغذائه وترتيب المشموم له على العادة بحسب ما تدعو الحاجة إليه ولايشرك مريضاً مع مريض آخر فى شراب ولا فى غذا ويتقى الله

٥٣ سبحانه وتعالى فى خدمتهم ويراقب ربه جل جلاله فى ملاطفتهم ويجتهد فى إتمامه عندهم ....

٦٩ .... ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف المذكور على مصالح

البيمارستان المرقوم من أكحال تكون فيه معدة للسبيل

٧٠ وأشربة تحلو كالسلسبيل ، وأطباء تحضره فى البكرة والأصيل، وغير ذلك مما يشفى السقيم ويبرى العليل وفروض وأوان وقومة وخدام ومطعوم ومشروب ومشموم مستمراً أبداً على الدوام

٧١ وعلى من يقوم لمصالح المرضى به من الأطباء والكحالين والجرائحيين وطباخى الشراب والطعوم وصانعى المعاجين والأكحال والأشربة

٧٢ والمسهلات المفردة والمركبة ، وعلى القومة والفراشين والخزان والأمناء والمباشرين وغيرهم ممن عادة أمثالهم فى ذلك ، وعلى من يقوم بمداواة المرضى من الأطعمة والأشربة والأكحال

٧٣ والشيافات والمعاجين والمراهم والأدهان والشربات والأدوية المركبة والمفردة والفرش والقدور والآلات المعدة للانتفاع بها فى مثله ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف

٧٤ المذكور ثمن ما تدعو حاجة المرضى إليه من سرير حديد أو خشب على ما يراه مصلحته ولحف محشوة قطنا وطراريح محشوة بالقطن أيضاً وملاحف قطن ومخاد وطرح أو أدم محشوة على ما يراه

٧٥ الناظر ويؤدى إليه اجتهاده وهو مخير بين أن يفصل كل نوع من ذلك ويصرف أجرة خياطته وعمله وثمن حشوه وبين أن يشترى ذلك معمولا مكملا ويجعل لكل مريض من الفرش والسرر

٧٦ على حسب حاله وما يقتضيه مرضه عاملا فى حق كل منهم بتقوى الله ... ويصرف الناظر من ربع هذا الوقف

٧٧ المذكور ثمن سكر يصنعه أشربة مختلفة الأنواع ومعاجين وثمن ما يحتاج إليه لأجل ذلك من الفواكه والخماير وبرسم الأشربة وثمن ما يحتاج إليه من أصناف الأدوية والعقاقير والمعاجين

٧٨ والمراهم والأكحال والشيافات والذرورات والأدهان والسفوفات والدرياقات والأقراص وغير ذلك ، يصنع كل صنف فى وقته ويدخره تحت يده فى أوعية معدة له فإذا

٧٩	فرغ استعمل مثله من ريع هذا الوقف ولايصرف من ذلك لأحد شيئا إلا بقدر حاجته إليه ... ويقدم
٨٠	من ذلك الأحوج ، فالأحوج من المرضى والمحتاجين والضعفاء والمنقطعين والفقراء والمساكين . ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف المذكور ما تدعو حاجة المرضى إليه من مشموم فى كل يوم
٨١	وزبادى فخار برسم أغذيتهم وأقداح زجاج برسم أشربتهم وكيزان وأباريق فخار وشيرج وقناديل وزيت للوقود عليهم، وماء من بحر النيل المبارك برسم شربهم ومكبات خوص
٨٢	**لأجل أغطية أغذيتهم عند صرفها عليهم ، وفى ثمن مراوح خوص لأجل استعمالهم إياها فى الحر وغير ذلك** *
٨٣	.... ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف المذكور لرجلين أحدهما خازن بمخزن حاصل التفرقة بغرف الأشربه والأكحال
٨٤	والأعشاب ، والمعاجين والأدهان والشيافات ، والآخر يتسلم صبيحة كل يوم وعشيته أقداح الشراب المختصة بالمرضى والمختلين من الرجال والنساء ويفرق عليهم ذلك ويباشر
٨٥	شرب كل منهم لما وصف له من ذلك ويباشر البيمارستان وما يطبخ به للمرضى من فراور ودجاج وفراريج ولحم وغير ذلك ويجعل لكل مريض ما يطبخ له فى كل يوم فى زبدية منفردة
٨٦	من غير مشاركته مع مريض آخر ويغطيها فيوصلها له إلي أن يتكامل إطعامهم ويستوفى كل منهم غداء وعشاء وما وصف له بكرة وعشية
٨٧	.... وللناظر أن ينصب من الأطباء
٨٨	المسلمين الطبائعيين والكحالين والجرائحيين بحسب ما تقتضيه الزيادة وحاجة المرضى ، وهو مخير فى العدة وتقدير الجامكيات بالترتيب فى ذلك ، يباشرون المرضى والمختلين مجتمعين
٨٩	أو متناوبين باتفاقهم على التناوب ، ويسألون عن أحوالهم وما يتجدد لكل منهم من زيادة مرض ويكتبون ما يصلح لكل مريض من شراب وغذا وغير ذلك فى دستور ورق ليصرف

---

* تمييز الكلمات من عندى «المحرر»

٩٠	على حكمه ويلتزمون المبيت فى كل ليلة بالبيمارستان وتجلس الأطباء الكحالون لمداواة أعين الرمداء بالبيمارستان ومن يرد إليهم ويتلطفون بهم [وإن احتاجوا الأطباء من
٩١	الطبائعين إلى مراجعة الكحال يراجعوه ويحضره يباشر معهم][1] ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف المذكور للقومة والفراشين للرجال والنساء فى نظير القيام بهم وتغسيل ثيابهم
٩٢	.... ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف المذكور ما تدعو الحاجة إليه من تكفين من يموت من المرضى
٩٣	والمختلين وما يحتاج إليه برسم غسله وتكفينه وحنوطه وأجرة غاسلة وحافر قبره ومواراته فى قبره على السنة النبوية ..... ومن كان مريضا فى بيته وهو فقير
٩٤	كان للناظر أن يصرف ما يحتاج إليه من حاصل هذا البيمارستان والأشربة والأدوية والمعاجين وغيرها مع عدم التضييق فى الصرف على من هو مقيم به، ومن حصل له الشفاء والعافية
٩٥	ممن هو مقيم به يصرف له الشفاء والعافية
٩٦	ممن هو مقيم به يصرف له كسوة مثله على العادة بحسب الحال
٩٧	.... ذلك جميعه مُعَيّن
٩٨	ومبين ومفصل ومشروح بكتب الأوقاف الصحيحة الشرعية
٩٩	.... من جملة كتب الأوقاف المذكورة (الثلاثة كتب الرق الغزال الملصق المؤرخ أحـــدهم)[2] فى ثالث وعشرين شهر ذى الحجة الحرام سنة ٦٨٤ والثانى مؤرخ فى ثانى عشر شهر صفر الخير .... سنة ٦٨٥ والثالث مؤرخ فى رابع وعشرين شهر رجب الفرد سنة ٦٨٦ هذا ما دلت كتب الأوقاف ....
١٠٠	من المرتبات والخيرات على الوجه المسطور طلب الأمير عبد الرحمن كتخدا
١٠١	الناظر
١٠٢	.... وقع التحرير فى اليوم المبارك الموافق لثامن شهر محرم الحرام افتتاح سنة ١١٧٥ من هجرة من له كمال العز ومزيد الشرف صلى الله عليه وعلى
١١٠	آله وصحبه وسلم .

(١) ، (٢) كذا فى الأصل .

الأطباء الذين عملوا بالبيمارستان المنصورى على طول العصور

الأطباء الذين عملوا بالبيمارستان المنصورى من عهد إنشائه إلى يومنا هذا كثيرون، فإن هذا البيمارستان لم ينقطع يومًا عن تأدية الوظيفة التى أنشئ من أجلها وهى علاج المرضى، غير أن استقصاء جميعهم غير ميسور لأن أسماءهم ضاعت مع الزمن ، وإنّ القليل منهم من ترجم فى كتاب، والتراجم الموجودة مشتتة فى بطون الكتب على اختلاف أنواعها من كتب أدب وتاريخ وتراجم عامة أو خاصة . وسننشر فى هذا الفصل بعض الذين وقعت لنا تراجمهم والكتب المنقولة عنها مرتبة بحسب الزمن، حتى يلم القارئ بشئ من أحوال البيمارستان على طول سنيه، ومن أحوال الطب والأطباء فى تلك العصور فمنهم:

١- أحمد بن يوسف بن هلال بن أبى البركات شهاب الدين الصفدى(١) الطبيب . ولد سنة ٦٦١ ثم قدم إلى صفد ونشأ بها ثم انتقل إلى القاهرة وخدم فى جملة أطباء السلطان وبالبيمارستان المنصورى. وكان بارعًا فى الطب وله قدرة على وصف الشجرات توفى سنة ٧٣٧هـ.

٢- الشيخ ركن الدين بن القويع هو ركن الدين أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الجليل الجعفرى التونسى: ولد بتونس سنة ٦٦٤ فى رمضان وأخذ عن جماعة وصار يجيد كل ما يعرفه من أصول وحديث وفقه وأدب ولغة ونحو وعروض وأسماء رجال وشعر يحفظه عن العرب والمولدين والمتأخرين وطب ، وحكمة ومعرفة الخطوط. قدم مصر فى سنة ٦٩٠ وتولى نيابة الحكم للقاضى المالكى بالقاهرة مدة ثم تركها تُدينا منه وقال: «يتعذر فيها براءة الذمة» وكان يدرس فى المنكتمرية بالقاهرة ويدرس الطب بالبيمارستان المنصورى . ينام أول الليل ثم يستفيق وقد أخذ راحته ويتناول كتاب الشفاء لابن سينا ينظر فيه لا يكاد يخل بذلك. وكان حسن التودد إلى الناس وكان يتصدق سرًا توفى بالقاهرة فى تاسع ذى الحجة سنة ٧٣٨ عن أربع وسبعين سنة(٢).

١- المنهل الصافى والوافى بالوفيات والدرر الكامنة

٢- الوافى بالوفيات للصلاح الصفدى والبداية والنهاية لابن كثير حوادث سنة ٧٣٨ .

٣- محمد بن إبراهيم بن ساعد شمس الدين أبو عبدالله[1] السنجاري الأصل المعرى المعروف بابن الأكفاني : ولد بسنجار وتعلم الطب ومهر فى معرفة الجواهر والعقاقير حتى رتب بالبيمارستان وألزم الناظر ألا يشترى شيئا ، إلا بعد عرضه عليه توفى سنة ٧٤٩ ومن مؤلفاته : إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد (طبع بمصر) ونخب الذخائر فى معرفة الجواهر ، واللباب فى الحساب، وغنية اللبيب فى غيبة الطبيب، ونهاية القصد فى صناعة الفصد.

٤- عمر بن منصور بن عبد الله سراج الدين البهادرى[2] القاهرى الحنفى ولد سنة ٧٦٢ واشتغل بالفقه والعربية والطب واستقر فى تدريس البيمارستان وجامع بن طولون فى الطب ومات يوم السبت غرة شوال سنة ٨٢٤هـ .

٥- محمد بن اسماعيل بن إبراهيم أبو الوفاء[3] القاهرى الطبيب ويعرف بوفاء : ولد بعد سنة ٨٣٠ بالقاهرة ونشأ بها وتدرب بالطب وصار من ذوى النواب بالبيمارستان وصار يشار إليه بالبراعة والمتانة.

٦- تقى الدين الكرمانى يحيى بن محمود بن يوسف بن العلامة شمس الدين الكرمانى[4] البغدادى ولد فى رجب سنة ٧٦٢ سمع عن أبيه وغيره، ونشأ ببغداد وتفقه وبرع وشارك فى عدة علوم والتجأ إلى الأمير شيخ المحمودى وجعله إمامه فى الصلاة . ولما تسلطن الأمير شيخ المحمودى فى سنة ٨١٥هـ جعله من خواصة وولاه نظر البيمارستان المنصورى بالقاهرة ومات بالطاعون يوم الخميس ٨ جمادى الآخرة سنة ٨٣٣ وله مصنفات من ذلك مصنف فى الطب وشرح مسلم وشرح البخارى واختصر الروض الأنف.

٧- محمد بن على بن عبد الكافى بن على بن عبد الواحد بن صغير[5] الشمس أبو عبدالله القاهرى الحنبلى الطبيب والد الكحال محمد، ويعرف بابن صغير ، تميز فى الطب وعالج وتدرب به جماعة وله فى الطب كتاب اسمه الزبد وكان أحد الأطباء بالبيمارستان وبخدمة السلطان مات سنة ٨٣٩ عن ٨٤ سنة.

١- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة.

٢- الضوء اللامع والمنهل الصافى.

٣- الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع

٤- المنهل الصافى .

٥- الضوء اللامع .

٨- عبد الوهاب بن محمد بن محمد بن طريف الشيخ تاج الدين بن الشيخ شمس الدين الشاوى القاهرى[1] ولد سنة ٧٦٦ بالقاهرة وسمع دروسه فى الفقه والميقات ، على جماعة من العلماء وفى الكحل على السراج البلاذرى، وبرع فى الميقات وباشر العمل به فى عدة أماكن كالمنصورية وجامع الحاكم ، وكذا خدم بالكحل فى البيمارستان المنصورى ، وكان إنسانًا خيرًا ثقة محبا للطلبة ذا ثروة من وظائفه وغيرها ينتفع بالقليل منها ويصرف باقيه فى وجوه الخير مات يوم الجمعة ١٣ شوال سنة ٨٥١ وصلى عليه بجامع الحاكم .

٩- محمد بن عبد الوهاب بن محمد الصدر بن البهاء السبكى[2] الأصل القاهرى المتطبب ولد قريبًا من سنة ٧٧٣هـ وحفظ القرآن والنحو ثم عانى الطب والكحل وخدم بالبيمارستان مات فى جمادى الأولى سنة ٨٦٦هـ وقد شاخ وضعف بصره.

١٠- محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن عيسى بن عمر بن خالد بن عبد المحسن[3] بن نشوان الشرفى العالى بن الصدر أبى البركات بن قاضى طيبة البدر أبى إسحاق المخزومى ولد سنة ٧٩٣هـ بالقاهرة ونشأ بها ودرس بالبيمارستان المنصورى وجامع ابن طولون مات سنة ٨٧٣هـ .

١١- محمد بن محمد بن على بن عبد الكافى بن على بن عبد الواحد بن محمد بن صغير[4] الكحال بن الشمس بن العلاء القاهرى الطبيب حفيد رئيس الأطباء ويعرف كسلفه بابن صغير؛ حفظ القرآن وقرأ النحو وعانى الطب وأخذ فيه عن أبيه والعز بن جماعة. واستقر فى نوبة البيمارستان وله كتاب (تشريح الأعضاء) (والزبد) فى الطب مات فى صفر سنة ٨٩١هـ وهو ابن ٩٦ سنة.

١٢- محمد بن يعقوب بن عبد الوهاب الشمس التفهنى[5] ثم القاهرى الكحال كان أبوه خيِّرًا من أهل القرآن ، فنشأ وتدرب فى الطب والكحل ومهر فيهما وصارت له نوبة فى البيمارستان ومولده سنة ٨١٥ ومات فى ذى الحجة سنة ٨٩٦هـ .

١- التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص١٩٤ .

٢- الضوء اللامع.

٣- الضوء اللامع.

٤- الضوء اللامع.

٥- الضوء اللامع.

١٣- محمد بن محمد ولى الدين ابن الشيخ العالم محب الدين المحرق[1] المباشر بالبيمارستان المنصورى بالقاهرة وتوفى بها فى يوم الخميس ختام ربيع الأول سنة ٩٠٩ .

١٤- الشيخ محمد شمس الدين القوصونى: رئيس الأطباء بالقاهرة وطبيب السلطان الغورى والطبيب بدار الشفاء توفى فى ربيع الأول سنة ٩١٧ .

١٥- على بن محمد بن محمد بن على الجراح بدار الشفاء توفى سنة ١٠١١هـ .

١٦- شهاب الدين ابن الصائغ[2] وهو أحمد بن سراج الدين الملقب شهاب الدين، مات عن مشيخة الطب بدار الشفاء المنصورى ورياسة الأطباء ، وكانت ولادته سنة ٩٤٥هـ وتوفى سنة ١٠٣٦هـ ولم يخلف إلا بنتاً تولت مكانه مشيخة الطب.

١٧- مدين[3] **بن عبد الرحمن القوصونى** المصرى الطبيب رئيس الأطباء بدار الشفاء بمصر : أخذ العلوم عن الشهاب أحمد بن أحمد المتبولى الشافعى والشيخ عبد الواحد البرجى والطب عن الشيخ داود، ولى مشيخة الطب بمصر بعد السرى أحمد الشهير بابن الصائغ وألف التآليف النافعة منها: (ريحان الألباء وريعان الشباب فى مراتب الآداب) وكتاب (قاموس الأطباء وناموس الألباء فى المفردات) وفى خزانة كتبى نسخة منه وله غير ذلك قال صاحب خلاصة الأثر : إنه فى سنة ١٠٤٤هـ كان موجوداً بين الأحياء.

١٨- خضر بن على بن الخطاب المعروف بالحاج باشا [4]: كان من ولاية آيدين من الروم وارتحل إلى القاهرة وقرأ على أكمل الدين ومبارك شاه المنطقى ثم عرض له مرض شديد فاضطره إلى الاشتغال بالطب فمهر فيه وفوض إليه بيمارستان مصر فدبره أحسن تدبير وصنف كتاب (الشفا) فى الطب ومختصراً فيه بالتركية سماه (التسهيل) . وصنف قبل اشتغاله بالطب حواشى على (شرح المطالع) للقطب الرازى على تصوراته وتصديقاته وشفاء الأسقام وتوفى سنة ١١٠٠هـ .

١٩- على بن جبريل[5] المتطبب شيخ دار الشفاء بالمارستان المنصورى رئيس الرؤساء

١- الكواكب السائرة ج١ ص١٩ .

٢- خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر

٣- خلاصة الأثر محبى.

٤- القواعد البهية فى تراجم الحنفية وكتاب الشقائق النعمانية

٥- عجائب الآثار لعبد الرحمن الجبرتى ج١ ص٢١٦ .

أتقن فن الطب وشارك في غيره من الفنون ، كان أحد جلساء الأمير رضوان كتخدا الجلفي ونديمه وأنيسه وحكيمه ، وكان أحد من منحت له يمين ذلك الأمير بالألوف ومنها بيت على بركة الأزبكية ذو رونق بديع غريب زجاجي النواحي والأرجاء توفي سنة ١١٧٢هـ .

٢٠- **الشريف السيد قاسم بن محمد التونسي**[1] كان إمامًا في الفنون وله يد طولى في العلوم الخارجة مثل الطب والحرف وكان معه وظيفة تدريس الطب بالبيمارستان المنصوري وتولى مشيخة رواق المغاربة بالأزهر مرتين وكان له باع في النظم والنثر وتوفي سنة ١١٩٣هـ، ١٧٩٧م بعد أن تعلل كثيراً.

المارستان المنصوري في نظامه العصري

يعد الشريف السيد قاسم التونسي لم أعثر على طبيب آخر تولى العلاج في المارستان المنصوري، والظاهر أن أمر المارستان كان مهملاً من العلاج في الفترة بين وفاة التونسي سنة ١٧٩٧م وهو العام السابق على الحملة الفرنسية، من سنة ١٧٩٩ م إلى سنة ١٨٠١ . قال المسيو جومار أحد علماء الحملة : «إن هذا البناء الذي كان فيما غبر من الأيام ملجأ مفتوحًا من الشدائد قد اضمحلت حالته بعد ذلك وزالت عنه السعادة الأولى التي كان يرفل في حلاها، أو بعبارة أخرى كاد لايبقى منه غير ظله بسبب ظلم الترك والمماليك وإهمالهم ، ولاسيما تبديد أمواله . ثم بلغ غاية اضمحلاله في سنة ١٨٥٦ م وهجره المرضى ونقلت منه المجانين إلى بولاق، وأُجرت قاعاته ومرافقه ، كلئه وكالة لمخازن الصناع وتجار النحاس ، وظل كذلك إلى سنة ١٨٧٩ أي نحو ثمانين عامًا إلى أن تولى المرحوم الدكتور حسين عوف بك أمر العلاج فيه فانتقل بذلك إلى العصر الجديد في العلاج، وتولى بعده في العلاج بالمارستان غيره من الأطباء العصريين، إلى أن صحت عزيمة مصلحة الأوقاف في ذلك الزمن على تجديد بناء المارستان المنصوري في الحوش الواسع المتخلف عن المارستان القديم . فابتدأت في البناء وتشييد المارستان الجديد في عام ١٩١٢ م وقدر له من النفقات ٨٤٠٠ جنيهًا مصريًا ثم رتب عليها ستمائة جنيه فبلغ ما أنفق على تجديد البناء تسعة آلاف من الجنيهات وصرف نحو ستمائة جنيهًا ثمنًا للأدوات والآلات اللازمة . وتم بناؤه وابتدأ العلاج فيه في ١٥ أبريل سنة ١٩١٥ حيث كانت الحرب العالمية مشتعلة الأوار في ذلك الزمن، فلم يحتفل بافتتاحه كما جرت العادة بذلك .

١- عجائب الآثار للجبرتي ج٢ ص٥٤ .

ولاتزيد أوقاف مارستان قلاوون فى الوقت الحاضر على الحمام المجاور للمارستان وبعض دكاكين فى الصاغة المجاورة. ويبلغ ريع هذه الأوقاف نحو ألفى جنيه تقريبًا يصرف من هذا الريع على مدرسة النحاسين والمسجد والتربة والمارستان وتسد وزارة الأوقاف النقص فى النفقات من الأوقاف الخيرية الأخرى. ففى تاريخ ٢ جمادى الآخرة سنة ١٣١٤هـ الموافق ٩ نوفمبر سنة ١٨٩٦م صدرت إرادة سنية من الخديوى عباس باشا الثانى بناء على فتوى شرعية تقضى بتوحيد حسابات جميع الأوقاف الخيرية وجعلها كلها حسابًا واحدًا إيرادًا ومصروفًا ، تتصرف فيه وزارة الأوقاف بحسب ما تراه من أعمال الخير، فلاتتقيد بإيراد كل وقف ومصروفه علي حدته إذ كان غرض الواقفين عمل الخير، وذلك ابتداء من شهر يناير سنة ١٨٩٧م.

والعلاج فى مستشفى قلاوون الآن خاص بأمراض العيون وفيه قسمان قسم للعلاج الخارجى تفحص فيه المرضى وتعالج ثم تنصرف إلى منازلها ، وقسم داخلى فيه نحو تسعين سريرًا يقيم فيها المرضى للعلاج حتى يشفوا من أدوائهم. وفيه من الأطباء نحو ستة وصيدلانى وكتبة وممرضون وممرضات وطباخ وغسالون وسائر ما يلزم من الخدم وكان جملة ما ينفق عليه فى سنة ١٩٢٧ نحو ٦٢٣١ جنيهًا مصريًا .

الأطباء العصريون الذين تولوا العلاج فى مارستان قلاوون

إن أول من عانى العلاج فى بيمارستان قلاوون من الأطباء العصريين بعد الفترة الكبيرة بعد السيد قاسم بن محمد التونسى هم:

١- **الدكتور حسين عوف بك** : تخرج من مدرسة القاهرة ثم اختير للسفر إلى بلاد النمسا سنة ١٨٤٥م حيث أتقن علم الرمد وعاد منها سنة ١٨٤٦ م وعين أستاذًا للرمد بمدرسة الطب سنة ١٨٤٨م وكان برتبة (الصاغ قول اغاسى) وذلك فى عهد سعيد باشا والى مصر . وفى سنة ١٨٦٧ أنعم عليه بالوسام المجيدى الرابع. وظل أستاذًا إلى أن أُحيل على المعاش سنة ١٨٧٩ وخلفه ابنه أستاذًا بمدرسة الطب وقد كان مساعداً له في عمله فيها وبعد إحالته على المعاش تولى العلاج فى مارستان قلاوون وتوفى سنة ١٨٨٣م

٢- **الدكتور محمد عوف باشا**: هو ابن الدكتور حسين بك عوف السابق، تعلم بمدارس مصر ثم دخل مدرسة القصر العينى وأرسل بعد ذلك إلى فرنسة فى بعثة طبية سنة ١٨٦٢م لإتقان أمراض العيون، وعاد منها سنة ١٨٧٠م فعين بمدرسة الطب طبيبًا مساعداً لوالده فى الكحالة ، ولما أُحيل والده على المعاش ، تعين فى مكانه أستاذًا وطبيبًا للرمد فى مدرسة الطب

ومستشفى القصر العينى وذلك فى ٢ نوفمبر سنة ١٨٧٩ واستمر فى وظيفته نحو ثلاثين عاما ثم أحيل على المعاش وأنعم عليه الخديوى عباس باشا برتبة الميرميران (باشا) فى سنة ١٩٠٢ ثم تولى العلاج فى مارستان قلاوون بعد ذلك وتوفي سنة ١٩٠٨م.

٣- الدكتور سعد سامح بك : ولد بالاسكندرية سنة ١٨٥١ وتعلم الطب بالقاهرة وتخرج سنة ١٨٧١ وخدم طبيبًا بالجيش المصرى وتنقل بين وظائفه والوظائف المدنية إلى سنة ١٨٨٦ ثم سافر إلى باريس لإتقان فن الكحالة ، وفى سنة ١٨٩٥ فى عهد الخديوى عباس باشا الثانى عين طبيبًا كحالاً بمارستان قلاوون ومفتشًا صحيًا فى ديوان الأوقاف معًا. وفى سنة ١٨٩٨ أنعم عليه بالرتبة الثانية ويلقب صاحبها بلقب بك وأحيل فى سنة ١٩١١ على المعاش وتوفى فى ٢٧ فبراير سنة ١٩١٧ ودفن بالقاهرة وله جملة مؤلفات منها:

١- مرشد الطبيب للعلاج المجيب طبع ١٣١٦هـ- ١٨٩٩م.

٢- رسالة بالفرنسية طبعت فى باريس سنة ١٨٩٠ عنوانها:

Nouvelle étude sur la photoposopie

٣- رسالة فى الالتهاب الملتحمى الغشائى الكاذب طبعت سنة ١٣١٢م*.

٤- تقرير بالفرنسية عنوانه :

Rapport sur l'oplithalmologie Egyptienne et les granulations en Egypte le Caire 1902.

قدمه إلى المؤتمر لطبى الرمدى المنعقد فى القاهرة فى ١٩ -٢٣ ديسمبر سنة ١٩٠٢م.

٤- الدكتور محمد شاكر بك : تعلم علومه فى مصر ثم أتم علومه فى فرنسة وعين أول الأمر طبيبًا بالخاصة الخديوية وفى يناير سنة ١٩١٢ نقل إلى مارستان قلاوون عالج فيه الرمد إلى سنة ١٩١٥ حيث أحيل على المعاش.

٥- الدكتور محمد طاهر بك : ولد بدمياط ونشأ بها وتعلم الطب بمدرسة القصر العينى وتخرج سنة ١٩٠٤ وعين طبيبًا بمستشفيات الرمد المتنقلة التابعة لوقفية السير أرنست كاسل. وفى سنة ١٩٠٦ عين طبيبًا مساعداً للرمد فى مستشفى القصر العينى وفى سنة ١٩٠٩ انتقل إلى مصلحة الصحة مفتشًا لمستشفيات الرمد. وفى سنة ١٩١٤ ألحق بوزارة الأوقاف وعين

---

* هكذا فى الأصل «المحرر»

رئيسًا لمستشفى قلاوون إلى سنة ١٩١٨ ثم عين مدرسًا للرمد بمدرسة الطب فى يونية سنة ١٩١٢ ثم استقال فى السنة نفسها.

٦- **الدكتور سالم هنداوى بك:** ولد بسنجلف من أعمال إقليم المنوفية ونشأ بالقاهرة، وحصل على إجازة الطب فى سنة ١٩١٠ وعمل فى المستشفى العباسى الذى أنشأه الخديوى عباس باشا طبيبًا للرمد. وفى سنة ١٩١٨ عين مديرًا وكحالاً لبيمارستان قلاوون ولايزال يعمل فيه إلى الآن *.

١٠- البيمارستان المؤيدى

قال تقى الدين المقريزى[1] : «هذا المارستان فوق الصوّة تجاه طبلخاناه قلعة الجبل[2] حيث كانت مدرسة الأشرف شعبان ابن حسين[3] التى هدمها الناصر فرج بن برقوق وبابه هو حيث كان باب المدرسة إلا أنه ضيق عما كان أنشأه الملك المؤيد شيخ[4] فى مدة أولاها جمادى الآخرة سنة ٨٢١ وآخرها رجب سنة ٨٢٣ ونزل فيه المرضى فى نصف شعبان وعملت مصارفه من جملة أوقاف الجامع المؤيدى المجاور لباب زويلة، فلما مات المؤيد فى ثامن المحرم سنة ٨٢٤ تعطل ثم سكنه طائفة من العجم المستجدين فى ربيع الأول منها. وصار منزلاً للرسل الواردين من البلاد إلى السلطان ثم عمل فيه منبر ورتب له خطيب وإمام ومؤذن وبواب وقومة وأقيمت به الجمعة فى شهر ربيع الآخر سنة ٩٢٥ فاستمر جامعًا تصرف معاليم أرباب وظائفه المذكورين من وقف الجامع المؤيدى».

١- الخطط والآثر ج٢ ص٤٠٨ طبع بولاق.

٢- السكة الموصلة إلى المارستان لاتزال تسمى إلى اليوم حارة المارستان على يسار السالك من القلعة إلى شارع باب الوزير.

٣- ابتدأ الملك الأشرف حسين بن محمد بن قلاوون. بعمارة مدرسته التى انشأها بالصوة فى النصف الأوسط من صفر سنة ٧٧٧هـ (المنهل الصافى).

٤- هو السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى الظاهرى الجركسى الأصل ولد قريبا من سنة ٧٧٠هـ وكان قدومه للقاهرة سنة ٧٨٢هـ وهو ابن ١٢ سنة اشتراه الخواجه محمود شاد اليزدى تاجر المماليك فنسب محموديا لذلك وقدمه للملك الظاهر برقوق وهو حينئذ أتابك العساكر فأعتقه ونشأ ذكيا وجعله الإمام المستعين بالله رئيسا لشوراه وفى ٨ ربيع الأول سنة ٨١٥هـ (١٤١٢م) ولاه الخليفة نيابة الملك وأشركه فى سلطنته ولقبه بالملك المؤيد ثم خلع الخليفة ونفاه بالاسكندرية فى سنة ٨١٨هـ وأقام أخاه خليفة ولقبه المعتضد بالله وفى المحرم سنة ٨٢٤ توفى الملك المؤيد وكان يحب العلماء ويكرم مثواهم وقد أناف على الخمسين.

* تاريخ صدور الكتاب ولم يتيسر معرفة سنة وفاته.

وقد ذكر تقى الدين المقريزى هذا المارستان فى كتاب آخر من كتبه(١) بالنص الآتى: فى شهر ربيع الآخر سنة ٨٢٥هـ فى سلطنة السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباى الدقماقى الظاهرى الجركسى عمل المارستان المؤيدى الذى بالصوة تحت القلعة جامعًا تقام فيه الجمعة والجماعة، وكان المؤيد قد جعل هذا الموضع مارستانًا ونزل به المرضى. فلما مات لم يوجد فى كتاب الوقف المؤيدى له جهة مصرف ، فأخرجت المرضى منه وأغلق وصار منزلاً للرسل الواردين من ملوك الشرق ، فبقى حانة خمّار برسم شرب المسكرات وضرب التنابير وعمل الفواحش ، ومع ذلك تربط به الخيول ، فكان هذا منذ مات المؤيد إلى هذا الوقت (توفى المقريزى سنة ٨٤٥هـ) فطهره الله من تلك الأرجاس وجعله محل عبادة .

ولقد تخرب هذا المارستان وامتدت إليه الأيدى بالهدم والبناء حتى ضاعت معالمه وظل مجهولاً ومطموسًا بين العمارات والمساكن قرونًا عديدة ، لايعرف مكانه ولايعرف عنه شئ حتى قيض الله له لجنة حفظ الآثار العربية(٢) فزارت مكانه وكتبت عنه تقريرًا فى سنة ١٨٩٤ باعتباره أثرًا يستحق العناية والحفظ كغيره من الآثار، ولم يكن يرى فيه سوى أنه بناء أثرى بجانب مسجد الحاج أحمد أبى غالية من الجهة القبلية فى حارة السكرى بشارع المحجر. وكان الجدار الجنوبى أو القبلى لمسجد أبى غالية . هو الوجهة البحرية من هذا البناء الأثرى . وكان فى هذا الجدار بعض النقوش والمقرنصات وفيه باب صغير تحت بوابة فخمة البناء لاتزال موجودة كاملة وبعد عن ذلك ببضع خطوات بعض جدران هذا الأثر القديمة وفيها بعض النوافذ.

وقد تبين للجنة أن مسجد أبى غالية يستند جداره القبلى على تلك البوابة الفخمة للمارستان المؤيدى ويحجبها عن الأنظار حجابًا تامًا ، فقررت اللجنة لكشف هذا الأثر إزالة المسجد المستجد ، فظهرت واجهة البيمارستان بجمالها وفخامتها ورونقها وما فيها من بديع النقوش والزخرفة وعنيت اللجنة بإرجاع البيمارستان إلى حالته الأصلية بقدر ما تسمح به حال الموجود من آثار؛ والمنتظر- نظرًا لصعوبات قضائية شرعية بالنسبة لإزالة مسجد الحاج أحمد أبى غالية - تحويل المارستان بعد ترميمه وإصلاحه إلى مسجد أو مصلى وذلك تحقيقًا لتمسك المحكمة الشرعية بإعادة بناء مسجد أبى غالية.

١- السلوك فى معرفة دول الملوك ج٤ ص٤١٦ مخطوط.

٢- مجموعة لجنة حفظ الآثار العربية أعمال سنة ١٨٩٤ م ص١١٤ .

وقف البيمارستان المؤيدى

لما انشأ الملك المؤيد شيخ المحمودى الجامع العامر الرحب بباب زويلة وأنشأ خانقاه للصوفية والبيمارستان للمرضى والصهاريج للسقاية، أوقف على ذلك كله أوقافًا جمة من عقار وطين وكتاب وقفه مذكور فى الخطط التوفيقية[1] لعلى مبارك باشا بالتفصيل الوافى فاختصرناها وأثبتنا هنا منها ما يخص البميارستان فقط . وهنا بعض ما اخترناه منها:

.... ومن هذه الأوقاف الكبيرة العظيمة يرتب طبيبا طبائعيا وكحالا وجرائحيا و... الخ ولكل منهم ثلاثون نصفًا فى الشهر وجعل النظر عليه لنفسه ثم للأرشد فالأرشد من ذريته الذكور خاصة لكن بالاشتراك مع من يكون داواداراً كبيراً ومع كاتب السر مجتمعين غير منفردين ، فإن تعذر لذريته كان النظر للداودار وكاتب السر معًا ، ويصرف لكل منهما خمسمائة نصف شهريًا وإن تعذر فلحاكم المسلمين بالديار المصرية.

وتاريخ الحجة رابع جمادى الآخرة سنة ٨٢٣هـ (١٤٢٠م) .

١- الخطط التوفيقية لعلى مبارك باشا ج٥ ص١٢٥ .



شكل ٧ – الواجهة والباب للبيمارستان المؤيدى

بيمارستانات العراق والجزيرة

بيمارستانات بغداد

١- بيمارستان الرشيد

أمر هارون الرشيد خامس خلفاء بنى العباس والذى تولى الخلافة سنة ١٧١هـ (٧٨٦م) جبريل بن بختيشوع[١] أن ينشئ بيمارستانًا فى بغداد فأنشأه ورشح لرياسته ماسويه الخوزى من أطباء بيمارستان جنديسابور وتولى جبريل رعايته

٢- بيمارستان البرامكة

جاء فى كتاب الفهرست [٢]: أن من نقلة الهند والنبط ابن دهن الهندى وكان إليه بيمارستان البرامكة ونقل إلى العربى من اللسان الهندى وجاء فيه أيضًا عن كتاب أنه تفسير ابن دهن صاحب البيمارستان فيفهم من ذلك أنه كان للبرامكة فى بغداد بيمارستان وكان ابن دهنى طبيبًا له.

٣- بيمارستان أبى الحسن على بن عيسى

فى سنة[٣] ٣٠٢هـ (٩١٤م) اتخذ الوزير أبو الحسن على بن عيسى بن الجراح[٤]

١- تاريخ الحكماء لابن القفطى ص٣٨٣ طبع ليبسيك وعيون الأنباء ج١ ص١٧٤ .

٢- كتاب الفهرست لابن النديم ص٢٤٥ .

٣- عيون الأنباء ج١ ص٢٧٤ .

٤- هو أبو الحسن على بن عيسى بن داود بن الجراح البغدادى الكاتب الوزير، وزر للمقتدر والقاهر وحدث عن أحمد بن شعيب النسائى والحسن بن محمد الزعفرانى وحميد بن الربيع وروى عنه ابن عيسى والطبرانى وأبو طاهر الهذلى وكان صدوقًا دينًا خيرًا صالحًا عالمًا من خيار الوزراء . وكان كثير البر والمعروف والصلاة والصيام ومجالسة العلماء. قال الصولى : ما أعلم أنه وزر لبنى العباس وزير يشبه على بن عيسى فى زهده وعفته وحفظه للقرآن وعلمه بمعانيه وصدقاته ومبراته . كان دخل على بن عيسى من ضياعه فى كل سنة نيفًا وثمانين ألف دينار ينفق نصفها على الفقراء والضعفاء ونصفها على نفسه وعياله وأصحابه ، وقف وقوفًا كثيرة من ضياع السلطان وأفرد لها ديوانًا سماه ديوان البر جعل حاصله لإصلاح الثغور وللحرمين الشريفين وكان يجلس لرد المظالم من الفجر إلى العصر ، واقتصر على أقل الطعام وأخشن الملبوس توفى يوم الجمعة من شهر ذى الحجة سنة ٣٣٤هـ وقيل سنة ٣٣٥ وله مؤلفات عظيمة مثل: كتاب جامع الدعاء وكتاب معانى القرآن وتفسيره ، وكتاب الكتاب، وسياسة المملكة وسيرة الخلفاء.

البيمارستان بالحربية[١] أنفق عليه من ماله وقلده با عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقى متطببه وهو أحد النقلة المجيدين وكان منقطعًا إليه.

٤- بيمارستان بَدْر غلام المعتضد

قـــال ثابت[٢] بن سنان بن ثابت بن قُرة فى بيمارستان بدر ما يأتى : كانت النفقة على البيمارستان الذى لبدر غلام المعتضد بالمُخَرِّم[٣] من ارتفاع وقف سجاح أم المتوكل على الله. وكان الوقف فى يد أبى الصقْر وهب بن محمد الكَلْوَذانى ، وكان قسط من ارتفاع هذا الوقف يصرف إلى بنى هاشم، وقسط إلى نفقة البيمارستان . وكان أبو الصقر يُوَّرِّح على بنى هاشم ما لهم ويؤخر ما يصرف إلى نفقة البيمارستان ويضيقه فكتب والدى (أى والد ثابت وهو سنان بن ثابت بن قرة) إلى أبى الحسن على بن عيسى بن الجراح يشكو إليه هذه الحال ويعرفه ما لحق المرضى من الضرر بذلك وقصور ما يقام لهم من الفحم والمؤن والدثار وغير ذلك عن مقدار حاجتهم ؛ فوقّع على ظهر رقعته إلى أبى الصقر توقيعًا نسخته : «أنت أكرمك الله تقف على ما ذكره وهو غليظ جدًا والكلام فيه معك خاصة فيما يقع منك يلزمك وما أحسبك تسلم من الإثم فيه وقد حكيت عنى فى الهاشميين قولاً لست أنكره وكيف تصرفت الأحوال فى زيادة المال أو نقصانه ووفوره أو قصوره ولابد من تعديل الحال فيه بين أن تؤخذ منه وتجعل للبيمارستان قسطًا ، بل هو أحق بالتقدم على غيره لضعف من يلجأ إليه وعظيم النفع به فعرفنى أكرمك الله ما النكتة فى قصور المال ونقصانه فى تخلف نفقة المارستان هذه الشهور

١- الحربية محلة مشهورة ببغداد عند باب حرب قرب مقبرة أحمد بن حنبل ينسب إلى حرب بن عبد الله البلخى أحد قواد أبى جعفر المنصور .

٢- بدر أبو النجم مولى المعتضد بالله المعروف بالحمامى (نسبة إلى الطير) ويسمى بدر الكبير وكان أبو بدر اسمه خير ، من مماليك الموفق ثم تقدم بدر عند المعتضد بالله وولى الإمارة فى بلدان جليلة وتولى الأعمال بمصر مع ابن طولون إلى أن فسد أمر ابن طولون وقتل فقدم بدر بغداد وأقام بها مدة ثم ولاه السلطان بلاد فارس كلها وأقام هناك مدة إلى أن توفى فى شهر ربيع الأول سنة ٣١١هـ وذكر أبونعيم أنه كان عبدًا صالحًا حدث وروى عنه وقام بالأمر بعده ابنه محمد . وقيل : إن من أكبر مناقب بدر أنه كان من أكبر السعاة فى الحسين بن منصور الحلاج حتى قتل وكان كثير المال كريمًا سخيًا كثير المروة .

٢- كتاب عيون الأنباء ج١ ص٢٢١ .

٣- المُخَرِّ محلة كانت ببغداد وهو منسوب إلى مُخَرِّم بن يزيد ابن شريح بن مخرم بن مالك كان ينزله أيام قبل أن تعمر بغداد وهى بين الرصافة ونهر المعلى.

المتتابعة وفى هذا الوقت خاصة مع الشتاء واشتداد البرد. فاحْتَلْ بكل حيلة لما يطلق لهم ويعجل حتى يدفأ من فى البيمارستان من المرضى والمرورين بالدثار والكسوة والفحم ويقام لهم القوت ويفصل لهم العلاج والخدمة، وأجبنى بما يكون منك فى ذلك وانفذ لى عملاً يدلنى على حجتك واعْنَ بأمر المارستان فضل عناية إن شاء الله».

٥- بيمارستان السيِّدة

فى أو المحـــرم[١] سنة ٣٠٦هـ فتح أبو سعيد سنان بن ثابت بيمارستان السيدة[٢] أم المقتدر، وقد اتخذه بسوق يحيى[٣] على نهر دجلة وجلس فيه ورتب ببغداد المتطببين وقبل المرضى . وكانت النفقة عليه فى كل شهر ستمائة دينار على يدى يوسف بن يحيى المنجم لأن سنان لم يدخل يده فى شئ من نفقات البيمارستان[٤] وقال ابن تغرى بردى [٥]:كان مبلغ النفقة عليه فى العام سبعة آلاف دينار.

١- ابن أبى أصيبعة ج١ ص٢٢٢ .

٢- السيِّدة أم المقتدر هى شَغَب جارية المعتضد أم أمير المؤمنين جعفر المقتدر بالله الخليفة، الملقبة بالسيدة كان دخل أملاكها فى كل سنة ألف ألف دينار، وكانت تتصدق بها وتخرج من عندها مثلها على الحجيج فى أشربة وأزواد وأطباء يكونون معهم وتسهيل الطرقات والموارد، وكانت فى غاية الحشمة والرياسة ونفوذ الكلمة أيام خلافة ولدها، فلما قتل كانت مريضة بالاستسقاء فزاد مرضها ، وجزعت لقتله جزعا شديداً ولما استقر أمر الخلافة لابن زوجها المعتضد ، وهو القاهر ، وقد كانت حضنته حين توفيت أمه وخلصته من ابنها، وكان مؤنس الخادم قد بايعه ولم يتم ذلك عاقبها القاهر . عقوبة عظيمة جداً ليقررها على الأموال التى فى يدها، فلم يجد لها شيئا سوى ثيابها ومصاغها وحليها في صناديق لها قيمتها مائة ألف وثلاثون ألف دينار، وجميع ما كان بداخلها تتصدق به ووقفت شيئا كثيراً وأخرجت إلى دار ابن ياقوت فأقامت بعد ابنها سبعة أشهر وثمانية أيام ثم ماتت فى جمادى الأول سنة ٣٢١ ودفنت بالرصافة وكانت صالحة ديِّنة.

٣- سوق يحيى ببغداد بالجانب الشرقى بين الرصافة ودار المملكة التى كانت عند جامع السلطان بين بساتين الزاهر على شاطئ دجلة منسوبة إلى يحيى بن خالد البرمكى كانت إقطاعا له من الرشيد ثم صارت بعد البرامكة لأم جعفر ثم خربت بعد ورود السلجوقيين إلى بغداد فلم يبق منها أثر البتة.

٤- ابن القفطى ص١٩٥ طبع ليبزيج.

٥- النجوم الزاهرة ج٢ ص٢٠٢ طبع ليدن.

٦- البيمارستان المقتدري[1]

في سنة ٣٠٦هـ أشار سنان بن قرة[2] على الخليفة المقتدر بالله أن يتخذ بيمارستانًا ينسب إليه فأمره باتخاذه فاتخذه له في باب الشام[3] وسماه البيمارستان المقتدري وأنفق عليه من ماله في كل شهر مائتي دينار[4].

الأطباء الذين خدموا البيمارستان المقتدري

١- يوسف الواسطي[5] الطبيب كان ملازمًا لبيمارستان المقتدر وقرأ عليه جبريل بن بختيشوع.

٢- جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع كان عالمًا فاضلاً متقنًا لصناعة الطب كان من أطباء المقتدر ولازم البيمارستان والعلم والدرس ، أقام ببغداد ثلاثين سنة ثم دخل إلى ميًا فارقين عند الأمير مُمهِد الدولة وتوفي يوم الجمعة ثامن رجب سنة ٣٩٦ وكان عمره ٨٥ سنة.

٧- بيمارستان ابن الفرات

قال أبو الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة[6] : في سنة ٣١٣ قلدني الوزير الخاقاني[7] البيمارستان الذي اتخذه ابن الفرات[8] درب المفضل ينفق عليه من ماله في كل شهر مائتي دينار.

١- نسبة للخليفة المقتدر بالله جعفر بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل على الله بن المعتصم بن هرون الرشيد مولده في ليلة الجمعة لثمان بقين من رمضان سنة ٢٣٢ وأمه أم ولد اسمها شغب . بويع بالخلافة يوم الأحد ١٤ ذي القعدة سنة ٢٤٥ وقد كان كريما جواداً له عقل جيد وفهم وافر وكان كثير التنقل بالصلاة والصوم والعبادة ، ولكنه كان مؤثراً لشهواته مطيعا لحظياته كثير التلون الولاية والعزل ، وما زال كذلك، حتى قتل عند باب الشماسيه لليلتين بقيتا من شوال سنة ٢٧٠ .

٢- ابن أبي أصيبعة ج١ ص٢٢٢هـ .

٣- باب الشام محلة بالجانب الغربي من بغداد.

٤- ابن القفطي ص١٩٤ طبع ليبزيج .

٥- ابن أبي أصيبعة ج١ ص١٤٤ .

٦- ابن أبي أصيبعة ج١ ص٢٢٤ .

٧- هو أبو علي محمد بن عبيدالله بن يحيى بن خاقان وزير المقتدر استوزره المقتدر بعد قبضه على ابن الفرات.

٨- هو أبو الحسن علي بن محمد بن موسى بن الفرات وزير المقتدر وزر له ثلاث دفعات الثالثة سنة =

٨- بيمارستان الأمير أبى الحسن بَجْكَمْ

قال ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة: لما مات الراضى بالله استدعى الأمير أبو الحسن يَحْكمْ[١] والدى سنانًا وسأله أن ينحدر إلى واسط ثم أمره فعمل بواسط فى وقت المجاعة [٢] دار ضيافة وببغداد بيمارستانًا[٣] يعالج فيه الفقراء ويُعللون، وأنفق فى ذلك جملة ، ورفه الرعية وأرفقها[٤] وأكرم سنانًا غاية الإكرام .

٩- بيمارستان معزّ الدولة بن بويه

فى سنة ٣٥٥هـ ابتدأ معز الدولة بن بويه[٥] ابتدأ معز الدولة بن بويه[٦] فى بناء مارستان وأرصد له أوقافًا . وفى المرآة (لسبط بن الجوزى): أنه فى سنة ٣٥٥ أمر معز الدولة أن يبنى موضع السجن المعروف بالجديد ببغداد مارستانًا وأمر أن يوقف عليه الأوقاف وأن يكون مغلّ الضياع الموقوفة عليه فى كل سنة خمسة آلاف دينار فمات قبل أن يتم .

= ٣١١ وبنو الفرات من صريفين من أعمال دُجيل ، وهم من أجل الناس فضلا وكان هذا أبو الحسن على ابن الفرات من أجلّ الناس وأعظمهم كرمًا وجودًا و كانت أيامه مواسم للناس . حدث عنه أنه قال: ما رأيت أحدًا ببابى من أرباب الحوائج إلا كان اهتمامى بالإحسان إليه أشد من اهتمامه. وله حكايات تدل على الحكمة والتعقل والحلم وما زال ابن الفرات يتنقل فى الوزارة إلى المرة الثالثة فقبض عليه وقتل وذلك سنة ٣١٢هـ .

١- هو يحكم التركى الذى تولى إمرة الأمراء ببغداد قبل بنى بويه وكان عاقلاً يفهم العربية ولايتكلم بها يقول: أخاف أن أخطئ والخطأ من الرئيس قبيح . وكان مع ذلك يحب العلم وأهله، كان كثير الأموال والصدقات ابتدأ بعمل المارستان ببغداد فلم يتم ، فجدده عضد الدولة بن بويه وكان يدخر، أموالاً كثيرة وكانت وفاته لسبع بقين من رجب سنة ٣٢٩هـ وكانت إمرته على بغداد سنتين وثمانية أشهر وتسعة أيام .

٢- ابن القفطى ص١٩٣ .

٣- ابن أبى أصيبعة ج١ ص٢٣٤ .

٤- ابن أبى أصيبعة ج١ ص٢٢٤ .

٥- عقد الجمان للعينى حوادث سنة ٣٥٥ وعيون التواريخ لمحمد شاكر الكتبى.

٦- هو أبو الحسن أحمد بن أبى شجاع بويه بن قنا خسرو بن تمام بن كوهى الخ من ولد يزدجر بن شهريار أخر ملوك الفرس ويلقب معز الدولة وهو عم عضد الدولة وأحد ملوك الديلم . وكان صاحب العراق والأهواز وكان يقال له الأقطع لأنه كان مقطوع اليد اليسرى وبعض أصابع اليمنى أثر حرب . دخل بغداد من

١٠- البيمارستان العضدى

فى صفر من سنة ٣٧٢هـ فتح البيمارستان العضدى[1] الذى أنشأه عضد الدولة بن بويه فى الجانب الغربى من بغداد، ورتب فيه الأطباء والخدم والوكلاء والخُزّان ، ونقل إليه من الأدوية والأشربة والعقاقير شئ كثير ومن كل ما يحتاج إليه. قال عبيدالله بن جبريل[2]: إنه لما عمّر عضد الدولة[3] البيمارستان الجديد الذى على طرف الجسر من الجانب الغربى من بغداد

= المستكفى وكانت مدة ملكه العراق إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وتوفى يوم الاثنين ١٧ ربيع الآخر سنة ٣٥٦هـ ببغداد ودفن فى مشهد بنى له فى مقابر قريش ومولده سنة ٣٢٠هـ وكان عمره يوم توفى ٥٣ سنة ولما توفى ملك موضعه ولده عز الدولة أبو النصر بختيار.

١- البداية والنهاية لابن كثير وتاريخ الإسلام للذهبى.

٢- ابن أبى أصيبعة ج١ ص٣١٠ .

٣- عضد الدولة هو أبو شجاع فناخسرو بن ركن الدولة أبو على الحسن بن بويه الديلمى أحد ملوك الديلم صاحب العراق وملك بغداد. وهو أول من تسمى شاهنشاه ومعناه ملك الملوك ولم يبلغ أحد من ملوك الديلم ما بلغه عضد الدولة من سعة الملك والاستيلاء على الملوك وممالكهم. وهو أول من خطب له ببغداد مع الخليفة . وكان ذا همة وصرامة وعزم وقد جرى له من التعظيم من الخليفة ما لم يقع لأحد ممن كان قبله ، واجتهد فى عمارة بغداد والطرقات وأجرى النفقات والصدقات على المجاورين بالحرمين وأهل البيوتات ، وحفر الأنهار وبنى المارستان العضدى ، وكان عاقلاً فاضلاً شديد الهيبة ، وكان يحب العلم والفضيلة وقد امتدحه الشعراء بمدائح هائلة كالمتنبى وغيره فمن قول المتنبى فيه:

هى الغرض الأقصى ورؤيتك المنى ومنزلك الدنيا وأنت الخلائق

وقال أبوبكر أحمد الأرّجانى:

لقيته فرأيت الناس فى رجل والدهر فى ساعة والأرض فى دار

وقد ذكر أن له شعراً فمن قوله:

ليس شرب الكاس إلا فى مطر وغناء من جوارى فى السحر

إلى أن قال:

عضد الدولة وابن ركنها ملك الأملاك غلاّب القدر

فيقال : إنه مذ قال (غلاب القدر) لم يفلح بعدها. ثم كانت وفاته بعد ذلك فى شوال سنة ٣٧٢ بعلة الصرع عن سبع أو ثمان وأربعين سنة وحمل إلى مشهد على فدفن فيه وكان فيه تشيع.

كان من الذين جمعهم فيه من كل موضع وأمر الراتب منه أربعة وعشرون طبيبًا وكان من جملتهم أبو الحسن على بن إبراهيم بن بكس ، وكان دأبه أن يدرس فيه الطب لأنه كان محجوبًا، وكان منهم أبو الحسن بن كشكرايا المعروف بتلميذ سنان، وأبو يعقوب الأهوازى وأبو عيسى بَقِيَّة ونظيف النفس الرومى وبنو حسون وجماعة طبائعيون .

قال عبيدالله : وكان والدى جبريل قد أصعد على عضد الدولة من شيراز ، ورتب فى جملة الطبائعيين فى البيمارستان وفى جملة الأطباء الخواص، قال: فكان فى البيمارستان مع هؤلاء من الكحالين الفضلاء أبو النصر الدّحنى ومن الجرائحيين أبو الخير وأبو الحسن بن تفاح وجماعة ومن المجبرين المشار إليهم أبو الصلت . قال ابن خلكان [١]: «والبيمارستان العضدى ببغداد هو فى الجانب الغربى وغرم عليه مالا عظيمًا وليس فى الدنيا مثل ترتيبه وفرغ من بنائه سنة ٣٦٨هـ ٩٧٨م، وأعدّ له من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه ».

وقال جمال الدين بن القفطى : «لما عمّر عضد الدولة فنّا خسرو البيمارستان ببغداد جمع إليه الأطباء من كل موضع فاجتمع فيه أربع وعشرون طبيبا وابن مندويه الأصفهانى واحد منهم وفى سنة ٤٠٨[٢] توفى الحاجب الكبير الشباسى أبو نصر مولى شرف الدولة بن بهاء الدولة ولقبه بهاء الدولة بن بويه بالسعيد وكان كثير الصدقه والأوقاف على وجوه القربان فمن ذلك أنه وقف ضياعًا على المارستان وكانت تغل شيئًا كثيرًا من الزرع والثمار والخراج . وقال العينى [٣]:

«استهلت سنة ٤٤٩هـ والخليفة القائم بأمر الله والسلطان طغرلبك فى هذا الوقت نظر عميد الملك فى المارستان العضدى ، وكان قد خلا من دواء وشراب وكان المرضى على وجه الأرض فوجد عند رأس المريض بصلة يشمها ، وعطش بعضهم فقام بنفسه إلى حيث الماء فوجد فيه حمأة ودودًا . وكان أبو الحسين بن المهتدى ويعرف بابن العريق قد عرف أن يهوديا يعرف بالهارونى استولى عليه وأكل أوقافه ، فاستخلصها من المتغلبين عليها ، وشرع فى العمارة وخلص المارستان من أيدى الطامعين ، فهاب المتغلبين بخمسة آلاف طابق وقيل بعشرة آلاف؛ وكان على بابه سوق فيه مائة دكان قد دثرت فأعادها وجمع فيه من الأشربة والأدوية والعقاقير

١- وفيات الأعيان ترجمة عضد الدولة .

٢- البداية والنهاية لابن كثير ج ١١ ص٨٨٦ حوادث هذه السنة.

٣- عقد الجمان حوادث سنة ٤٤٩هـ .

التى يعز وجودها شيئا كثيراً، وأقام الفُرش واللحف للمرضى، والأرابيح الطبية والأسرة والثلج والمستخدمين والأطباء والفراشين . وكان فيه ثمانية وعشرون طبيباً ونساء طباخات وبوابون وحراس، والحمّام ، والبستان إلى جانبه فيه أنواع الثمار والبقول والسُّفُن على مائه تنقل الضعفاء والفقراء ، والأطباء يتناوبونهم بكرة وعشية ويبيتون عندهم بالنوبة. وكان فيه عدة جباب (جمع جُبّ وهو الخابية) فيها السكر الطبرزد والأبلوج واللوز والمشمش والخشخاش وسائر الحبوب والبرانى الصينية فيها العقاقير وأربع قواصر فيها الإهليلج الأصفر والكابلى والهندى وأربع قواصر تمر هندى وزنجبيل وعود وندّ ومسك وعنبر والروائد الصينى فى البرانى والترياق الفاروقى وجميع الأفاويه وصناديق فيها أكفان وقدور كبار وصغار وآلات وأربعة وعشرون فراشاً . وذكر ابن صابى أشياء ما يوجد فى دور الخلفاء مثلها.

وفى سنة[1] ٥٦٩هـ (١١٧٣م) فى رمضان كان الزمان ربيعاً فتوالت الأمطار فى ديار بكر والجزيرة والموصل فدامت أربعين يوماً، فما رأينا الشمس فيها غير مرتين (هذا قول ابن الأثير) كل مرة مقدار لحظة ، وخربت المساكن وغيرها وكثر الهدم ومات تحته كثير من الناس، وزادت دجلة زيادة عظيمة وكان أكثرها ببغداد ، فإنها زادت على كل زيادة تقدمت منذ بنيت بغداد بذراع وكسر، وخاف الناس الغرق وفارقوا البلد وأقاموا على شاطئ دجلة خوفا من انفتاح القورج (بمعنى السور أو السد) وغيره، وكانوا كلما انفتح موضع بادروا بسده ونبع الماء فى البلاليع وخرب كثير من الدور، ودخل الماء إلى المارستان العضدى ودخلت السفن من الشبابيك التى له فإنها كانت قد تقلّعت ، فمَنّ الله على الناس بنقص الماء بعد أن أشرفوا على الغرق وفى يوم ٣ صفر[2] سنة ٥٨٠هـ (١٧ مايو سنة ١١٨٤م) دخل أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير بغداد سائحاً ونزل فى محلة منها، وكل محلة منها مدينة مستقلة. ومعلوم أن محلاتها كلها فى الجانب الغربى من نهر دجلة .

أما الجانب الشرقى فكانت عمارته محدثة قال: وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان وهى مدينة صغيرة فيها المارستان الشهير ببغداد وهو على دجلة، وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ويطالعون أحوال المرضى به ، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه وبين أيديهم قوَمة يتناولون طبخ الأدوية وجميع مرافق المساكن الملوكية والماء يدخل إليه من دجلة .

١- ابن الأثير حوادث سنة ٥٦٩ .

٢- رحلة ابن جبير ص٢٢٥ طبع ليدن.

ومن الحوادث التاريخية العظيمة التى لها اتصال بهذا المارستان صلْب محمد بن محمد ابن بقيّة وزير عزّ الدولة قتله عضد الدولة بن بويه لما ملك بغداد بعد أخيه ، لما كان يبلغه عنه من الأمور القبيحة ثم صلبه بحضرة المارستان العضدى وذلك يوم الجمعة لست خلت شوال سنة ٣٦٧ ورثاه أبو الحسن محمد بن عمر بن يعقوب الأنبارى بقصيدة مشهورة لم يرث مصلوب بأحسن منها وأولها [١]:

عُلُوٌّ فى الحياة وفى الممات	بحَقٍ أنت إحدى المعجزات
كأنّ الناس حولك حين قاموا	وفود نَداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبًا	وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء	كمَدّهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن	يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستنابوا	عن الأكفان ثوب السافيات
لعِظْمك فى النفوس تَبيت تُرْعى	بحُفّاظٍ وَحُرّاس ثقات
وتشعل عندك النيران ليلاً	كذلك كنت أيام الحياة

.... الخ

كتبها الشاعر المذكور ورمى بها نسخًا فى شوارع بغداد فتداولها الأدباء إلى أن وصل خبرها إلى عضد الدولة ، وأُنشِدَت بين يديه فتمنى أن يكون هو المصلوب.

الأطباء الذين عملوا بالبيمارستان العضدى

الأطباء الذين عملوا بالبيمارستان العضدى كثيرون نذكر منهم:

١- **جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع** : تقدم ذكره فى البيمارستان المقتدرى.

٢- **أبو الحسن على بن ابراهيم بن بكس**: نقل كتبًا كثيرة إلى العربى ثم كفّ بصره وكان مع ذلك يحاول صناعة الطب توفى سنة ٣٩٤هـ .

٣- **أبو الحسن على بن كشكرايا**: كان طبيبًا مشهورًا ببغداد وكان فى خدمة الأمير سيف الدولة بن حمدان ولما بنى عضد الدولة البيمارستان استخدمه فيه.

١- الوافى بالوفيات للصلاح الصفدى ج١ ص١٠١ طبع اسطنبول.

٤- **أبويعقوب الأهوازي**: كان من جملة الأطباء الذين جعلهم عضد الدولة في البيمارستان الذي أنشأه ببغداد وجعله من جملة المرتبين فيه الطب.

٥- **أبو عيسى بَقِيَّة**: كان ضمن الأطباء الذين اختارهم عضد الدولة للعمل في البيمارستان.

٦- **نظيف النفس الرومي**: كان خبيراً باللغات وكان ينقل من اليوناني إلى العربي وكان يعد من الفضلاء في صناعة الطب استخدمه عضد الدولة في بيمارستانه وكان يتطير به.

٧- **أبو الخير الجرائحي** : خبير قيم مشهور الصناعة ممن اختارهم عضد الدولة.

٨- **أبو الحسن بن تفاح** : جرائحي مشهور اختاره عضد الدولة للبيمارستان.

٩- **الصلت**: من المجبرين المشهورين الذين اختارهم عضد الدولة.

١٠- **أبو نصر الدحلي**: من الكحالين.

١١- **بنو حسون**: من الأطباء الذين اختارهم عضد الدولة للبيمارستان عند إنشائه.

١٢- **عبد الرحيم بن علي المرزبان**: أبو أحمد الطبيب المرزباني كان من أهل أصبهان عالماً فاضلاً بعلم الشريعة وعلم الطبيعة ، تقدم في الدولة البويهية، وكان قاضياً بتستر وخوزستان وكان إليه أمر البيمارستان بمدينة السلام ولم يزل على ذلك إلى أن توفي بتُسْتَر في جمادى الأولى سنة ٣٩٦هـ .

١٣- **أبو الفرج بن الطيب** هو الفيلسوف الإمام العالم أبو الفرج عبدالله بن الطيب اعتنى بشرح كتب كثيرة من كتب أرسطوطاليس في المنطق، وكتب جالينوس في الطب وكان يقرئ صناعة الطب في البيمارستان العضدي ويعالج المرضى فيه، وكان معاصراً للشيخ الرئيس ابن سينا وتتلمذ له جماعة سادوا وأفادوا ، كالمختار بن الحسن المعروف بابن بطلان وابن بدروج والهروي وبنو حيون وعلي بن عيسى وأبو الحسن البصري وغيرهم وتوفي سنة ٤٣٥هـ (١٠٤٣م) .

١٤- **أبو الحسن بن سنان بن ثابت بن قرة الصابي** : من البيت المشهور في الطب وهم آل سنان ، وكان ساعور البيمارستان ببغداد وكان في حدود سنة ٤٣٩ ، ولم يكن بالمقصر في صناعة الطب عن مرتبة أسلافه من آبائه وأجداده ونسبائه .

١٥- **هارون بن صاعد بن هرون الصابي الطبيب أبو نصر** : كان مقدم الأطباء وساعورهم في البيمارستان العضدي توفي ليلة الخميس الثالث من رمضان سنة ٤٤٤هـ (١٠٥٢م) .

١٦- **أبو الحسن على بن هبة الله بن الحسن**: من الأطباء المتميزين فى صناعة الطب، كان فى أيام المقتدى بأمر الله وخدمه بصناعة الطب وخدم ولده المستظهر بالله وكان يتولى مداواة المرضى فى البيمارستان العضدى. ولد ليلة السبت فى ٢٣ جمادى الآخرة سنة ٤٣٦هـ (١٠٤٤م) وتوفى ليلة الأحد سادس ربيع الأول سنة ٤٩٥هـ (١١٠١م) .

١٧- **أمين الدولة بن التلميذ** هو موفق الملك أمين الدولة أبو الحسن هبة الله بن أبى العلى صاعد بن إبراهيم بن التلميذ : كان والده أبو العلى صاعد طبيبًا مشهورًا وكان جده لأمه الحكيم معتمد الملك أبو الفرج يحيى بن التلميذ، فلما توفى نسب إليه. خدم الخلفاء من بنى العباس وارتفعت مكانته لديهم وانتهت إليه. خدم الخلفاء من بنى العباس وارتفعت مكانته لديهم وانتهت إليه رياسة الصناعة ببغداد، وكان ساعور البيمارستان العضدى إلى حين وفاته، وكان خبيرًا باللسان السريانى والفارسى ومتبحرًا فى اللغة العربية ، وعمر طويلا وكان يحضر عند المقتفى كل أسبوع مرة فيجلسه لكبر سنه ، وتوفى فى صفر سنة ٥٦٠هـ (١١٦٤م) وله من العمر ٩٤ سنة .

١٨- **جمال الدين بن أثردى** هو أبو الغنايم سعيد بن هبة الله بن أثردى : من الأطباء المشهورين ببغداد وكان ساعورًا للبيمارستان العضدى ومتقدمًا فى أيام الإمام المقتفى لأمر الله.

١٩- **ابن المارستانية** هو أبو بكر عبدالله بن أبى الفرج على بن نصر بن حمزة عرف بابن المارستانية: كان فاضلاً فى صناعة الطب وسمع شيئًا من الحديث وكان عنده تمييز وأدب وتولى نظر البيمارستان العضدى. توفى فى ذى الحجة سنة ٥٩٩هـ بموضع يقال له جرخ بند ودفن هناك.

٢٠- **أبو على بن أبى الخير** مسيحى بن العطار النصرانى النيلى الأصل البغدادى المولد والمنشأ وهو ابن مسيحى بن أبى البقاء: تقدم فى زمن أبيه بسمعته وجاهه وجعل ساعورا للبيمارستان . وكان قليل التحفظ فى أمر دينه ودنياه، وكان جاه أبيه يستره فلما مات أبوه سنة ٦٠٨ زال من كان يحترمه لأجله.

١١- بيمارستان محمد بن على بن خلف ببغداد

قال الذهبى [١]: إن محمد بن على بن خلف الوزير فخر الملك أبو غالب الصيرفى[٢] أنشأ بيمارستانًا ببغداد قل أن عمل مثله.

١- تاريخ الإسلام للذهبى حوادث سنة ٤٠١-٤١٦هـ .

٢- هو محمد بن على بن خلف الوزير فخر الملك أبو غالب بن الصيرفى ولى وزارة بغداد فى أيام القادر=

١٢- بيمارستان واسط

فى سنة ٤١٣هـ[١] أنشأ مؤيد الملك أبو على الحسن بن الحسن الرُّخَّجى[٢] وزير شرف الدولة بن بهاء الدولة مدبر دولة الخليفة القادر بالله فى العراق جميعه، بيمارستاناً بواسط وأكثر فيه من الأدوية والأشربة والعقاقير ورتب له الخُزَّان والأطباء وغير ذلك مما يحتاج إليه ووقف عليه الوقوف الكثيرة.

١٣- البيمارستان الفارقى بميافارقين

قال ابن أبى أصيبعة [٣]: إن زاهد العلماء هو الذى بنى بيمارستان مَيَّافارقين[٤] وحدثنى الشيخ سديد الدين بن رقيقة الطبيب: أن سبب بناء بيمارستان مَيَّافارقين ، هو أن نصير الدولة بن مروان صاحب ديار بكر فى أيام الخليفة القائم بأمر الله (تولى الخلافة سنة ٤٢٢هـ) لما كان بمَيَّافارقين مرضت ابنة له وكان يرثى لها كثيراً ، فآلى على نفسه أنها متى برئت أن يتصدق بوزنها دراهم فلما عالجها زاهد العلماء وصلحت ، أشار على نصير الدولة أن يجعل جملة هذه الدراهم التى يتصدق بها تكون فى بناء بيمارستان ينتفع به الناس ويكون له بذلك أجر عظيم وسمعة حسنة قال: فأمر ببناء المارستان وأنفق عليه أموالاً كثيرة ووقف له أملاكاً

= بالله فعمر البلاد ونشر العدل والإحسان ولد بواسط فى ربيع الأول سنة ٣٥٤هـ وكان أبوه صيرفياً بديوان واسط فنشأ فى الديوان وتنقلت به الأحوال حتى ولى الوزارة، وناب لبهاء الدولة بفارس ثم ولى وزارة العراق سنة ٤٠١ فلم يزل حاكماً عليها حتى قتله مخدومه سلطان الدولة بن السلطان بهاء الدولة بن عضد الدولة بنواحى الأهواز فى سنة ٤٠٧هـ وكان طلق الوجه جواداً جمع بين الحلم والكرم وجمع بين الكتابة والكفاءة وكبر الهمة.

١- عقد الجمان للعينى حوادث سنة ٤١٣هـ و ٤٢٠هـ وعيون التواريخ لمحمد بن شاكر الكتبى والبداية والنهاية لابن كثير حوادث سنة ٤١٣هـ .

٢- هو مؤيد الملك أبو على الحسن بن الحسن الرُّخَّجى كان شرف الدولة بن بهاء الدولة قد استوزره فى سنة ٤١٣هـ وامدحه مهيار وغيره من الشعراء واستمر فى الوزارة سنتين ثم عزل وكان عظيم الجاه فى زمن عطلته ومات سنة ٤٣٠هـ وقد قارب الثمانين.

٣- طبقات الأطباء ج١ ص٢٥٣ .

٤- ميافارقين أشهر مدينة بديار بكر واسمها فارسى أطلقه بعض أكاسرة الفرس وأصلها رومية واسمها بالرومية Martyropolis .

تقوم بكفايته وجعل فيه من الآلات وجميع ما يحتاج إليه شيئًا كثيرًا جدًا، فجاء لامزيد عليه فى الجودة ، وكان مقررًا فى هذه البيمارستان مجلس للعلم يجيب فيه زاهد العلماء على المسائل والجوابات.

١٤- بيمارستان باب مُحَوَّل

ذكر العينى[١] فى حوادث سنة ٤٤٩هـ أنه كان مارستان في باب مُحَوَّل ، ولكنه دثر فلا عين ولا أثر ، وباب مُحَوَّل محلة كبيرة كانت منفردة بجنب الكرخ ببغداد وكانت متصلة بالكرخ أولاً.

١٥- بيمارستان الموصل

قال ابن كثير[٢] : فى سنة ٥٧٢هـ بنى الأمير مجاهد الدين قايماز[٣] نائب قلعة الموصل جامعًا (الجامع المجاهدى) حسنًا ورباطًا . ومدرسة ومارستانا متجاورات بظاهر مدينة الموصل على دجلة . وأوقف عليه الأوقاف. وذكر الصفدى فى الوافى بالوفيات: أن الحسن بن على بن سعيد بن عبدالله علم الدين بن محمد بن على بن أبى منصور وزير الموصل، كثير الأفضال عليه فولاه البيمارستان بالموصل ، وبعد وفاته وفد على نورالدين الشهيد فأكرمه إلى أن مات سنة ٥٧٢هـ وفى سنة ٥٨٠هـ زار الموصل أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير[٤] الرحالة المغربى فذكر أن أحد أمراء بلدة الموصل وكان يعرف بمجاهد الدين بنى جامعًا على شط دجلة وأمامه مارستان حفيل من بناء مجاهد الدين المذكور وحوالى سنة ٧٢٨ هـ دخل الرحالة ابن بطوطة مدينة الموصل فوجد بها مارستانًا أمام مسجدها الجامع.

١- كتاب عقد الجمان فى تاريخ زهل الزمان حوادث سنة ٤٤٩هـ.

٢- البداية والنهاية حوادث سنة ٥٧٢ .

٣- الأمير مجاهد الدين قايماز أبو منصور الرومى الزينى الخادم الابيض كان لزين الدين صاحب أربل، فأعتقه وأمّره . انتقل إلى الموصل سنة ٥٧١هـ وفوض إليه صاحب الموصل غازى بن مودود أمورها وامتدت أيامه ، فلما وصلت السلطنة إلى أرسلان شاه قبض على قايماز شاه وسجنه إلى أن مات فى السجن سنة ٥٩٥هـ وكان ديّنا صالحا يتصدق كل يوم خارجا عن الرواتب بمائة دينار وكان يصوم فى السنة ستة شهور ومدحه ابن التعاويذى وغيره من الشعراء وبنى بالموصل الجامع والمدرسة والرباط والمارستان (تاريخ الاسلام للذهبى وشذرات الذهب لابن العماد والبداية والنهاية).

٤- الرحلة ص٢٣٥ طبع ليدن.

١٦- بيمارستان حَرَّان(١)

ذكر أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير(٢) الرحالة المغربى فى رحلته إلى المشرق حوالى سنة ٥٨٠هـ أن ببلدة حرَان مدرسة وبيمارستانًا.

١٧- بيمارستان الرَّقة(٣)

لم نعرف عن هذا البيمارستان شيئًا سوى ما ذكره ابن أبى أصيبعة من أن الحكيم بدر الدين بن قاضى بعلبك خدم بالرُّقة فى البيمارستان الذى بها وصنف مقالة حسنة فى مزاج الرقة وأحوال أهويتها وما يغلب عليها وأقام بها سنين.

١٨- بيمارستان نصيبين

قال ابن بطوطة الرحالة المغربى(٤) زرنا مدينة نصيبين حوالى سنة ٧٢٠هـ وهى مدينة عتيقة متوسطة قد خرب أكثرها وهى بسيط أفيح. فيه المياه الجارية والبساتين الملتفة والأشجار المنتظمة والفواكه الكثيرة وبها يصنع ماء الورد الذى لانظير له فى العطارة والطيب ويدور بها نهر يعطف عليها انعطاف السوار، منبعه من عيون فى جبل قريب منها، وينقسم انقسامًا فيتخلل بساتينها. ويدخل منه نهر إلى المدينة فيجرى فى شوارعها ودونها ويخترق صحن مسجدها الأعظم وينصب فى صهريجين أحدهما وسط الصحن والآخر عند الباب الشرقى . وبهذه المدينة مارستان ومدرستان وأهلها أهل صلاح ودين .

١- حَرّان مدينة عظيمة قصبة ديار مضر بينها وبين الرُّها يوم ، وبينها وبين الرقة ، يومان وهي على طريق الموصل والشام والروم وكانت منزل الصابئة وينسب إليها جماعة من أهل العلم ، فتحت فى أيام عمر بن الخطاب وهى الآن بولاية [محافظة] حلب.

٢- الرحلة ص٢٤٧ طبع ليدن.

٣- الرقة مدينة مشهورة من بلاد الجزيرة على الفرات بالقرب من حران بينها وبين حران ثلاثة أيام لأنها من جانب الفرات الشرقى وهى وحران تقعان شرقى حلب.

٤- تحفة النظار فى غرايب الأمصار وعجائب الأسفار ج٢ ص١٤٠ .

بيمارستانات الشام

١- بيمارستان الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى

قال الشيخ أبو العباس أحمد القلقشندى [١]: إن أول من اتخذ البيمارستان بالشام للمرضى الوليد بن عبد الملك وهو سادس خلفاء بنى أمية تولى الخلافة سنة ٨٦هـ - ٧٠٥م وقال رشيد الدين بن الوطواط [٢]: أول من عمل البيمارستان وأجرى الصدقات على الزمنى والمجذومين والعميان والمساكين ، واستخدم لهم الخُدَّام : الوليد بن عبد الملك . وقال تقى الدين المقريزى [٣]: أول ما بنى البيمارستان فى الإسلام ودار المرضى الوليد بن عبد الملك. وهو أيضا أول من عمل دار الضيافة وذلك سنة ٨٨هـ ٧٠٦م وجعل فى البيمارستان الأطباء وأجرى لهم الأرزاق وأمر بحبس المجذّمين لئلا يخرجوا ، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق ولم يصل إلينا أى علم أو إشارة عن المكان الذى أنشأ فيه الوليد البيمارستان .

٢- بيمارستان انطاكية

جاء فى كتاب كنوز الذهب فى تاريخ حلب[٤] عن المختار بن الحسن بن بُطْلان : أنه هو الذى بنى البيمارستان بأنطاكية وقال: وقفت على مقالة وضعها ابن بطلان فى علة نقل الأطباء تدبير الأمراض التى كانت تعالج قديمًا بالأدوية الحارة إلى التدبير المبرد كالفالج واللقوة ، ومخالفتهم فى ذلك لمسطور القدماء صنفها سنة ٤٥٥هـ ١٠٦٣م بأنطاكية قال فى آخرها : قال المختار بن الحسن : صنفت هذه المقالة لصديق لى وأنا يومئذ مكدود الجسم منقسم الفكر فى جمع الآلات لبناء بيمارستان أنطاكية.

١- صبح الأعشى ج١ ص٤٣١ .

٢- غرر النقائض الفاضحة وغرر الخصائص الواضحة ص٢٤٨ طبع بولاق .

٣- الخطط والآثار ج ٢ ص٤٠٥ طبع بولاق.

٤- كتاب كنوز الذهب لموفق الدين أبى ذر أحمد بن إبراهيم الشهير بسبط ابن العجمى الحلبى المتوفى سنة ٨٨٤هـ ١٤٣٩م وهو ذيل لتاريخ حلب لابن العديم المتوفى سنة ٦٦٠ مخطوط.

وقال جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف القفطى[1] فى سياق كلامه عن أنطاكية ودخول ابن بُطْلان إليها نقلا عن ابن بطلان نفسه : وفى البلد بيمارستان يراعى البطريرك المرضى فيه بنفسه. وكذلك قال ابن أبى أصيبعة[2] عن مقالة ابن بطلان فى علة نقل الأطباء: وصنف ابن بطلان هذه المقالة بأنطاكية سنة ٤٥٥هـ وكان فى ذلك الوقت قد أُهِّلَ لبناء بيمارستان بأنطاكية.

ابن بطلان

هو أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان نصرانى من أهل بغداد:

خرج من بغداد إلى مصر قصداً منه إلى مشاهدة على بن رضوان الطبيب، وكان دخوله إلى الفسطاط فى مستهل جمادى الآخرة سنة ٤٤١هـ ١٠٤٩م وأقام بها ثلاث سنين وذلك فى دولة المستنصر بالله الفاطمى، وجرت بينهما مناظرة ومنافرة، وألف ابن بطلان كتابا تضمن كثيراً مما وقع بينه وبين ابن رضوان ، وسافر ابن بطلان إلى قسطنطينية وأقام بها سنة ثم ورد أنطاكية وبنى بها البيمارستان إلى أن توفى سنة ٤٥٥هـ وقيل ٤٥٨هـ .

٣- المارستان الصغير بدمشق

ذكر ابن العماد فى شذرات الذهب[3]: المارستان الصغير بدمشق أقدم من المارستان النورى وكان مكانه فى قبلة مطهرة الجامع الأموى وأول من عمره بيتًا وخرب رسوم المارستان منه أبو الفضل الأخناوى، ثم ملكه بعده أخوه البرهان الأخناوى وهو تحت المئذنة الغربية بالجامع الأموى من جهة الغرب وينسب إلى أنه عمارة معاوية أو ابنه .

١- تاريخ الحكماء ص٢٩٧ طبع ليبسيك .

٢- عيون الأنباء ج١ ص٢٤٣ .

٣- شذرات الذهب ج٣ ص٤٠٧ .

٤- البيمارستان الكبير النورى

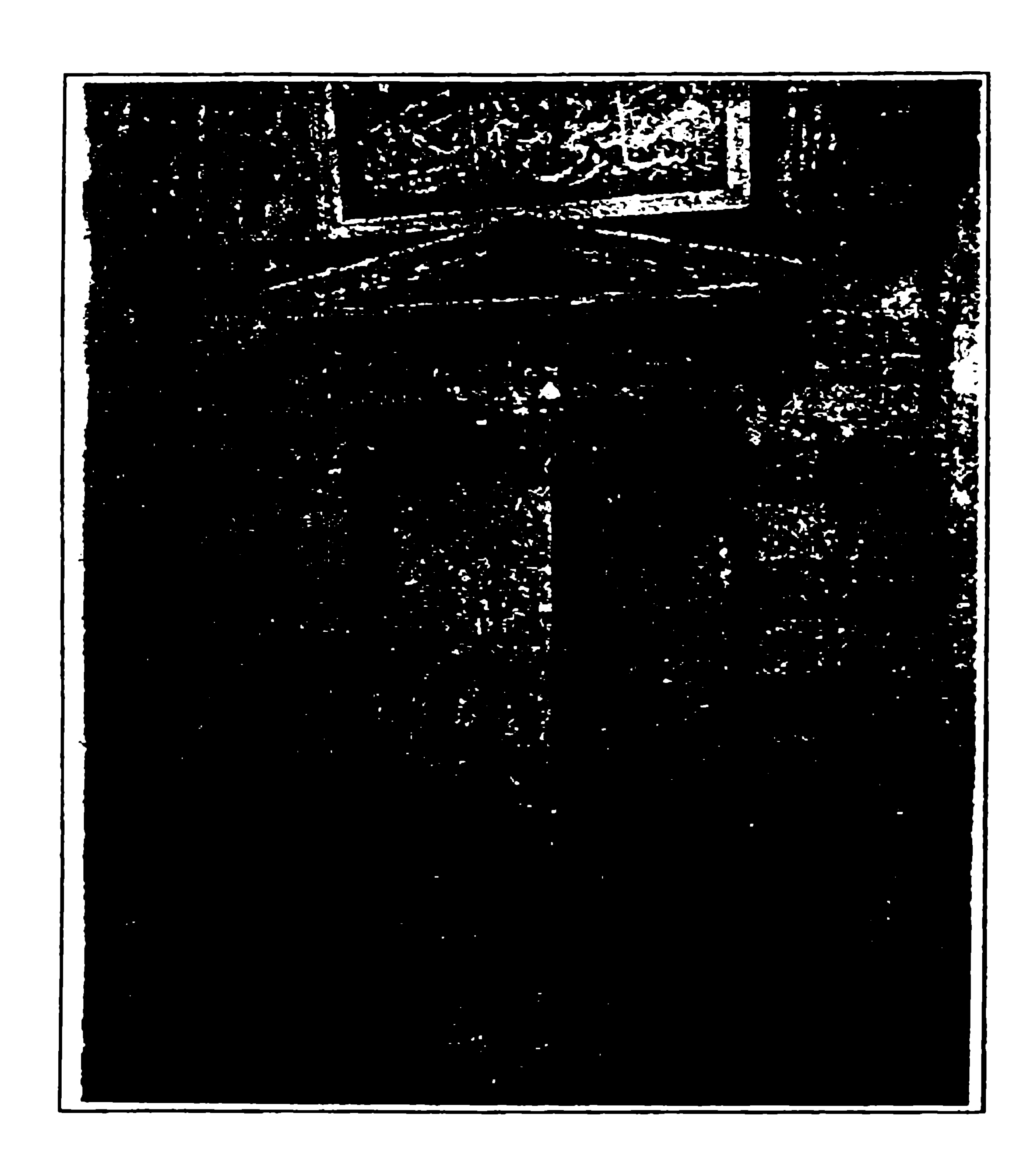
ملك السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى دمشق سنة ٥٤٩هـ ١١٥٤م، وكان قد أسَرَ بنفسه[١] فى بعض الغزوات بعض ملوك الفرنج، فاستشار الأمراء فيه : هل يقتله أو يأخذ منه ما يبذله من المال فى الفداء؛ فاختلفوا عليه ثم حسن له رأيه إطلاقه وأخذ الفداء. فحين جهز بَعْث الفداء مات ببلده فأعجب ذلك نور الدين وأصحابه، وابتنى نور الدين من ذلك المال البيمارستان الذى بنى بدمشق- وهو أحسن ما بنى من البيمارستان بالبلاد ومن شرطه: أنه على الفقراء والمساكين وإذا لم يوجد بعض الأدوية التى يعز وجودها إلا فيه فلا يمنع منه الأغنياء ، ومن جاء إليه مستوصفًا فلايمنع من شرابه. ولهذا جاء إليه نور الدين وشرب من شرابه رحمه الله. ويقول بعض الناس: إنه لم تخمد عنه النار منذ بنى إلى زماننا (أى زمان ابن كثير الذى ننقل عنه هذا الكلام وقد توفى سنة (٧٧٤هـ) . وقال ابن جبير [٢] : وقد دخل دمشق سنة ٥٨٠: وبها مارستان قديم وحديث والحديث ، أحفلهما وأكبرهما وجرايته فى اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً، وله قَومَة وبأيديهم الأزمّة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التى يحتاجون إليها فى الأدوية والأغذية وغير ذلك حسبما يليق بكل إنسان منهم ، والأطباء يبكرون إليه فى كل يوم، ويتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية. والمارستان الآخر على هذا الرسم ، لكن الاحتفال فى الجديد أكثر وهذا المارستان القديم هو غربى الجامع المكرم. وللمجانين المعتقلين أيضا ضرب من العلاج وهم فى سلاسل موثوقون وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام. وقال ابن أبى أصيبعة[٣] : لما أنشأ الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى[٤] البيمارستان الكبير ، جعل أمر الطب فيه إلى أبى المجد

١- البداية والنهاية لابن كثير حوادث سنة ٥٦٩ مخطوط.

٢- الرحلة ص٢٨٣ طبع ليدن.

٣- عيون الأنباء ج٢ ص١٥٥ .

٤- هو أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكى بن آق سنقر الملقب بالملك العادل نور الدين. ولد يوم الأحد ١٧ شوال سنة ٥١١ هـ ملك الشام وديار الجزيرة ومصر. وكان ملكًا زاهدًا عابدًا ورعًا مائلاً إلى أهل الخير، كثير الصدقات . قال ابن الأثير: قد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ، ولا أكثر تحريا منه للعدل، وكان لايأكل ولايلبس ولايتصرف فى الذى يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه فى الغنيمة، ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين. وكان عارفًا بالفقه وسمع الحديث وأسمعه طلبا للأجر. وأما عدله فإنه لم يترك فى بلاده على سعتها مكسًا ولاعشرًا، وكان يعظم الشريعة ويقف عند أحكامها ، وقد حصن البلاد وبنى المدارس الكثيرة والجوامع والبيمارستانات=



شكل ٨- باب بيمارستان نور الدين منقولاً عن كارل ولزنجر وكارل وتزنجر

ابن أبى الحكم بن عبيدالله بن المظفر بن عبدالله الباهلى، وأطلق له جامكية وجراية، وكان يتردد إليه ويعالج المرضى فيه، وكان أبو المجد بن أبى الحكم يدور عليهم ويتفقد أحوالهم ويعتبر أمورهم، وبين يديه المشارفون والقوّام لخدمة المرضى ، فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لايؤخر عنه ولايتوانى فى ذلك. ثم قال: وبعد فراغه من ذلك وطلوعه إلى القلعة وافتقاده المرضى من أعيان الدولة يأتى ويجلس فى الإيوان الكبير الذى بالبيمارستان ، وجميعه مفروش ، ويحضر كتب الاشتغال. وكان نور الدين رحمه الله قد وقف على هذا البيمارستان جملة كتب من الكتب الطبية، وكانت فى الخرستانين اللذين فى صدر الإيوان فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه، ثم تجرى مباحث طبية ويقرئ التلاميذ ولايزال معهم فى اشتغال ومباحثة ونظر فى الكتب مقدار ثلاث ساعات.

قال جمال الدين بن تغرى بردى[١] فى سنة ٥٩٧ جاءت فى شعبان زلزلة من مصر امتدت إلى دمشق فرمت بعض المنارة الشرقية بجامع دمشق وأكثر الكلاّسة البيمارستان النورى.

وقال خليل بن شاهين الظاهرى[٢] بعد أن زار دمشق : وبها مارستان لم ير مثله فى الدنيا قط، واتفقت نكتة أحببت أن أذكرها : وهى أنى دخلت دمشق فى سنة ٨٣١هـ (١٤٢٧م) وكان بصحبتى رجل عجمى من أهل الفضل والذوق واللطافة ، وكان قصد الحج فى تلك السنة فلما دخل البيمارستان المذكور ونظر ما فيه من المآكل والتحف واللطائف التى لاتحصى، قصد اختبار رجال البيمارستان المذكور فتضاعف (تمارض) وأقام به ثلاثة أيام، ورئيس الطب يتردد إليه ليختبر ضعفه ، فلما حبس نبضه وعلم حاله وصف له ما يناسبه من الأطعمة الحسنة والدجاج المسمنة والحلوى والأشربة والفواكه المتنوعة . ثم بعد ثلاثة أيام كتب له ورقة من معناها: أن الضيف لايقيم فوق ثلاثة أيام. وهذا فى غاية الحذاقة والظرافة . وقيل إن البيمارستان المذكور منذ عمّر لم تنطفئ فيه النار. ولما أتى بدر الدين بن قاضى بعلبك إلى

= والخانات فى الطرق ، والخانكاهات فى جميع البلا ،. وأوقف على الجميع الوقوف الكثيرة وكان يكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم ولايرد إليهم قولاً وكان وقوراً مهيبًا مع تواضعه ، وبالجملة فقد كان له من المفاخر والمآثر ما يستغرق الوصف ، توفى يوم الأربعاء عشر شوال سنة ٥٦٩هـ بقلعة دمشق ودفن بها فى تربته بمدرسته التى أنشأها عند باب سوق الخواصين.

١- النجوم الزاهرة ج٦ ص١٧٤ .

٢- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك لغرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى طبع باريس سنة ١٨٩٤م.

دمشق ولاه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين مودود بن الملك العادل بعد أن تملك دمشق فى سنة ٦٣٥ الرياسة على جميع الأطباء والكحالين والجرائحيين ، فلم يزل مجتهداً حتى اشترى دوراً كثيرة ملاصقة للبيمارستان الكبير النورى، وتعب فى ذلك تعباً كثيراً واجتهد بنفسه وماله حتى أضاف هذه الدور المشتراة إليه، وجعلها من جملته ، وكبّر بها قاعات كانت صغيرة وبناها أحسن البناء وشيدها وجعل الماء فيها جارياً فتكمل بها البيمارستان[1] وذكر ابن الوردى [2]:أنه فى سنة ٧٢٨هـ جاء سيل عظيم على عجلون (دمشق) خرب سوق التجار والمارستان والدباغة وبعض الجامع. وذكر ابن تغرى بردى[3] أن شيخ الاسلام شهاب الدين الغزّى المتوفى سنة ٨٢٢ تولى نظر البيمارستان النورى .

وذكر السخاوى [4]: أن الشيخ المؤرخ تقى الدين المقريزى كاتب التوقيع فى ديوان الإنشاء بمصر والمتوفى سنة ٨٤٥هـ كان قد دخل دمشق مراراً وتولى بها نظر وقف القلانسى والبيمارستان الكبير النورى مع كون شرط نظره لقاضيها الشافعى، وهذا يشبه بالتمام نظر البيمارستان المنصورى بالقاهرة فإنه لقاضيها الشافعى. وقد كان للبيمارستان الكبير النورى من المكانة بحيث كان النظر عليه لنائب السلطنة بدمشق[5] قال القلقشندى: ومن الوظائف الديوانية الكبيرة بدمشق نظر البيمارستان الكبير النورى وقد صار معدوقاً بالنائب (أى نائب السلطنة) يفوض التحدث فيه إلى من يختاره من أرباب الأقلام ، وكذلك يكون معه نظر الجامع الأموى بدمشق».

ولبيان حال هذا المارستان فى العصور المتأخرة وما كان عليه من الأهمية والمكانة ننقل هنا ما ذكره المحبى[6] بصدده قال: «إن حسن باشا بن عبدالله الأمين المعروف بشوربزه حسن، أحد صدور دمشق وأعيانها المتوفى سنة ١٠٢٧ هـ ولى وقف البيمارستان الكبير النورى فأقام شعائره بعد أن كانت اضمحلت وعمّر أوقافه وأتى فيه من حسن التنمية بما لا مزيد عليه.

١- طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ج٢ ص ٢٦ .

٢- تاريخ ابن الوردى ص٢٩٠ .

٣- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى مخطوط.

٤- التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص٢٢ .

٥- صبح الأعشى ج٤ ص١٨٤ .

٦- خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى ج٢ ص٢٥ .

وأخبرني العالم الجليل الأستاذ محمد كرد على بك من أعلام دمشق حالاً : أن البيمارستان الكبير النورى ظل عامرًا يعالج فيه المرضى إلى سنة ١٢١٧ هـ (١٨٩٩م) وكان أطباؤه وصيادلته لايقلون عن العشرين حتى قامت بلدية دمشق ، فى عهد ولاية حسين ناظم باشا والى سوريا سابقًا بإنشاء مستشفى للغرباء فى الجانب الغربى من تكية السلطان سليمان، المطلة على المرج الأخضر، وجمعت له الإعانات بأساليب مختلفة، من واردات البلدية وأوقاف البيمارستان النورى لتنفق عليه، وسمى المستشفى الحميدى نسبة إلى السلطان العثمانى عبد الحميد الذى بنى المستشفى الجديد فى عهده . وهكذا خلف المستشفى الحميدى البيمارستان النورى نفسه فقد جعل مدرسة للبنات[1] ولاتزال واجهته على حالها وبها بعض الحجرات والنوافذ من البناء القديم وسطت الأيام على بقية البيمارستان فعفا أثرها.

* * *

فى رأس مصراعى باب البيمارستان النورى الكبير شكل ٩ سطر دقيق محفور على النحاس يمتد طولاً كشف حديثًا هذا نصه :

عز لمولانا الملك العادل العالم الزاهد المجاهد المرابط المؤيد المعظم المنصور نور الدين ركن الإسلام والمسلمين محيى العدل فى العالمين (ناصر) الحق بالبراهين منصف المظلومين من الظالمين قاتل الكفرة والمشركين أبى القاسم محمود ابن زنكى بن آقنسقر ناصر أمير المؤمنين أدام الله أيامه.

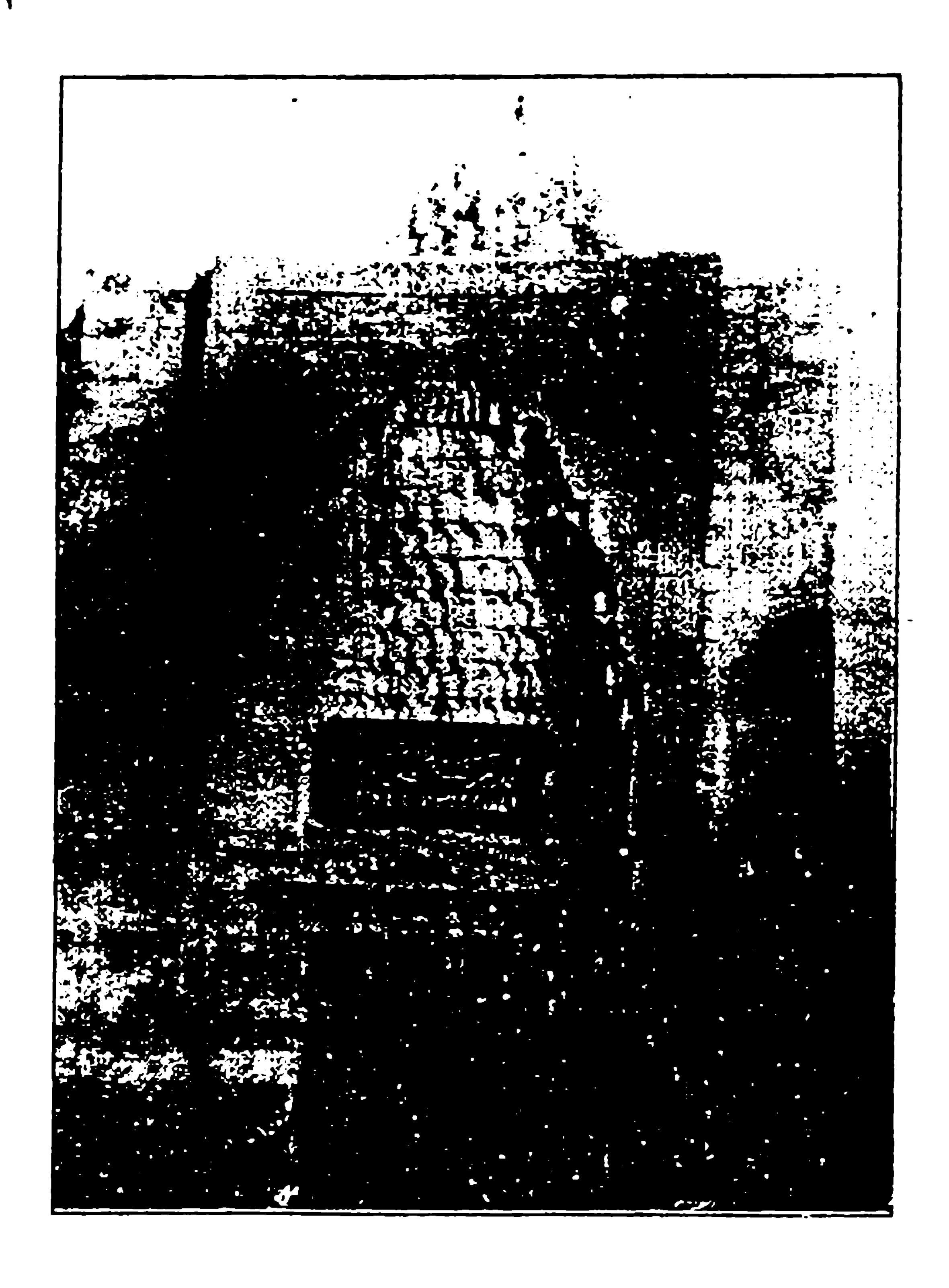
وهذه صورة ما هو مكتوب على الباب الداخلى تحت القبة الظاهرة فى الشكل (٩) وفيه إشارة إلى من جدد بناءه:

بسم الله الرحمن الرحيم : «الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لايتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون»* «وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرًا وأعظم أجرًا»* وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينفع أو ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية» والمولى الشهيد السلطانى الغازى فى سبيل الله نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكى قدس الله روحه ممن

١- ثم اتخذ سنة ١٩٣٧ دارًا لمدرسة التجارة الرسمية. وهمة دار الآثار الآن مبذولة فى إعادة معالمه كما كانت فى القديم.

* البقرة : ٢٦٢ .

* البقرة : ١١٠ .



شكل ٩- وجه البيمارستان النورى بدمشق

ويرى أعلاه قبة المدخل رممت حديثًا على الشكل الذى كانت عليه فى القديم

جمع الله سبحانه وتعالى لذاته وصف العالمين. ومن شرط وقفه الذى أشهد به على نفسه أنه وقف على البيمارستان المعروف (باسمه) وجعله مقرًا لتداوى الفقراء والمنقطعين من ضعفه المسلمين الذين يرجى برؤهم وهو يستعدى إلى الله تعالى على من يساعد فى تغيير مصارف وقفه وإخراجها عما شرط حاكمه وتخاصمه بين يديه «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً»[1] وجدد ما كان تهدم من بنائه وبناء أوقافه فى الأيام السلطانية العادلة المنصورية الصالحة خلد الله سلطانها بنظر الفقير إلى الله تعالى عمر بن أبى الطيب غفر الله له ولمن أعانه من البنّائين على عمارة هذا الوقف المبارك وكان الفراغ منه فى العشر الأوسط من شهر ربيع الآخر.

الأطباء الذين عملوا فى البيمارستان الكبير النورى

١- **مهذب الدين بن النقاش**: هو الشيخ الإمام أبو الحسن على بن أبى عبدالله عيسى بن هبة الله النقاش مولده ومنشؤه ببغداد ، عالم بعلم العربية والأدب ، واشتغل بصناعة الطب وكان له مجلس علم للمشتغلين عليه. وتوجه إلى مصر وأقام بالقاهرة مدة ثم رجع إلى دمشق وخدم بصناعة الطب الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى، وكان يعانى كتابة الإنشاء وخدم فى البيمارستان الكبير النورى وكانت وفاته يوم السبت ١٢ محرم سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨م) .

٢- **موفق الدين بن المطران** : هو الحكيم العالم موفق الدين أبو نصر أسعد بن أبى الفتح إلياس بن جرجيس المطران : كان مولده ومنشؤه بدمشق وكان أبوه أيضًا طبيبًا . وخدم بصناعة الطب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وأسلم ابن المطران فى أيامه . وكانت له همة عالية فى تحصيل الكتب ومات وفى خزانة كتبه ما يناهز عشرة آلاف من الكتب الطبية. وكان ابن المطران بالبيمارستان الكبير النورى يعالج المرضى المقيمين به توفى فى شهر ربيع الأول سنة ٥٨٧هـ (١١٩١م) بدمشق.

٣- **ابن حمدان الجرائحى** : كان من جملة أطباء البيمارستان الكبير النورى ومعاصراً لموفق الدين بن المطران .

٤- **أبو الفضل بن عبد الكريم المهندس** : هو مؤيد الدين أبو الفضل محمد بن عبد الكريم ابن عبد الرحمن الحارثى: مولده ومنشؤه بدمشق وكان يعرف بالمهندس لجودة معرفته بالهندسة قبل أن يتحلى بمعرفة صناعة الطب، واشتغل أيضًا بصناعة النجوم وعمل الزيج وكانت له جامكية لطبه فى البيمارستان الكبير النورى وبقى فيه إلى أن توفى سنة ٥٩٩هـ (١٢٠٢م) بدمشق وعاش نحو السبعين.

١- آل عمران : ٣٠ .

٥- موفق الدين عبد العزيز: هو الشيخ الإمام موفق الدين عبد العزيز عبد الجبار بن أبى محمد السلمى : كان كثير الخير شديد الشفقة على المرضى وكان فى أول الأمر فقيهًا ثم اشتغل بعد ذلك بصناعة الطب وخدم فى البيمارستان الكبير النورى، خدم الملك العادل أبابكر بن أيوب وتوفى بدمشق فى يوم الجمعة ٢٠ ذى القعدة سنة ٦٠٤هـ (١٢٠٧م) وعَمّر نحو الستين سنة.

٦- كمال الدين الحمصى : هو أبو منصور المظفر على بن ناصر القرشى اشتغل بصناعة الطب والأدب وكان محبًا للتجارة وأكثر معيشته منها ويكره التكسب بصناعة الطب، وبقى سنين يتردد إلى البيمارستان الكبير النورى ويعالج المرضى فيه احتسابًا إلى أن توفى فى يوم الثلاثاء ٩ من شعبان سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥م) .

٧- رشيد الدين على بن خليفة : هو أبو الحسن على بن خليفة بن يونس بن أبى القاسم بن خليفة بن الخزرج مولده بحلب سنة ٥٧٩هـ (١١٨٣م) ثم توجه إلى مصر واشتغل بصناعة الطب، ولازم جمال الدين بن أبى الحوافر رئيس الأطباء بمصر وملكها العزيز عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين ولازم مشاهدة المرضى بالبيمارستان . وفى سنة ٥٩٣هـ انتقل إلى الشام وباشر المرضى فى البيمارستان الكبير النورى وجعل له مجلسا لتدريس صناعة الطب توفى يوم الاثنين فى ١٧ شعبان سنة ٦١٦هـ .

٨- مهذب الدين عبد الرحيم بن على: هو الشيخ الإمام العالم مهذب الدين أبو محمد عبد الرحيم بن على بن حامد ويعرف بالدخوار ، مولده ومنشؤه دمشق، وكان أبوه كحالاً مشهوراً . وخدم مهذب الدين كحالاً بالبيمارستان الكبير النورى ثم اشتغل بصناعة الطب ثم توجه إلى الديار المصرية ، وخدم الملك العادل أبا بكر بن أيوب وولاه رياسة الطب بمصر والشام. ثم أقام بدمشق وتولى العلاج بالبيمارستان الكبير النورى ثم شرع فى تدريس صناعة الطب واجتمع إليه كثير من أعيان الأطباء ووقف دا ره وجعلها مدرسة للطب ووقف لها ضياعا وعدة أماكن وتوفى ليلة الاثنين ١٥ شهر صفر ٦٢٨هـ ١٢٣٠م.

٩- مهذب الدين أحمد بن الحاجب : كان طبيبًا مشهوراً فى الصناعة الطبية متقنا للعلوم الرياضية معتنيًا بالأدب مولده بدمشق ونشأ بها وخدم بصناعة الطب البيمارستان الكبير النورى.

١٠- ابن اللبودى: هو العالم شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عبدان بن عبد الواحد بن اللبودى: أتقن الحكمة وصناعة الطب وكان له مجلس لتدريس هذه الصناعة وخدم الملك الظاهر

غياث الدين غازى بن الملك الناصر. وأقام عنده بحلب ، ثم أتى إلى دمشق وأقام بها يدّرس الطب ويطب فى البيمارستان الكبير النورى ، وتوفى بدمشق فى ٤ ذى القعدة سنة ٦٢٢هـ وله من العمر ٥١ سنة.

١١- **عمران الإسرائيلى:** هو الحكيم أوحد الذين عمران بن صدقة، مولده بدمشق فى سنة ٥٦١هـ وكان أبوه طبيبًا مشهوراً وكان الملك المعظم قد أطلق له جامكية ويتردد إلى البيمارستان الكبير النورى وتوفى فى حمص في شهر جمادى الأولى سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩م) .

١٢- **سديد الدين بن رقيقة:** هو أبو الثناء محمود بن عمر بن محمد بن إبراهيم بن شجاع الشيبانى الحانوى ويعرف بابن رقيقة كان مولده سنة ٥٦٤هـ بمدينة حينى ونشأ بها وكانت له معرفة بصناعة الكحل والجراح ، وحاول كثيراً من أعمال الحديد[١] فى مداواة أمراض العين وقدح الماء النازل فى العين لجماعة وأنجب قدحه وأبصروا . وكان المقدح الذى يعانيه مجوفًا وله عطفة ليتمكن فى وقت القدح من امتصاص الماء، ويكون العلاج أبلغ وفى سنة ٦٣٢هـ وصل إلى دمشق إلى السلطان الأشرف وأمر بأن يواظب على معالجة المرضى بالبيمارستان الكبير النورى وتوفى فى سنة ٦٣٥هـ وكان شاعراً مجيداً.

١٣- **الجمال المحقق أحمد بن عبدالله بن الحسين الدمشقى**[٢] اشتغل بالفقه وبرع فيه وكان فاضلا فى الطب وقد ولى الدخوارية وعاد المرضى بالمارستان على قاعدة الأطباء ، وكان مدرسا للشافعية بالفُرّخشاهية ومعيداً بعدة مدارس وكان جيد الذهن مشاركا فى فنون كثيرة توفى سنة ٦٤٩هـ .

١٤- **سعد الدين بن عبد العزيز** : هو الحكيم العالم سعد الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد العزيز بن عبد الجبار بن أبى محمد السلمى ولد بدمشق سنة ٥٩٣هـ (١١٨٧م) وخدم بصناعة الطب البيمارستان الكبير النورى إلى أن توفى فى سنة ٦٤٤هـ ١٢٤٦م بدمشق.

١٥- **رضى الدين الرحبى:** انظر ترجمته فى البيمارستان الناصرى ص١٠٨ .

١٦- **جمال الدين بن الرحبى:** هو جمال الدين عثمان بن يوسف بن حيدرة الرحبى أخو السابق، اشتغل بصناعة الطب على والده بدمشق وخدم البيمارستان الكبير النورى وبقى به

١- أعمال الحديد تطابق فى الاصطلاح الطبى العصرى إجراء العمليات الجراحية.

٢- عن البداية والنهاية لابن كثير وشذرات الذهب لابن العماد وتاريخ الاسلام للذهبى.

سنين ولما وصل التتار إلى الشام سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٨م) توجه إلى مصر وأقام بها وتوفى بالقاهرة سنة ٦٥٨هـ (١٢٥٩م) .

١٧- **شرف الدين بن الرحبي:** هو شرف الدين أبو الحسن على بن يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبى . ولد بدمشق سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) واشتغل بصناعة الطب وخدم مدة فى البيمارستان الكبير النورى ودرّس بالمدرسة الدخوارية وتوفى سنة ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) .

١٨- **شمس الدين محمد الكلي:** هو الحكيم العالم أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن أبى المحاسن، كان أبوه أندلسيًا وأتى إلي دمشق ونشأ شمس الدين بدمشق وقرأ صناعة الطب وحفظ كليات القانون حفظًا جيدًا، ولذلك قيل له الكلى. وخدم بصناعة الطب الملك الأشرف موسى بدمشق ثم فى البيمارستان الكبير النورى.

١٩- **عز الدين بن السويدى :** هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد كان أبوه تاجراً من السويداء بحوران، ولد بدمشق سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٣م) ونشأ بها واشتغل بصناعة الطب وقرأ علم الأدب وأتقن العربية وأجاد الشعر وخدم فى البيمارستان الكبير النورى وفى بيمارستان باب البريد وكان مدرسًا بالدخوارية .

٢٠- **عماد الدين الدنيسرى:** هو عماد الدين أبو عبدالله محمد ابن القاضى الخطيب تقى الدين عباس بن أحمد بن عبيد الربعى مولده بدُنَيْسَر فى سنة ٦٠٥ ونشأ بها واشتغل بصناعة الطب وتميز فى الأدب والفقه خدم فى البيمارستان الكبير النورى.

٢١- **بدر الدين بن قاضى بعلبك:** هو الحكيم العالم بدر الدين المظفر ابن القاضى الإمام مجد الدين عبد الرحمن بن إبراهيم نشأ بدمشق واشتغل بصناعة الطب وخدم فى البيمارستان الذى بالرقة. وصنف مقالة فى مزاج الرقة وأحوال أهويتها . ثم أتى إلى دمشق وخدم الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين مودود وذلك فى سنة ٦٣٥هـ . وولى رياسة جميع الأطباء والكحالين والجرائحيين والبيمارستان الكبير النورى وقرأ الفقه والتفسير.

٢٢- **جمال الدين بن عبدالله :** بن عيد السيد[1] أسلم مع والده الذبان وكان من أطباء المارستان النورى بدمشق توفى سنة ٧٣٥ هـ ودفن فى قبر أعده لنفسه .

١- تاريخ الإسلام لابن الوردى ج٢ ص٣١٠ .

٢٣- عبدالله بن عبد الحق[١] بن إبراهيم بن محمد بن عبد الحق رئيس الجرائحية جمال الدين القاهرى ويعرف بابن عبد الحق: ولد قبل القرن ودخل فى سفره مع أبيه الشام فى خدمة الناصر فرج، وتميز فى صناعة الطب وباشر رياسة الجرائحية وقتًا وتقدم فى أيام الأشرف إينال ولم ينفك عن ملازمة البيمارستان كل يوم مات فى ربيع الأول سنة ٨٩١هـ ودفن بتربة ابن جماعة بالقرب من الصوفية.

٥- البيمارستان النورى أو العتيق بحلب

ذكر **ابن القفطى**[٢] أن المختار بن الحسن بن عبدون المعروف بابن بُطلان خرج من بغداد فى مستهل شهر رمضان سنة ٤٤٠هـ مصعداً ، فوصل إلى حلب فوجد فيها جامعًا وست بيع وبيمارستانًا صغيراً . وروى صاحب كنوز الذهب فى تاريخ حلب أن المختار بن الحسن بن عبدون المعروف بابن بطلان هو الذى وضع البيمارستان بحلب وجدَّد نور الدين محمود بن زنكى عمارته. وقال فى الدار المنتخب [٣]: إن البيمارستان النورى بناه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بحلب داخل باب أنطاكية بالقرب من سوق الهواء فى محلة الجلّوم الكبرى فى الزقاق المعروف الآن بزقاق البهرمة. ويقال : إن **الملك العادل نور الدين** تقدم إلى الأطباء أن يختاروا فى حلب أصح بقعة صحيحة الهواء لبناء البيمارستان بها، فذبحوا خروفًا وقطعوه أربعة أرباع، وعلقوها بأرباع المدينة ليلاً فلما أصبحوا وجدوا أحسنها رائحة الربع الذى كان فى هذا القطر، فبنوا المارستان فيه. ووقفت عليه قرية معراتا ونصف مزرعة وادى العسل من جبل سمعان وخمسة أفدنة من مزرعة كفر تابا وثلث مزرعة الخالدى وطاحونًا من المطخ وثُمْن طاحون ظاهر باب الجنان وثمانية أفدنة من مزرعة أبو مرايا من غراز ، وخمسة أفدنة من مزرعة الحميرة من المطخ وثُمْن طاحون ظاهر باب الجنان وثمانية أفدنة من مزرعة أبو مرايا من غراز ، وخمسة أفدنة من مزرعة الحميرة من المطخ واثنى عشر فدانًا من مزرعة دكاكين بسوق الهواء وهو الآن معروف بسوق الجمرك منها ثلاثة تمام، والباقى شركة الجامع الكبير وأحكار ظاهر باب أنطاكية وباب الفرج وباب الجنان. ومكتوب على البيمارستان[٤] عند باب

١- الضوء اللامع للسخاوى.

٢- تاريخ الحكماء ص٢٩٥ طبع ليبسيك .

٣- انظر كتاب أعلام النبلاء فى تاريخ حلب الشهباء.

٤- كتاب تحفة الأنباء فى تاريخ حلب الشهباء تأليف بطرس الجرمانى طبع بيروت سنة ١٨٨٠ ص١٤٠ .

البهرمة: بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمله الملك العالم العامل المجاهد المرابط الأعز الكامل صلاح الدنيا والدين قسيم الدولة رضى الخلافة تابع الملوك والسلاطين، ناصر الحق بالبراهين، محيى العدل فى العالمين، قامع الملحدين، قاتل الكفرة والمشركين ، أبو القاسم محمود بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين أدام الله دولته، بتولى العبد الفقير إلى رحمة مولاه ، عقبة بن أسعد الموصلى وعلى بابه مكتوب[١] عمّره السلطان نور الدين بتولى ابن أبى الصعاليك .

وفى هذا المارستان قاعة للنساء مكتوب عليها: عمّر هذا المكان فى دولة صلاح الدين يوسف بن أيوب، بتولى أبى المعالى محمود بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن العجمى الشافعى فى شهر رمضان سنة ٦٥٥هـ (١٢٥٧م) وعلى إيوانه أنه عمر فى أيام الأشرف شعبان ، وأن هذا الإيوان وقاعة النساء الصيفية أنشأها صالح مبط ابن السفّاح ، وعلى الشباك الذى على بابه: أنه أحدث فى سنة ٨٤٠هـ (١٤٣٦م) على يد الحاج محمد البيمارستانى وقاعة المنسهلين كانت سماوية فسقفها القاضى شهاب الدين ابن الزهرى. وهو بيمارستان مبارك يستشفى به وهو نيّر شرح ومفروش من الرخام وبه بركتا ماء يأتى إليهما الماء الحلو من قناة حيلان.

وقال القلقشندى[٢] عن حلب : وبها بيمارستان حسن لعلاج المرضى. وقال [٣]: من الوظائف الديوانية نظر البيمارستان وقد تقدم الكلام على مدينة حلب أن بها بيمارستانين أحدهما يعرف بالعتيق والآخر بالجديد ولكل منهما ناظر يخصه ، وولاية كل منهما عن النائب بتوقيع كريم. ولعل العتيق منهما هو الذى أنشأه نور الدين محمودبن زنكى وهو هذا ، والثانى منهما وهو الجديد هو الذى أنشأه الأمير أرغون الكاملى بحلب وسيأتى ذكره بعد .

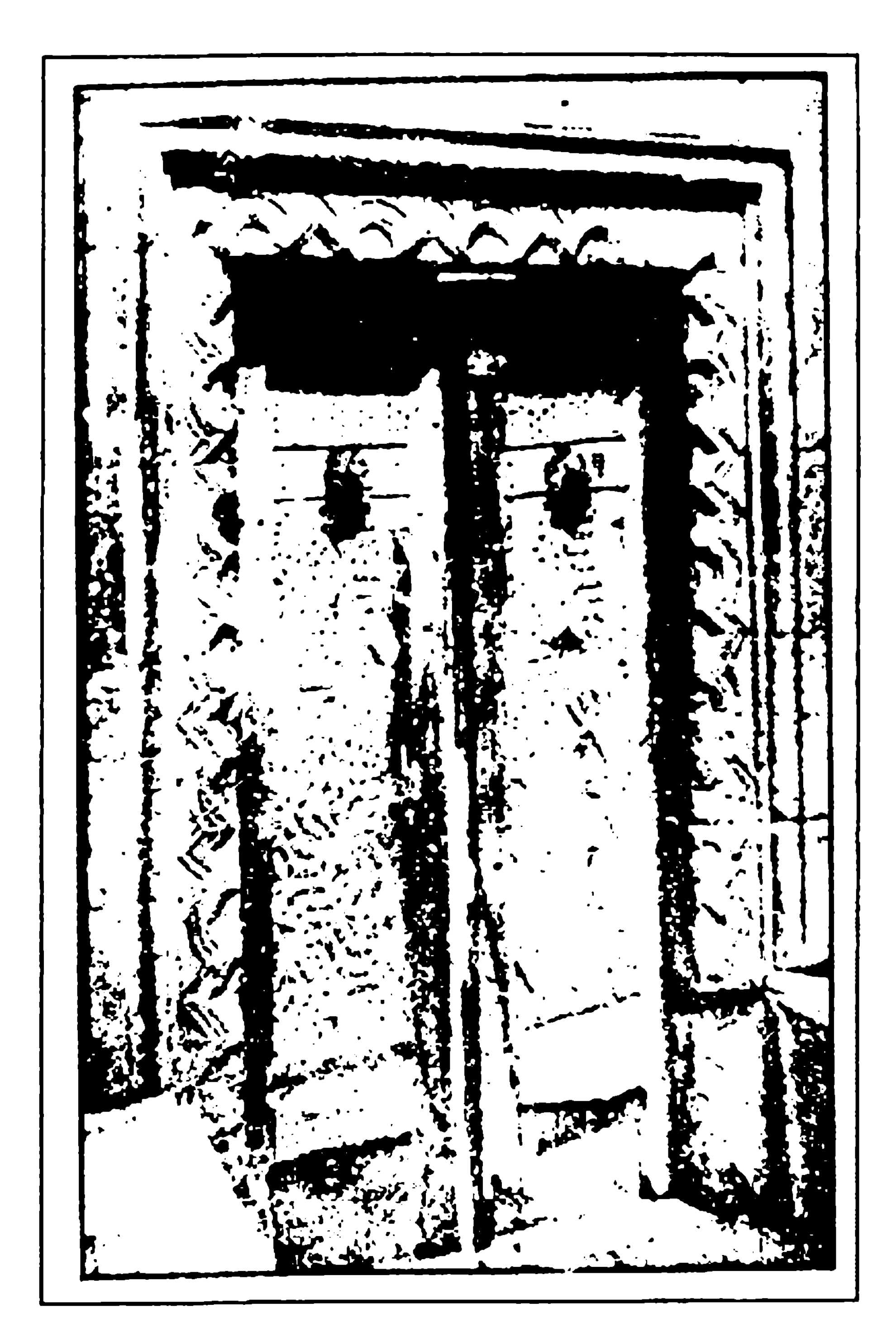
قال صاحب أعلام النبلاء وهو الآن خراب ولم يبق منه سوى بابه وجدرات أطرافه تأوى إليه الفقراء من الغرباء. ومن الغريب أن معتمد إيطاليا أدولف صولا عمّر فوق باب البيمارستان المذكور قنطرة وجعل طرفًا تحت أطراف قصر داره التى تجاه البيمارستان المذكور حفظًا للقصر وذلك منذ خمسة عشر عامًا وكان ذلك فى ليلة واحدة ولم يتمكن لذلك عن

١- أعلام النبلاء .

٢- صبح الأعشى ج٤ ص١١٧ .

٣- صبح الأعشى ج٤ ص٢٢٠ .

٤- أعلام النبلاء ج٢ ص٧٧ طبع بيروت سنة ١٨٨٠ .



شكل ١- باب البيمارستان النورى بحلب

عنزان ، غايته أن المتولى على البيمارستان رفع الأمر إلى الحكومة وإلى المجلس البلدى فلم يلتفت إليه وكأن الحادثة لم تكن . وجاء فى مجلة الدراسات الإسلامية[١] التى تصدر بالفرنسية عن سنة ١٩٣١م عن حال البيمارستان الحاضرة أنه : أسسه نور الدين فى أواسط القرن الثانى عشر الميلادى وأجرى فيه إصلاح فى القرن الخامس عشر. وقد تغيرت معالمه بسبب تحويله إلى مساكن ومع ذلك فإنه يجب المحافظة عليه مثالاً من الآثار التى يقل مثلها فى العالم الإسلامى.

وباب الدخول إليه (انظر شكل ١٠) لايزال حافظًا لمصراعيه الأصليين وهو مزين بقطع مربعة من صفائح الخشب المنقوش وداخل البيمارستان فى حالة من الإهمال لايمكن وصفها والبوابة منفصلة عن مكانها والواجهة مائلة إلى جهة الشارع وأول شئ يجب عمله فيه هو أن يخلى من ساكنيه ثم يشرع فى تنظيفه.

وممن عرف من الأطباء الذين خدموا بالبيمارستان النورى بحلب عدا ابن بطلان:

١- هاشم بن محمود[٢]: ابن السيد ناصر الدين السروجى الحسينى رئيس الأطباء بالمارستان النورى بحلب توفى سنة ٩٦٤هـ .

٦- بيمارستان باب البريد

جاء ذكر هذا البيمارستان عرضًا فى ترجمة عز الدين السويدى فإنه كان طبيبًا به وبالبيمارستان الكبير النورى وباب البريد هذا اسم لأحد أبواب جامع دمشق وهو الغربى وتجد ترجمة عز الدين السويدى ضمن أطباء البيمارستان الكبير النورى.

٧- بيمارستان حماة

دخل ابن جبير فى رحلة المشرق مدينة حماه[٣] فى الضحى الأعلي من يوم السبت فى ١٩ ربيع الأول سنة ٥٨٠هـ

Revue des études islamiques année 1931 . cahier I: Inventaire des monuments mu-sulmans de la ville d;Alep . -١

١- الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة الغزى.

٢- الرحلة ص٢٥٥ طبع ليبسيك.

ويعد أن أسهب فى وصفها قال: ولها جامع أكبر من الجامع الأسفل ولها ثلاث مدارس وبمارستان على شط النهر بإزاء الجامع الصغير.

٨- بيمارستان آخر بحلب

قال صاحب أعلام النبلاء[١]: على باب الجامع الكبير الشمالى بحلب بيمارستان وله بوابة عظيمة ينسب لابن خرخار والآن قد أُغلق بابه، ثم قال: وقد رأيته .

٩- بيمارستان القدس

رحل السلطان صلاح الدين إلى القدس فى اليوم الرابع عشر من شهر رمضان سنة ٥٨٣هـ وأمر بتشييد أسواره وزاد فى وقف المدرسة التى عملها بالقدس . وهذه المدرسة كانت قبل الإسلام تعرف بصَنْد حَنَّه (Sainte anne) ينكرون أن بها قبر حَنَّة أم مريم عليها السلام، ثم صارت فى الإسلام دار علم قبل أن يملك الإفرنج القدس. ثم لما ملك الإفرنج القدس سنة ٤٩٢م أعادوها كنيسة كما كانت قبل الإسلام، ولما فتح السلطان صلاح الدين القدس أعادها مدرسة وفوض تدريسها إلى القاضى بهاء الدين بن شدّاد ، وأمر بأن تجعل الكنيسة المجاورة لدار الاشبيتار بقرب حمّامه مارستانًا للمرضى. ووقف عليها[٢] مواضع وشهر أدوية وعقاقير غزيرة وفوض القضاء والنظر فى هذه الوقوف إلى القاضى بهاء الدين يوسف بن رافع أن تميم. وقال النويرى[٣]: قد عزم السلطان صلاح الدين على الحج ثم عاد إلى القدس ورتب أحواله وعين الكنيسة التى في شارع قمامة البيمارستان ونقل إليه العقاقير والأدوية.

وأشار ابن القفطى[٤] إلى بيمارستان القدس بقوله : إن يعقوب ابن صقلاب النصرانى أقام على حالته بالقدس فى مباشرة البيمارستان إلى أن ملكه المعظم عيسى بن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب سنة ٦١٥هـ .

١- طبع بيروت سنة ١٨٨٠ .

٢- عقد الجمان للعينى فى دخول صلاح الدين للقدس.

٣- نهاية الأرب فى فنون الأدب حوادث سنة ٥٨٨ .

٤- اطلب ترجمة يعقوب بن صقلاب.

وقد كتب إلىَّ الأستاذ العالم عادل جبر بك مدير المتحف الإسلامى ودار الكتب بالقدس الشريف، عن هذا المارستان فقال: إن بالقدس حارة تسمى الدباغة والمشهور المتداول على ألسنة الناس أن البيمارستان الصلاحى كان فى هذه الجهة ثم أدركه الخراب كما أدرك غيره من الآثار ثم حدثت زلزلة فى سنة ٨٦٢هـ (١٤٥٨م) فجعلته أثراً بعد عين فعفيت آثاره واختلست أرضه وتصرف فيه الحكام وغيرهم من الناس بالبيع والهبة ، فوهب السلطان عبد الحميد قسماً من خراباته إلى الدولة الألمانية لمناسبة زيارة ولى عهدها للقدس الشريف سنة ١٨٩٦ فبنى فيه الألمان كنيسة افتتحها الإمبراطور غليوم الثانى سنة ١٨٩٨ وقال : إنهم عثروا فى خراباته على حجارة مكتوبة ناطقة باسم صلاح الدين وخلفائه من بعده.

الأطباء الذين خدموا بصناعة الطب فى مارستان القدس

١- يعقوب بن صقلاب النصرانى المقدسى المشرقى الملكى مولده بالقدس الشريف، قرأ الحكمة والطب وأقام بالقدس فى مباشرة البيمارستان إلى أن ملكه الملك المعظم عيسى بن الملك العادل فنقله إلى دمشق فاختص به وارتفعت عنده حاله وأدركه نقرس ووجع مفاصل فأقعده عن الحركة حتى قيل : إن الملك المعظم إذا احتاج إليه فى أمر مرضه استدعاه فى محفة تحمل بين الرجال، وتوفى يعقوب فى حدود سنة ٦٢٦هـ .

٢- رشيد الدين الصورى : هو أبو المنصور بن أبى الفضل بن على الصورى كان أوحد زمانه فى معرفة الأدوية المفردة وماهياتها واختلاف أسمائها وصفاتها وتحقيق خواصها مولده فى سنة ٥٧٣هـ بمدينة صور ونشأ بها ثم انتقل عنها واشتغل بصناعة الطب علَى الشيخ عبد اللطيف البغدادى ، وأقام بالقدس وكان يطب فى البيمارستان الذى كان فيه وخدم الملك العادل ثم الملك المعظم عيسى ثم ولده الملك الناصر داوود وكان له بدمشق مجلس للطب والجماعة يترددون إليه ويشتغلون بالصناعة عليه وتوفى يوم الأحد أول شهر رجب سنة ٦٣٩هـ (١٢٤٢م) .

١٠- بيمارستان عكا

فى سنة ٥٨٣هـ بعد أن فتح السلطان صلاح الدين بيت المقدس[١] واستنقذه من أيدى الصليبيين، انصرف إلى دمشق واجتاز فى طريقه إلى عكا ولما وصل إليها نزل بقلعتها ووكل

١- عقد الجمان للعينى حوادث سنة ٥٨٤ والبداية والنهاية لابن كثير حوادث سنة ٥٨٣هـ.

بعمارتها وتجديد محاسنها بهاء الدين قراقوش ، ووقف دار الاشتبار نصفين على الفقراء والفقهاء وجعل دار الأسقف مارستانًا ووقف على ذلك كله أوقافًا دارّة وولى نظر ذلك لقاضيها جمال الدين بن الشيخ أبى النجيب وعاد إلى دمشق مؤيدًا منصورًا .

١١- بيمارستان صفد

ذكر ابن حجر[١] أن فى صفد بيمارستانًا عمّره الأمير تنكيز نائب الشام فى زمن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون. وقال محمد بن شاكر الكتبى[٢]: إن الأمير الكبير سيف الدين تنكز[٣] نائب السلطنة بالشام عمر بصفد البيمارستان المعروف باسمه.

١٢- بيمارستان الصالحية أو القَيْمَرى

البيمارستان القيمرى أو مارستان الصالحية أنشأه وأوقفه الأمير الكبير سيف الدين أبو الحسن[٤] على بن يوسف بن أبى الفوارس بن موسك القيمرى الكندى: أكبر أمراء القيامرة ومن أبطالهم المذكورين وصلحائهم المشهورين وهو ابن أخت صاحب قَيْمَر[٥] كانوا يقفون بين يديه كما تعامل الملوك. ومن أكبر حسناته وقفه المارستان الذى بسفح قاسيون بالصالحية وكانت وفاته سنة ٦٥٢هـ ودفن بالسفح فى قبته التى تجاه المارستان وكان ذا مال وثروة.

١- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة.

٢- فوات الوفيات ج١ ص٩٢ طبع بولاق.

٣- هو الأمير سيف الدين تنكز بن عبدالله الحسامى التامرى نائب الشام جلبه إلى مصر الخواجه علاء الدين السيواسى واشتراه الأمير لاشين، فلما قتل لاشين صار من خاصكية السلطان . سمع تنكيز الحديث وحدث وقرأ عليه المقريزى وأمّره الملك الناصر محمد بن قلاوون وولاه نيابة دمشق سنة ٧١٢ هـ فأقام بها ٢٨ سنة وهو الذى عمر دمشق وأقام شعائر المساجد بعد التتار وبنى بها جامعًا وجدد بصفد بيمارستانًا مليحًا للشفا . ثم قبض عليه الملك الناصر وأرسله إلى القاهرة سنة ٧٤١هـ وتوفى تنكز بحبس الاسكندرية فى يوم الثلاثاء النصف من المحرم سنة ٧٤١ وقد جاوز السبعين . وفى سنة ٧٤٤ حضر تابوته من الاسكندرية إلى دمشق ودفن فى تربته بجوار جامعه ، وكان ملكًا جليلاً محترمًا مهابًا عفيفًا ، حسن المباشرة (المنهل الصافى والبداية) .

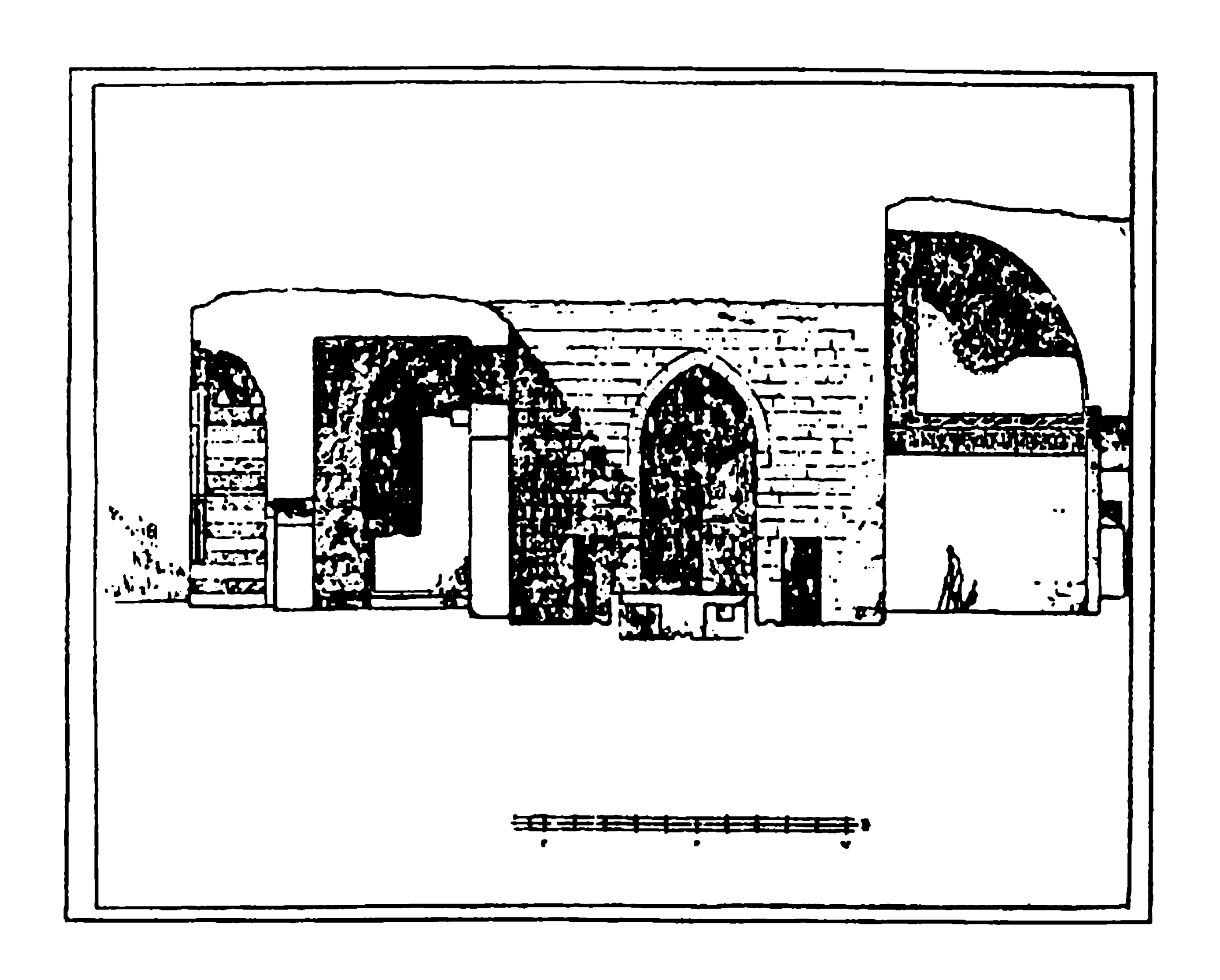
٤- البداية والنهاية لابن كثير حوادث سنة ٦٥٤ وشذرات الذهب لابن العماد ج٣ ص٣١٣ .

٥- قيمر هى قلعة فى الجبال ، بين الموصل وخلاط ، ينسب إليها جماعة من أعيان الأمراء بالموصل وخلاط وهم أكراد ويقال لصاحبها أبو الفوارس (ياقوت) .



شكل ١١- وجه البيمارستان القيمرى وتظهر فيه حجة الوقف

والعمل جار فى إصلاحه وإعادته كما كان من قبل مصلحة الآثار السورية



شكل ١٢- البيمارستان القيمرى بالصالحية منقولاً عن كارل ولزنجر وكارل وتزنجر

وفى سنة ٦٩٦هـ في يوم السبت[١] النصف من ربيع الآخر شرعت التتار فى نهب الصالحية وأخربوا أماكن كثيرة ومنها المارستان بالصالحية وقال ابن العماد[٢]: إنه فى سنة ٨٥٦هـ توفى الشيخ زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن داوود الحنبلى وكان المتكلم على البيمارستان القيمرى، فحصل به النفع من عمارة جهاته وعمل مصالحه ورغب الناس فى نفع الفقراء بكل ممكن .

وذكر المحبى [٣]: أن حسن باشا بن عبدالله الأمين المعروف بشوريزه أحد صدور دمشق وأعيانها المتوفى سنة ١٠٢٧ كان قد ولى وقف البيمارستان الكبير النورى فأقام شعائره وعمّر أوقافه وأتى فيه من حسن التنمية بما لامزيد عليه، فاستدعاه المولى مصطفى كوجك قاضى القضاة بدمشق لولاية البيمارستان القيمرى فأبى حتى أبرم عليه هو ورئيس الأطباء بدمشق الشيخ شرف الدين لاضمحلال حاله، ثم قبله على شريطة أن لايتناول فيه رئيس الأطباء بعض أشياء عيّنها ولايخالط أموره بسوى القدر الفلانى من علوفته فإنه بسبب تجاوزه وتجاوز أمثاله خرب الوقف فقبل القاضى والرئيس شرطه وعمّره ونمى وقفه.

وهذه صورة ما هو منحوت على وجه المستشفى القيمرى فى الصالحية بدمشق:

السطر الأول

«هذا ما أوقفه وحبسه وأبده الأمير سيف الدين القيمرى رحمه الله تعالى على هذا البيمارستان : فمن المرج نصف قرية (البحدلية) وكذلك قرية (المسعوبية) بكمالها وأيضا قرية (المعضادية) وأيضًا من قرية (بالا) تسعة قراريط ونصف الحصص من الأصقاع الجولانية ودير أيوب عليه السلام بكمالها».

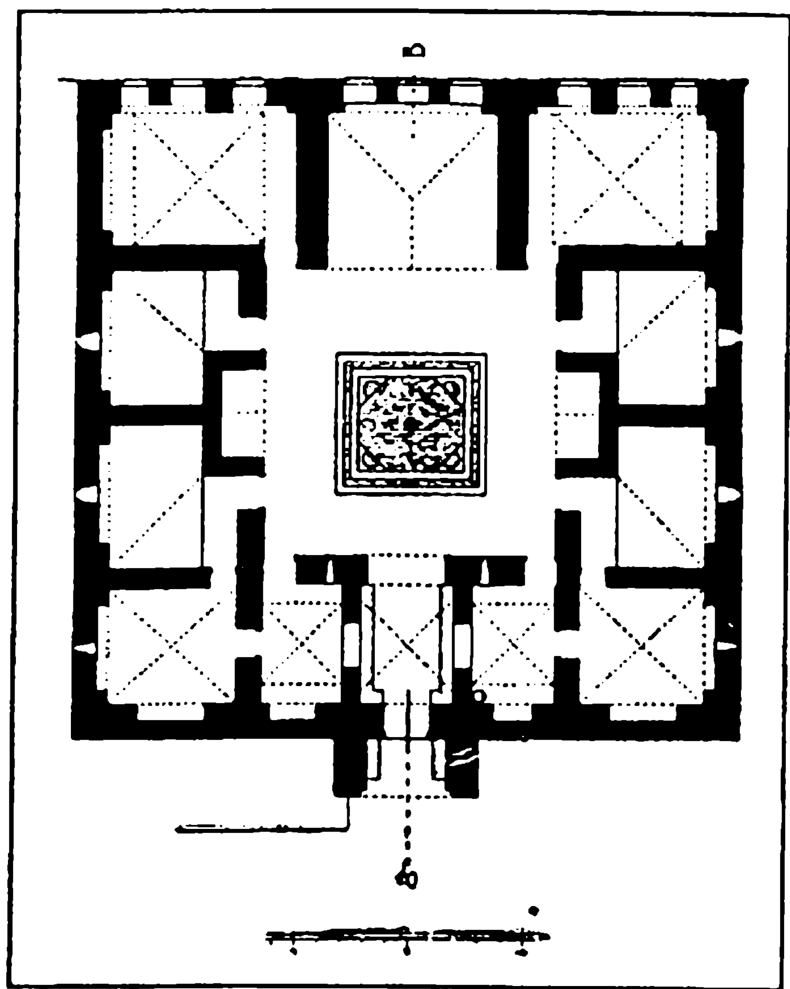
السطر الثانى

«ودير الهـ ير وطواحينها بكمالها ودير السوج بطواحينها .. والر؟ منها ومن قرية عترا الربع ومن قرية (فادا) النصف والثمن [ومن تل] سرية ثلاث قرايط ونصف من المسقف من حصة بن مخشى بقيسارية قيراطين وحانوت بالفسقار مضمون برسم الشوى و [فى] صفة نوح سبعة عشر حانوت .. والحصة من الدار؟ ربع قيراط ».

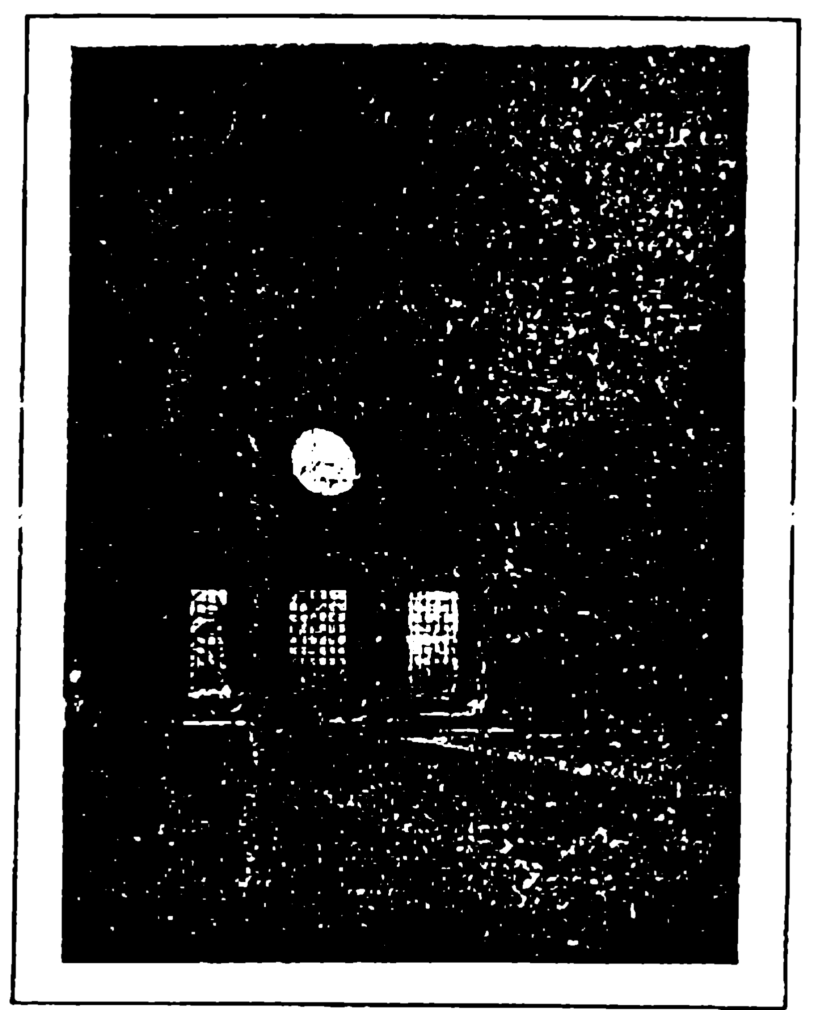
١- البداية: والنهاية حوادث سنة ٦٥٦ .

٢- شذرات الذهب لابن العماد ج٤ ص٢١٤ .

٣- خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ج٢ ص٢٥ .



شكل ١٣- تخطيط أساسات البيمارستان القيمرى عن كارل ولزنجر وكارل وتزنجر



شكل ١٤- البيمارستان القيمرى من الداخل عن كارل ولزنجر وكارل وتزنجر

سطر علوي مفرق

«وخان التونة بحد السماق بكماله وحصة بطاحونة باب توما أربع قراريط وخان شمالى المارستان يشتمل على بيوت جملة ، وقاعة بشرقى المارستان ، حوانيت ومصاغ باب المارستان سبعة عشر حانوت قاعة وحجرة وإصطبل تحتها وقف أمين الدين بدال بالقصاعين أ.هـ) وتحت ذلك:

السطر الأول

«بسم الله الرحمن الرحيم. أمر ببناء هذا المارستان المبارك العبد الفقير الراجى رحمة ربه الكريم الأمير الأجل الكبير والغازى المجاهد المؤيد المظفر المنصور سيف الدين ملك الأمراء نصرة الغزاة والمجاهدين عضد الملوك والسلاطين نصير أمير المؤمنين أبو الحسن الإمام عز الدين يوسف بن المظفر ضياء الدين أبى الفوارس القيمرى.

السطر الثانى

«طلب ثواب الله تعالى وابتغاء مرضاته يوم يجزى الله المصدقين ولايضيع الله أجر المحسنين فى أيام مولانا السلطان الملك الناصر صلاح الدين بن مولانا السلطان الملك العزيز خلد الله ملكه وسلطانه من نعمة مولانا السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد قدس الله روحهما وجعل النظر..[١].

السطر الثالث

«جميع الأماكن الموقوفة على هذا المكان المبارك إلى الأمير الكبير ناصر الدين ملك الأمراء والمقدمين مشد دار الملوك والسلاطين ظهير أمير المؤمنين لينظر فيه ناظراً وحاكماً بموجب الشرع العزيز ومقتضاه على ما هو مذكور فى كتاب الوقف ..[٢] الله منشئه وأثاب الناظر فيه وبعد ذلك جعل له النظر (على) المدرسة وأناب[٣] فمن بدله بعدما سمعه فإنه إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم أ. هـ.

١- الكلمة مطموسة وظاهر أن المراد وجعل النظر عليه وعلى جميع الأماكن...

٢- الذى على الحجر كلمة تشبه : بقامن الله ولعلها كلمة بمعنى عفا الله عن منشئه.

٣- كلمة مطموسة قريبة من (القيم) أو (النعيم) .



شكل ١٥- البيمارستان القيمرى من الداخل عن كارل ولزنجر وكارل وتزنجر

وجاء فى خطط الشام ج٦ ص١٦٢ ما يأتى :

«قرأت فى كتاب الجوامع والمدارس صورة وقف البيمارستان ، القيمرى فإذا فيه: هذا وقف أبى الحسن بن أبى الفوارس القيمرى على بيمارستانه فى الصالحية على معالجة المرضى والمعاجين والأشربة وأجرة الطبيب يصرف إلى الطبيب فى كل شهر: لواحد سبعون درهمًا ونصف غرارة من قمح، والأدنى ستون درهمًا ونصف غرارة قمح، وللمشارف فى كل شهر أربعون درهمًا ونصف غرارة قمح، والحوائج فى كل شهر ثلاثة عشر درهمًا وربع غرارة قمح، وإلى ثلاثة رجال يقدم لكل من الرجال فى كل شهر ثلاثة عشر درهمًا وسدس غرارة قمح ولمن يقوم بمريضات النساء والمجنونات فى كل شهر لكل واحدة عشرة دراهم وسدس غرارة قمح، وإلى الشراب وبائعه لعمل الأشربة والمعاجين فى كل شهر ستة وعشرون درهمًا وثلث غرارة قمح ولأمين المشارفين والمتولين فى الوقف إلى كل واحد فى كل شهر ستون درهمًا وغرارة قمح وغرارة شعير، وللإمام فى كل شهر أربعون درهمًا وثلث غرارة قمح وللمعمار المرتب لعمارته فى كل شهر ثلاثة عشر درهمًا وسدس غرارة قمح ويكون بوابًا، والحوائج فى كل شهر ثمانية دراهم وسدس غرارة ، وللناظر العشر عن المغل وربع الوقف . ويصرف إلى رجلين اثنين بخدمة البيمارستان عن ثمن قدور ونحاس وفرش ولحف ومخدة ، وفى كل شهر إلى قيمه والمؤذن بالمسجد بقرب البيمارستان خمسة عشرون درهمًا ، فإن فضل يصرف إلى فكاك الأسارى من الكفار ، وبعد ذلك عاد وقفًا على الفقراء . وتاريخ الوقفية سنة ٦٥٢ وتاريخ المسجد سنة ٨٨٠ ثم ذكر القرى والبساتين والحوانيت والطواحين التى وقفها على بيمارستانه».

وممن ولى النظر على البيمارستان القَيْمرى محمد بن قباد المعروف بالسكونى الدمشقى الحنفى مفتى الشام وكانت وفاته سنة ١٠٥٢هـ وممن خدم من الأطباء فى البيمارستان القَيْمرى بالصالحية.

١- إبراهيم[١] بن إسماعيل بن القاسم بن هبة الله بن المقداد القيسى كان طبيبًا بالبيمارستان بالصالحية وتوفى فى جمادى الأولى سنة ٧٤١هـ.

٢- الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة.

١٣- بيمارستان الجبل

كان بقرية نَيْرَب وهى قرية على نصف فرسخ من دمشق ، بيمارستان يسمى بيمارستان الجبل ، ولم يعرف شئ عن هذا البيمارستان ، ولا عمن أنشأه والزمن الذى أنشئ فيه، غير أن ابن شاكر الكتبى فى فوات الوفيات، والذهبى فى تاريخ الإسلام قد ذكرا بعض الذين خدموا فى هذا البيمارستان من الأطباء وعينا زمنهم . فعلمنا بذلك عصره بوجه التقريب وذكر الذهبى فى تاريخه أيضًا أن التتار لما دخلوا دمشق فى سنة ٦٦٩هـ فى ١٨ جمادى الأولى أحرقوا ومعهم الكُرْج والأرمن مارستان الجبل وعدة مدارس وأماكن فى غاية الحسن والكثرة.

ومن الأطباء الذين خدموا فى هذا البيمارستان:

١- **عبد الوهاب بن أحمد** بن سحنون الحكيم الخطيب الطبيب البارع مجد الدين خطيب النَيْرَب له شعر وأدب وفضائل . وكان من فضلاء الحنفية درس بالدماغية وعاش خمسًا وسبعين سنة وكان طبيب مارستان النيرب، وفى تاريخ الإسلام للذهبى طبيب مارستان الجبل.

٢- **أحمد بن أبى بكر** محمد بن حمزة بن منصور الطبيب نجم الدين أبو العباس الهمدانى ثم الدمشقى المعروف بالجيلى : طبيب مارستان الجيل ولد سنة خمس أوست وستمائة ومات فى رمضان بدُوَيْر أحمد ولى مشارفة الجامع فى هذه السنة بعد أخيه لأم الشمس الجيلى توفى سنة ٦٩٥هـ .

١٤- بيمارستان غزّة

لما توفى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وتولى الملك الصالح إسماعيل، رسم للأمير علم الدين سنجر الجاولى الفقيه الشافعى بنيابة غزة فحضر إليها وأقام بها مدة، شرع فى أثنائها فى عمارة الجامع بغزة . وعمّر حمامًا هائلاً ومدرسة للشافعية وعمّر خانًا للسبيل وبنى بغزة مارستانًا ووقف عليه عن الملك الناصر أوقافًا جليلة، وجعل النظر فيها النوّاب غزة وتوفى فى ٩ رمضان سنة ٧٤٥ ودفن الأمير سنجر فى تربته التى على جبل الكبش ظاهر القاهرة[١].

١- أعيان العصر لصلاح الصفدى ج٣ مخطوط.

١٥- بيمارستان الكرَك

هذا البيمارستان أنشأه الأمير علم الدين سنجر الجاولي أبو سعيد المتقدم ذكره والذى أنشأ أيضاً مارستان غزة. ولد الأمير سنجر[١] سنة ٦٥٣ بآمد ثم صار لأمير يقال له جاول فى سلطنة الظاهر بيبرس فنسب إليه ، ثم انتقل بعده إلى بيت السلطان وأخرج في أيام الأشرف خليل إلى الكرك، ثم عمل إستادار صحبة الناصر محمد نيابة عن بيبرس الجاشنكير، واستنابه الناصر محمد بعد مجيئه من الكرك سنة ٧١١ فعمّر بها قصراً للنيابة وهو أول من مدّنها ، فبنى فيها القصر والجامع والحمّام والمدرسة للشافعية وخان السبيل والمارستان والميدان ثم قدم إلى مصر ليكون نائباً للحوائج خاناه ثم ولى نيابة غزة وصار من أكبر أمراء مصر وتوفى فى تاسع شهر رمضان سنة ٧٤٥ .

١٦- مارستان حصن الأكراد

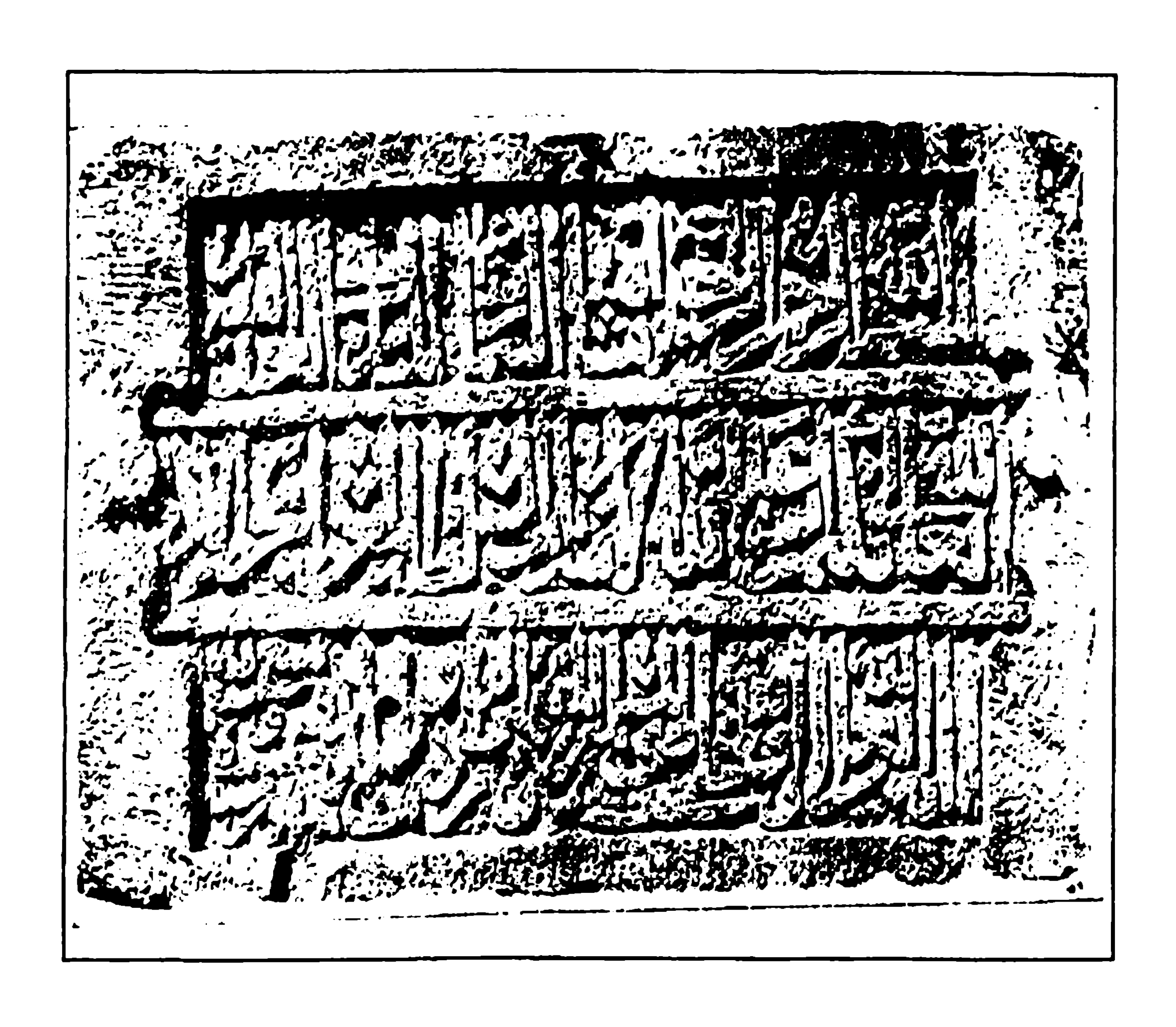
أنشأ هذا المارستان أحد المماليك بهذا الحصن ووجد مكتوباً على عتبة باب هذا المكان ما يأتى[٢]:

بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذا البيمارستان المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى بَكْتَمِر ابن عبد الله الأشرفى نائب السلطنة المعظمة بحصن الأكراد أثابه الله تعالى وأوقفه على مرضى المسلمين المقيمين والواردين وذلك فى شهور سنة ٧١٩هـ (١٣١٩م) .

وهذ المارستان لم يبق من آثاره إلا هذه الكتابة وبعض الأحجار المستعملة الآن فى بناء بعض المنازل الصغيرة المجاورة للبيمارستان . وقد أرصد بكتمر بعض الأوقاف للصرف على هذا المارستان . قال ناقل هذه الكتابة: وقد وجدت فى بعض البيوت المتخربة قطعة من نص وقفية بكتمر على البيمارستان وهذا نصها :

١- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني.

٢- Max Van Berchem : materiavx pour un corpus inscriptiunum arabicarum : Syrie du nord par maritz Sobernheim tome XXv ; memoires de l'instilut francais d'archeologie oriental .



شكل ١٦- ما هو مكتوب على باب بيمارستان حصن الأكراد منقولة عن فان برشم

... ويسوق البزّ وجميع الدار المجاورة للبيمارستان من جهة الشمال والربع والثمن من الحانوت بسوق السمّانين . ومن شروطه أن يبدأ من ريع ذلك بعمارة المارستان ، وما هو موقوف عليه أثابه الله تعالى. ووجدت وقفية أخرى مكتوبة فوق حجر فى جدار أحد المنازل الصغيرة مقابلة للكتابة السابقة . وهذه صورتها ونصها:

«أوقفت الحاجة مريم زوجة ابن المسرورى أثابها الله تعالى على هذا الوقف المبارك أربعة عشر سهمًا من البستان بقرية السحّارة (الآن خراب وتبعد بمقدار ساعة ونصف عن حصن الأكراد) .

وحصن الأكراد فى السهل المسمى البقاعية يحده من الجنوب جبل عكار وجبل لبنان ومن الشمال جبال النُصيَرِّية . وسبب تسميته بحصن الأكراد، أن أحد أمراء حمص المرداسيين وهو شبل الدولة نصر بن مرداس صاحب حمص ، أسكن فيه جماعة من الأكراد الذين أقاموا به هم وأولادهم لحماية الطريق، وذلك سنة ٤٢٢هـ فنسب إليهم وكان من قبل يسمى حصن الصفح وقد استولى عليه الصليبيون ، وبقى فى أيديهم إلى سنة ٦٦٩هـ (١٢٧١م) ثم استرده منهم الملك بيبرس قسيم أمير المؤمنين.

١٧- البيمارستان الجديد بحلب
أو بيمارستان أرغون الكاملى

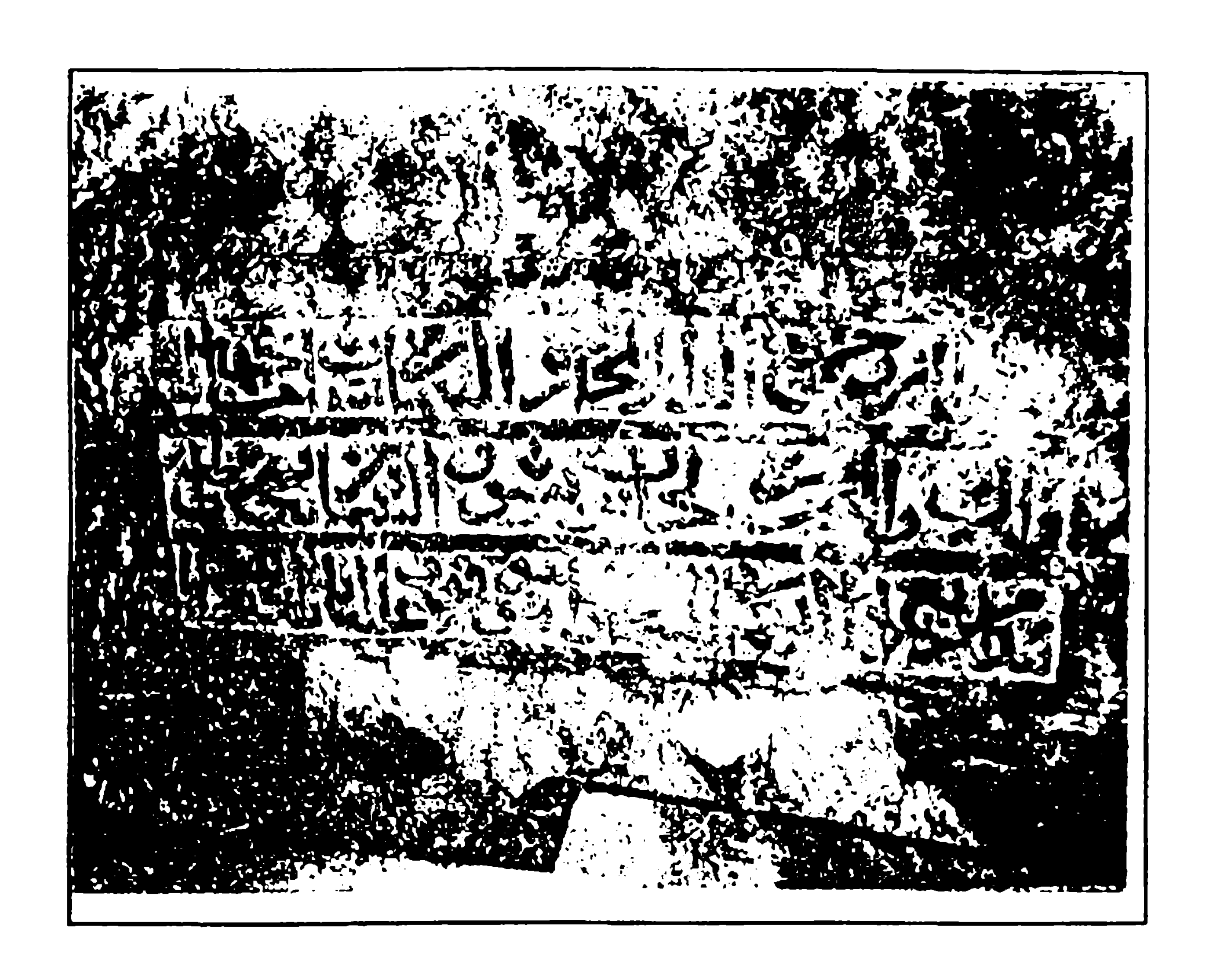
أنشأ الأمير سيف الدين أرغون[١] الكاملى فى سنة ٧٥٥ عمارة البيمارستان المنسوب إليه بحلب داخل باب قنّسرين ، واجتهد فى أمره ورفل فى أثواب ثوابه وأجره، وشيد بنيانه؛ ومهد مجالسه وإيوانه، ورفع قواعده ، وهيأ بيوته ومراقده ، وأعد له الآلات والخدم. ورتب لحفظ الصحة فيه أرباب الحكم . وأباحه للضعيف والسقيم ، وفتح بابه للراحل والمقيم، ورواه بالمياه الكثيرة وأنفق عليه أموالاً غزيرة ، وأجرى عيون معلومه وجرايته، ووقف للقيام بمصالحه ما يزيد على كفايته. وقال فى ذلك ابن كثير:

قولا لأرغون الذى معروفه ... بالعَرف قد أحيا النفوس والأرجْ

أنزلك الرحمن خير منزلٍ ... رَحْبٍ ورقّاك إلى أعلى الدرج

بنيت دارًا للنجاة والشفا ... ليس بها على المريض من حرج .

١- البداية والنهاية لابن كثير حوادث سنة ٧٥٥ .



شكل ١٧- صورة وقف بيمارستان حصن الأكراد منقولة عن فان برشم

وتوفى الأمير أرغون الكاملي بالقدس الشريف يوم الخميس السادس والعشرين من شوال سنة ٧٥٨هـ ، ودفن بتربة أنشأها غربى المسجد بشمال . وكان قد ناب بدمشق مدة ثم صار إلى نيابة حلب ثم سجن بالاسكندرية مدة، ثم أفرج عنه ، فقام فى القدس الشريف إلى أن كانت وفاته ، وكان سلطان مصر إذ ذاك الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصورى قلاوون .

وهذا البيمارستان[١] هو من البيمارستانات الإسلامية الموجودة إلى اليوم فى سوريا ومصر التى حفظت آثارها ، فجميع نظامه بتفاصيله لايزال سليمًا وله بوابة عظيمة ذات نخاريب، ودهليز ذو أعمدة وإيوانات ، ويهو يشتمل على خلوات للمرضى. وبوجهته شقوق وحالة القبة من الداخل رديئة . وأول شئ يجب إخلاؤه من ساكنيه الذين أزالوا من أخشابه القديمة الشئ الكثير ثم إصلاحه وترميمه وإصلاح بابه وتكميل ما نقص من قطعه. ومكتوب على باب البيمارستان عند باب قنسرين[٢]:

بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا البيمارستان الملك الناصر مولانا السلطان الملك الصالح بن السلطان الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون خلد ملكه الله والفقير إلى ربه أرغون الكاملي نائب السلطنة المعظمة بحلب المحروسة غفر الله له وأثابه الجنة فى شهور سنة ٧٥٥هـ (١٣٥٤م) .

وفى أعلام النبلاء : أن محلة هذا البيمارستان كانت بيتًا لأمير فتوصل إليه بطريق شرعى، ولم يغير بوابة تلك الدار عن حالها ، وإنما كتب عليها وهى معمورة ، وهذا المارستان له أوقاف مبرورة منها قرية بنش من عمل سَرْمين وغيرها، وكتاب وقفه موجود وقد رتب فيه القراء يقرؤن القرآن طرفى النهار، وخبزًا يتصدق به ، ورتب له جميع ما يحتاج إليه من أشربة وكحل ومراهم ودجاج وجميع الملطفات ، وكان هذا المارستان بكفالة تغرى برمس على أتم الوجوه . وشرط واقفه أن يكون النظر فيه لمن يكون كافل حلب ، ولما تولى جانم الأشرفى كفالة حلب جعل إمامه متكلمًا على هذا البيمارستان ، فصنع له سحابة على إيوانه القبلى على قاعدة بيمارستان القاهرة ، إذ فى هذه السحابة منفعة للضعفاء تقيهم الحر والبرد.

ولما كان بتاريخ ربيع الأول سنة ٨٢٥هـ اطلع مولانا المقر الأشرف السيفى المالكى

١- Revue des études islamiques année 1931 . cahier i : Jnvenlaire des monuments musulmans de la ville d'Alep .

٢- كتاب تحف الأنباء فى تاريخ حلب الشهباء ص١٤٠ طبع بيروت سنة ١٨٨٠ .



شكل ١٨- باب بيمارستان قيسارية نقلاً عن الأستاذ أحمد سهيل

الصالحي[1] مولانا الملك الآمر عز نصره ، وهو الناظر الشرعي على البيمارستان السيفي أرغون الكاملي بحلب المحروسة على ما شرط الواقف أثابه الله في كتاب وقفه فمنع من هو بغير شرط الواقف .

ونأتي هنا على وصف مسهب لهذا البيمارستان كما ذكره صاحب أعلام النبلاء قال:

تدخل إلى البيمارستان فتجد عن يمينك حجرة هي الآن خربة ثم تدخل الباب الثاني فتجد عن يمينك حجرة أخرى ، كانت هاتان الحجرتان لقعود الأطباء ووضع ما يحتاجون إليه من الأدوية والأشربة ، ثم تجد صحنًا واسعًا يحيط بطرفيه الجنوبي والشمالي رواقان ضيقان مرفوعان على أعمدة عظيمة ، ووراءهما حجرة صغيرة هي محل حبس المجانين فيها . ثم تدخل من الجهة الشمالية في دهليز وبعد خطوات تجد دهليزين : الذي على اليمين يأخذ إلى باب آخر للمارستان تخرج منه إلى بوابة صغيرة وهو مغلق الآن والدهليز الذي على اليسار يأخذك إلى صحنين حولهما حجرة صغيرة وهي معدة أيضًا لحبس المجانين . وهناك يأخذك الهول ويداخل قلبك الروع للظلمة المخيمة على هذه الأمكنة ولامنافذ لها، وروائح العفونة والأقذار منتشرة فيها. ثم قال:

وقد بلغنا أنه كان في أطراف الصحن الخارجي وعلى أطراف الحوض الذي في وسطه أنواع الرياحين ليناظرها المجانين ، وكانوا يأتون بآلات الطرب وبالمغنيين فيداوون المجانين بها أيضًا . وكان أمره جاريًا على الانتظام إلى أواخر القرن العاشر، ومن ذلك الحين أهمل أمره وزالت تلك الأوضاع منه . وكان بلاط الصحن متوهنًا جدًا ، فاهتم جميل باشا سنة ١٣٠٢هـ بتبليطه وتجديد حوضه وترميمه. وكان يسكن في إيوانه الغربي رجل يقال له أبو حيدرة هو وأسرته ، فكانوا يحافظون على هؤلاء المجانين ويطعمونهم ويرفعون الأقذار من عندهم . ومنذ نحو عشر سنوات أو أزيد بقليل أخذ من كان فيه من المجانين ، وكانوا نحو عشرين شخصًا إلى الآستانة وهو آخر العهد بهم. والآن يسكنه بعض الفقراء وقد كان لبابه حلقتان كبيرتان جميلتا الشكل من النحاس الأصفر ، قلعتا منه منذ خمس عشرة سنة وأخذتا إلى متحف الآستانة، ولاندري أوصلتا إليه أم لا، ويعد هذا البيمارستان من جملة الآثار القديمة الباقية في حلب، غير أنه إذا بقي مهملاً على حالته الحاضرة أدى ذلك إلى تداعيه وخرابه . وأما واردات البيمارستان من قرية بنش فإنها حولت سنة ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م) إلى أوقاف الجامع الكبير.

١- هو الملك الصالح ناصر الدين محمد بن ططر من ملوك الشراكسة وكان سلطان مصر والبلاد الشامية سنة ٨٢٥ في أيام الخليفة المعتضد بالله.



شكل ١٩- بيمارستان أرغون الكاملي بحلب

١٨- البيمارستان الدُّقاني

منسوب إلى دُقَّان بن تُتُش السلجوقي أحد حكام دمشق في عصر السلاجقة قال ابن كثير[١]: في ليلة الجمعة الحادي والعشرين من صفر سنة ٧٦٤ عملت خيمة حافلة بالبيمارستان الدقاني جوار الجامع بدمشق بسبب تكامل تجديده قريب السقف مبنيًا باللبن حتى قناطره الأربع بالحجارة البلق وجعل في أعاليه قمريات كبار مضيئة وفتق في قبلته إيوانًا حسنًا زاد في أعماقه أضعاف ما كان، وبيّضه بالجص الحسن المليح وجددت فيه خزائن ومصالح وفُرُش ولحف وجدد وأشياء حسنة، فأثابه الله وأحسن جزاءه . وحضر الخيمة جماعات من الناس من الخواص والعوام ، ولما كانت الجمعة الأخرى دخله نائب السلطنة بعد الصلاة فأعجبه ما شاهده من العمارة وأخبره عما كان حاله قبل هذه العمارة فاستجاد ذلك من صنيع الناظر وهو الصاحب تقي الدين[٢] بن مراجل وذلك في سنة ٧٦٤هـ والسلطان بالديار المصرية والشامية والحجازية الملك المنصور صلاح الدين محمد بن الملك المظفر حاجي ابن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون الصالحي، ومدبر الممالك بين يديه وأتابك العساكر الأمير سيف الدين يلبغا الخاصكي ودخله السلطان يوم الجمعة الثاني والعشرين من المحرم بعد العصر خوفًا من المطر.

١٩- بيمارستان الرملة

٢٠- بيمارستان نابلس

ذكر ابن حجر العسقلاني[٣] أن محمد بن فضل الله القبطي فخر الدين ناظر الجيش كان قد أسلم وتسمى محمداً وحج عشر مرات وزار القدس، وأحرم مرة من القدس إلى مكة وكانت صدقته في كل يوم ألف درهم وبنى عدة مساجد وعدة أحواض لسقي الماء في الطرقات ، وله مارستان بالرملة وآخر بنابلس من أعمال فلسطين ، اتصل بخدمة الناصر محمد ومات في رجب سنة ٧٣٢ .

١- البداية والنهاية حوادث سنة ٧٦٤ .

٢- في يوم الثلاثاء ١٨ ذي القعدة سنة ٧٦٤ توفي الصاحب تقي الدين بن مراجل ناظر الجامع الأموي وغيره وكانت له همة ويشيب إلى أمانة وصرامة ومباشرة مشكورة ودفن بتربة أنشأها تجاه داره بالقبيبات وقد جاوز الثمانين.

٣- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.

بيمارستانات الجزيرة العربية

١- بيمارستان مكة

قال تقى الدين أبو الطيب محمد بن أحمد بن على[1]: وبمكة أوقاف كثيرة على جهات من القربات غالبها الآن غير معروف لتوالي الأيدى عليها. ومن المعروف منها البيمارستان المستنصرى العباسى[2] بالجانب الشمالى من المسجد الحرام وتاريخ وقفه سنة ٦٢٨هـ وعمّرها فى عصرنا الشريف حسن بن عجلان صاحب مكة عمارته التى هو عليها الآن ، وزاد فيه على ما كان عليه أولا إيوانين أحدهما فى جهته الشمالية والآخر فى جهته الغربية ، وأحدث فيه صهريجًا ورواقًا فوق الإيوانين اللذين أحدثهما وفوق الإيوان الشرقى الذى كان فيه من قبل وجدد هو عمارته ، وفوق الموضع الذى فيه الشُبّاكان المشرفان على المسجد الحرام وأدخل فيه البئر التى كان يستقى منها للميضأة الصرغتشمية ووقف جميع ما بناه وما يستحق منافعه فى الموضع المذكور المدة التى يستحقها على الضعفاء والمجانين ووقف عليه منافع الدار المعروفة بدار الإمارة عند باب شيبة بعد عمارته لها حين تخربت بالحريق الذى وقع فى آخر ذى القعدة من سنة ٨١٤هـ . وذلك بعد استيجاره . واستيجاره للبيمارستان المذكور لتخربها من القاضى الشافعى بمكة مدة مائة سنة، وأذن له فى صرف أجرة الموضعين فى عمارتها وكان استجياره لذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٨١٥ هـ وفيها شرع فى عمارتهما وكان وقفه لذلك فى صفر سنة ٧١٨ ووقف المنافع يتمشى على رأى بعض متأخرى المالكية وحكم به بعض طلبة المالكية ليثبت أمره وإن كان بعض المعتبرين من المالكية لا يرى جوازه .

وقال الشيخ **قطب الدين النهروالى**[3] المكى: وفى سنة ٨١٦هـ عمّر جد سيدنا مكة يومئذ وهو الشريف حسن بن عجلان بن رُميثة جد سيدنا ومولانا شريف مكة الآن سنة (٩٧٩هـ) السيد الشريف حسن بن أبى نُمَىّ بن بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان أدام الله تعالى دولته وسعادته بالجانب الشمالى من المسجد الحرام البيمارستان الذى كان وقفا للمستنصر العباسى فخرب ودثر فاستأجره من قاضى القضاة بمكة يومئذ القاضى جمال

١- كتاب شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام لتقى الدين أبى الطيب محمد بن أحمد بن على الحسنى الفاسى المكي قاضى المالكية بالحرم الشريف ص١١٥ طبع ليبزيغ (ولد بمكة سنة ٧٧٥هـ) .

٢- هو المستنصر بالله جعفر بن الظاهر بويع عام ٦٢٣هـ .

٣- الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص٢٠٢ طبع ليبسيك سنة ١٨٧٥ ولد الشيخ قطب الدين النهروالى بمكة سنة ٩٣٠ وتوفى سنة ٩٨٨ وقيل سنة ٩٩٠ .

الدين بن ظُهَيْرة الشافعى إجارة طويلة مائة عام بأربعين ألف درهم بوزن مصر، وأذن القاضى جمال الدين السيد حسن بن عجلان أن يصرف الأجرة المذكورة فى عمارة ما تخرب من البيمارستان المذكور وأن يهدم ما يحتاج إلى الهدم ويرمم ما يحتاج إلى ترميم، وأن ينتفع به مدة إجارته . فشرع السيد حسن فى عمارة البيمارستان المذكور عمارة حسنة، وجدد به ما يحصل به النفع للفقراء ، وجدد به إيوانًا وصهريجًا ووقف جميع ذلك مما عمّره ومما يستحق الانتفاع به على الفقراء والمساكين والمرضى والمنقطعين يؤوون إليه علّوًا وسُفلاً وينتفعون بالإقامة والسكن فيه ، لايزعجهم أحد ولايخرجهم بل يستمرون إلى أن يحصل لهم الشفاء والعافية فيخرجون باختيارهم ، فإذا خلا البيمارستان من المرضى عاد الانتفاع لهم وكتب بذلك كتاب وقف على الصورة المشروحة وجعل النظر على ذلك لولديه بركات وأحمد ثم من بعدهما للأرشد فالأرشد من ذرية الذكور دون الإناث من ولد الظهر لا البطن. وثبت ذلك وحكم بصحته القاضى السيد رضى الدين أبو حامد محمد بن عبد الرحمن الفاسى الحسنى المالكى فى يوم الجمعة لعشر مضين من صفر سنة ٨١٦ وإنما استحكم فيه المالكى لأن متأخريهم أجازوا وقف المنافع وهو خلاف رأى أبى حنيفة والشافعى . واستمر إلى أن خرب ودثر فاستبدل مرارًا آخر ذلك فى أواخر دولة المرحوم المقدس السلطان سليمان خان بن سليم خان سقى الله عهده صوْب الرحمة والرضوان .

وقال الشيخ قطب الدين[١]: إن المدرسة الحنفية التى أنشأها سلطان الهند السلطان أحمد شاه الكُشرانى بجانب البيمارستان ، كان بيده هى والبيمارستان المستنصرى وكذلك أوقاف السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى . قال الشيخ قطب الدين: وأقرأت فيها درسًا فى الطب ودرسًا فى الحديث. وفى أوائل القرن التاسع الهجرى أوقف الجمال محمد بن الشهاب أحمد البونى[٢] من أهل بونه Boune من أعمال تونس بالمغرب الذى سافر إلى مكة وقطن الحجاز على البيمارستان المكى بعض الأماكن . وكان إبراهيم بن محمد برهان الدين الكردى[٣] نزيل الحرمين متوليًا مشيخة البيمارستان بمكة بعد موت الشمس البلوى، وجدد فى أوقافه المكان المجاور لأحد أبوابه اشتراه من ريعه فى سنة ٨٤٦هـ . وأوقف محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن الجمال محمد بن الشهاب أحمد بن أحمد فى مرض موته على

١- الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص٣٥١ و ٣٥٢ .

٢- الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع للسخاوى.

٣- الضوء اللامع.

البيمارستان المكى بعض الأماكن، وكان قد قدم جدّه من المغرب وهو فقير جدًا فقطن الحجاز وترقى ابنه بخدمة الشريف بركات بن أبى نُمىّ صاحب مكة وكان فيه خير بحت وتوفى بمكة عام ١٠١٧هـ ودفن بالمعلاة.

٢- بيمارستان المدينة

قال **النويرى**(١) فى سنة ٦٦٣هـ جهز الملك الظاهر **ركن الدين بيبرس الصالحى** ، الأخشاب والحديد والرصاص والآلات والصناع ، فكانوا ثلاثة وخمسين رجلاً لإتمام عمارة الحرم الشريف النبوى وأنفق فيه الأموال وجهز معهم المؤنة ، وندب لذلك الطواشى شهاب الدين محسن الصالحى ورضى الدين أبا بكر والأمير شهاب الدين الغازى بن **الفضل اليعمرى** مَشَدًا ومحى الدين أحمد بن أبى الحسين بن تمام طبيبًا إلى البيمارستان الذى بالمدينة ومعه أدوية وأشربة ومعاجين ومراهم وسكر لأجل من يعتريه من الجماعة مرض . وكان خروجهم من القاهرة فى سابع عشر شهر رجب ووصل إلى المدينة فى ثانى شوال وقال ابن شاكر الكتبى(٢) : تمم الملك الظاهر بيبرس عمارة حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل منبره وأحاط بالضريح درابزين وذهب سقفه وبيّضه وجدد البيمارستان بالمدينة ، ونقل إليه سائر المعاجين والأكحال والأشربة وبعث إليه طبيبًا من الديار المصرية . وتوفى الملك الظاهر يوم الخميس ١٨ محرم سنة ٦٧٦هـ .

١- نهاية الأرب فى فنون الأدب حوادث سنة ٦٦٣ .

٢- فوات الوفيات ترجمة الظاهر بيبرس.

بيمارستانات إيران

١- بيمارستان الرَّيّ

قال ياقوت في كلامه عن مدينة الرَيّ : أنشأ المسلمون في هذه المدينة بيمارستانًا . ولم أهتد إلى من أنشأه . وقال ابن القفطى[1] ذكر ابن جلجل الأندلسى في كتابه قال: أبوبكر محمد بن زكريا الرازى مسلم النحلة أديب طبيب مارستانى دبّر مارستان الرّى ثم مارستان بغداد.

وقال سليمان بن حسان[2]: إن الرازى كان متوليًا لتدبير بيمارستان الرى زمانا قبل مزاولته وتصرفه في البيمارستان العضدى ببغداد.

ومدينة الري كانت مدينة عامرة بينها وبين قزوين على بحر الخزر نحو سبعة وعشرين فرسخًا افتتحها المسلمون سنة ٢٠هـ . قال ياقوت: كانت الرى مدينة عظيمة خرب أكثرها ، واتفق أنى اجتزت في خرابها في سنة ٦١٧هـ وأنا منهزم من التتار فرأيت حيطان خرائبها قائمة ومنابرها باقية وتزاويق الحيطان بحالها لقرب عهدها بالخراب، إلا أنها خاوية على عروشها وحكى الإصطخرى أنها كانت أكبر من أصبهان وليس بعد بغداد بالمشرق أعمر منها.

٢- بيمارستان أصبهان

ذكر ابن أبى أصيبعة [3]: أن ابن مندويه الأصبهانى من الأطباء المذكورين ببلاد العجم وكانت له أعمال مشهورة في صناعة الطب ، ألف رسالة إلى المتقلدين علاج المرضى بيمارستان أصبهان ولم أقف على أكثر من ذلك.

٣- بيمارستان شيراز

ذكر ابن تغرى بردى [4]: أن محمود بن مسعود بن مصلح العلامة قطب الدين أبو الثناء الفارسى وهو الشيرازى المولد بشيراز سنة ٦٢٤هـ رتب طبيبًا بالبيمارستان وهو حدث

١- تاريخ الحكماء.

٢- طبقات الأطباء ج٢ ص٣١٠ .

٣- طبقات الأطباء ج٢ ص٢٢ .

٤- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ص٣٥٠ .

ثم سافر إلى النصير الطوسى ولازمه وقرأ عليه الهيئة والرياضى واجتمع بهولاكو وأبغا ومات سنة ٧١٠هـ.

٤- دار المرضى بنيسابور

ذكر العيني [١]: أن عبد الملك بن أبى عثمان محمد بن إبراهيم أبا سعيد النيسابورى المعروف بالخركوش، تفقه وتزهد وجاور بمكة وسمع الحديث ثم انصرف إلى وطنه نيسابور، فعمر القناطر والجسور والحياض . وبنى المساجد ودار المرضى ووقف عليها الأوقاف، وله خزانة كتب كبيرة موقوفة وصنف الكتب وتوفى بنيسابور فى جمادى الأولى سنة ٤٠٧هـ وذكر ابن الملقن الأندلسى[٢] أن الحسن بن على بن إسحاق الوزير نظام الملك من وزراء السلجوقية بنى بيمارستانًا بنيسابور ويقال : إنه كان يتصدق فى بكرة كل يوم بألف دينار وتوفى فى رمضان سنة ٤٨٥هـ .

٥- بيمارستان زَرَنْج

ذكر الإصطخرى[٣] أن عمرو بن الليث الصفّال بنى بَزرَنْج سوق عمرو ووقفه على المسجد الجامع والبيمارستان والمسجد الحرام ، وغلة هذا السوق فى كل يوم نحو ألف درهم ومدينة زرنج هى قصبة سجستان وأسواقها على غاية من العمارة.

٦- بيمارستان تبريز

بنى رشيد الدين فضل الله[٤] وزير السلطان أولجايتو دار شفاء بتبريز فى أوائل القرن الثامن الهجرى أى نحو سنة ٧١٠هـ أو أزيد قليلا..

٧- بيمارستان مَرْو

قال ابن البيطار فى مفرداته : قال عيسى بن ماسه[٥]: أما نحن فى بيمارستان مرو فإنا نستعمل الحرمل ... الخ فثبت أنه كان بمرو بيمارستان، وكان عيسى بن ماسه من المشتغلين فيه.

١- عقد الجمان حوادث سنة ٤٠٧ وتاريخ الإسلام للذهبى من سنة ٤٠١-٤١٦هـ .

٢- طبقات الشافعية ص١٣٢ .

٣- المسالك والممالك ص٢٤١ طبع ليدن.

٤- الأخية- الإخوان التركية.

٥- الجامع للمفردات ج٢ ص١٥ .

٨- بيمرستان خوارزم

فى أواخـر سـنة ٧٣٣ دخل ابن بطـوطـه[1] خوارزم سـائحًا فقال فى رحلته : وبخوارزم مـارستان له طبيب شـامى يعرف بالصـهيونى نسبة إلى صـهيون من بلاد الشـام ، ولم أر فى الدنيا أحسن أخلاقًا من أهل خوارزم . وخوارزم هذه ولاية متسعة فى شمال خراسان زارها ياقـوت الحـمـوى فى سنة ٦١٦هـ فوجد بها العمار منتشرًا وأهلها علماء فقـهاء أذكياء. وقد وردها التتار سنة ٦١٨هـ وخربوها وقتلوا أهلها وتركوها تلالاً.

١- خرج ابن بطوطه سائحًا من طنجة سنة ٧٢٥هـ وبعد رجوعه من رحلته أملى رحلته سنة ٧٥٦هـ.

بيمارستانات بلاد الروم

أى الأناضول

١- بيمارستان قيسارية أو دار الشفا

دار الشفاء بقيسارية منسوبة إلى كوهى خاتون(١) وكان بناؤها سنة ٦٠٢هـ وهذه الخاتون المباركة كانت ابنة قليج أرسلان السلجوقى وهذه الدار تسمى أيضا مدرسة شفائية غياثية لأنها بنيت على وصية هذه السيدة بأمر غياث الدين كَيْخُسْرَو بن قليج أرسلان وهو أخوها.

وعلى هذه الدار بالخط السلجوقى ما يأتى: أيام السلطان المعظم غياث الدنيا والدين كَيْخُسْرَو بن قليج أرسلان دامت .. اتفق بناء هذا المارستان وصية عن الملكة عصمة الدنيا والدين كوهى نسيبة ابنة قليج أرسلان سنة ٦٠٢هـ .

ولم يعثر على كتاب وقف هذه المارستان ، والكتابات المعمارية والتاريخية لهذا الأثر فى كتاب «الكتابات القيسارية» لخليل أدهم مدير متحف الآثار القديمة بالأستانة طبع استنبول سنة ١٣٣٤هـ وقال الأستاذ الدكتور أحمد سهيل التركى فى المؤتمر التاسع لتاريخ الطب المنعقد فى بوخارست فى ١١ سبتمبر سنة ١٩٣٢ : إن مارستان قيسارية لايزال موجوداً يؤدى خدمته بعد أن أصلح على النظم الحديثة .

وقيسارية مدينة عظيمة من بلاد الروم كانت تابعة لصاحب العراق واسمها القديم Caesaria وكانت عاصمة بنى سلجوق ملوك الروم أولاد قليج أرسلان افتتحها ألب أرسلان سنة ١٠٦٦م.

٢- المدرسة الشفائية بسيواس

بناها كَيْكاوس بن كَيْخُسْرَو السلجوقى بن قليج أرسلان سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م) ومكتوب عليها : أمر بعمارة هذه الدار لرضاء الله تعالى السلطان الغالب بأمر الله عز الدنيا والدين ركن الإسلام والمسلمين سلطان البر والبحر تاج آل سلجوق أبو الفتح كيكاوس بن كيخسرو برهان أمير المؤمنين سنة ٦١٤هـ .

١- نيل على فضل الأخية- الفتيان التركية فى كتاب الرحلة لابن بطوطه تأليف م. جودت طبع استنبول سنة ١٣٥٠هـ (١٩٣٢م) .

وكتاب الوقف محفوظ بدار الأوقاف (١) ننقل خلاصته وهى: وقف الواقف المذكور المبرور سقاه الله تعالى شآبيب الرحمة والرضوان، وكساه جلابيب العفو والغفران : الضياع الخمس والحوانيت المائة والثمانية والأسقاص السبعة والمبقلة والرحى والهرى والإسطبل المذكورة المحدودة الموصوفة فى هذا الذكر بجميع حدودها وحقوقها ومرافقها وتخومها ومصالحها ورسومها كلها ، أرضها وبنائها ونقضها وسمائها وعلوها وسفلها وبيوتاتها ومنازلها ومعالفها وأصايلها وأواخيرها ومنابدها ومراعيها ومساكنها وأشجارها وكرومها وأفراخها وبساتينها ومستأجرها ومروجها ومقاصها وغياضها وغدرانها وحياضها وعيونها ووهادها وتلالها وقيعانها وجبالها ، وحق شربها المعلوم وملقى ذيلها المرسوم وعامرها وغامرها .

وكل حق هو لها داخل فيها وخارج عنها ومتصل بها منفصل عنها ومعروف بها ومعلوم لها ومعزى إليها ومعدود منها بأسرها وحذافيرها على «دار الشفاء» ومأوى المرضى والأعلاء التى رسم بإنشائها وأمر ببنائها الكائن موضعها ظاهر كورة سيواس حماها الله تعالى وحرسها على فوهة جادة توقات حيث عن الآفات ؟ المشتملة عليها حدود أربعة : أولا .... (صرفنا النظر عن ذكره اجتنابًا للتطويل وثانيًا وثانيا ... وثالثا ... ورابعا ... وقفا مؤبدًا صحيحًا شرعيًا وتصدقًا سرمدًا صريحًا سمعيًا ونجيا مخلدًا جائزًا قطعيًا بتًا بتلاً فضلاً جاريا على منهج الشرع، حاويًا مقتضى الحكم، خاليًا عن الموانع القادحة ، جامعًا لشرائط الصحة لاتباع هذه الأوقاف المذكورة ، ولايوهب ولايرهن ولايورث ولايملك ولايتلف ولا يهلك ولايخلف لوجه من الوجوه ، وسبب من الأسباب بل يجرى على أصلها المؤبد وتقام على شرائطها المؤكد [كذا] لاينقصها مرور الأيام ولاينقضها كرور الشهور والأعوام ... وجعل الأمير الأجل الكبير المبجل الأمير العاقل العالم العادل الكافى الكامل المظفر المؤيد المنصور المشيد؟ جمال الدين ، جلال الإسلام والمسلمين عمدة الملوك والسلاطين فى الممالك، أستاذ الدار فرُخ بن عبدالله الخازن الخاص دام توفيقه متوليًا الأوقاف المذكورة فى هذه الوثيقة ... وناظرًا فيها يتولى بنفسه ويستنيب من ينوبه [كذا] ويوكل إلى من يشاء ويفوض إلى من آثر واختار ويوكل فيها من أراد ويعزل عن الوكالة أنى أحب ومتى شاء لا اعتراض لأحد من الناس كائنًا من كان فيها عليه، فهو المعول عليه فى تقدير واردات الأطباء الحانقين والمترفقين الفائقين المجربين المهذبين الغير المتحذلقين ، والكحالين الفاضلين والجراحين المصلحين الشفيقين الرفيقين القاضين بها، وترتيب غير التعبير؟ لتحصيل الأدوية والعقاقير وتمشية أحوال المستخدمين من

١- الأخية الفتيان التركية تأليف م. جوبت طبع استنبول سنة ١٣٥٠هـ (١٩٣٢م) نقلنا الوقفية كما هى بأغلاطها اللغوية.

الملازمين على تباين درجاتهم وتفاوت طبقاتهم ، فما أفاد الله تعالى من فوائد ريع مستغلها يصرف فى عمارة الأوقاف المذكورة وبناء ما انهدم وإصلاح مرماتها واستزادة غلاتها، فما فضل عنها يصرف إلى نفسه منها كل سنة من القراطيس البيض بالفضة السلطانية، الرائجة ببلاد الروم فى معاملات أهلها أربعة آلاف درهم قرطاس فضى من النقد المذكور ، النصف منها كلها تأكيداً لها ألفا قرطاس فضة من الغلة النقية ألف مدّ (بن براتى) النصف من ذلك خمسمائة مدّ حسب المحرر، ويختزن الفاضل فى خزانة دار الشفاء المذكورة إذا اتفق شراء أعلى من العقارات ونفائس المستغلات حصلها بالمبايعة وأضافها إلى الأوقاف المذكورة ربمّا لازيادها . وشرط الواقف المذكور على المتولى المذكور والناظر فى أوقافه المذكورة وكل متولى بعده أن لايؤجر شيئًا منها عند مسيس الحاجة فى الإجارة أكثر من ثلاث سنين متواليات ثم لايعقد عليه عقد إجارة أخرى حتى تنقضى هذه الإجارة المعقود عليها الأولى ، ولايؤجر من ظالم أو طامع ولامتغلب ولا متعد ولا من يخشى غائلته ، فإن انطمست دا رالشفاء المذكورة عياذاً بالله واستحال استجراؤها وتعذر السكون إليها وعدم الانتفاع بها صارت الفوائد الحاصلة من الأوقاف المذكورة إلى فقراء المسلمين ومحاويج الموحدين ومساكين المسلمين ... الخ.

قال الدكتور أحمد سهيل فى مؤتمر تاريخ الطب ببيوخارست: هذا المارستان لايزال موجوداً .

٣- مارستان قوتلوغ توركان بايران

مآثر قوتلوغ توركان[1] خاتون بن ملكات قره خطائية الحاكمة بإيران جديرة بأن تذكر فى ساحة الفتوة والكرم، وهذه الملكة جلست على كرسى السلطنة بعد السلطان قطب الدين بايران سنة ٦٧٠هـ وسيرتها مضبوطة فى تاريخ آل سلجوق بمكتبة أيا صوفيا (رقم ٣١٩ورقة ٨٨ و ٨٩) ، يذكر فيها أنها وقفت تلك الآثار مدرسة وسائر بقاع خيراز رباطات ومساجد ودار شفاء وقناطر وخانقاهات وسائر أبواب الخير.

٤- بيمارستان أماصيه

أنشأت إيلدوز من خاتون زوجة السلطان أولجايتو دار الشفا محتشمًا بأماصيا سنة ٧٠٨هـ و(١٣٠٨م) ولاتزال موجودة.

١- ذيل على فصل الأخية الفتيان التركية تاليف م. جودت طبع استنبول سنة ١٣٥٠هـ (١٩٣٢م) .

٥- بيمارستان ديوركى

انشـأت توران خـاتون زوجـة أحمـد شـاه الراشـمندى دار الشـفـاء بمدينة دبوركى فى سنة ٦١٤هـ (١٢٢٨م) ولاتزال موجودة.

٦- بيمارستان محمد الفاتح

فى سنة ١٤٧٠م أنشـأ السلطان محمد الفاتح مارسـتانا بقسطنطينية ومن الأطباء الذين عملوا فيه:

١- المولى محمود بن الكمال(١) الملقب بأخى جان المشتهر بأخى جلبى، كان أبوه فى بلدة تبريز ثم أتى إلى بلاد الروم ونزل قسطنطينية وعانى فيها الطب وتعين طبيبًا لدار السلطنة ورئيسًا للأطباء فى المارستان الذى بناه السلطان محمد خان بمدينة القسطنطينية وتوفى سنة ٩٠٢هـ .

٧- بيمارستان السلطان سليمان

السلطان سليمـان(٢) ابن السلطان سليم خان عاشر سلاطين ال عثمان والمتوفى فى ٢٢ صفر سنة ٩٧٤هـ بنى بالقسطنطينية بيمارستـانا لمداواة المرضى وتربية المجانين بأنواع الأشربة والأطعمة والمعاجين

٨- بيمارستان أدرنة

أنشأ هذا المارستان أحد سلاطين آل عثمان ولم أتحقق من هو ، ويغلب أن يكون إنشاؤه قبل عهد السلطان سليم ولعل السلطان بايزيد الثانى هو الذى انشأه ، ويفهم ذلك من ترجمة أحد الأطباء الذين عملوا فى هذا المارستان وهو:

١- الحكيم شهاب الدين يوسف(٣) قرأ فى أول عمره على علماء عصره ثم رغب فى الطب وقرأ على الحكيم محى الدين ثم نصب طبيبًا فى مارستان أدرنة ومارستان قسطنطينية ثم جعل طبيبًا للسلطان سليم خان ، وهو أمير على بلده طرابزوان ولما جلس السلطان سليم خان

١- الشقائق النعمانية ج٢ ص٢٤ والسنا الباهر للشبلى.

٢- العقد المنظوم فى ذكر أفاضل الروم ج٢ ص٢٩٤ .

٣- الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية والسنا الباهر للشبلى.

على سرير المملكة جعله طبيبًا لدار السلطنة ثم جعله رئيسًا للأطباء ودَامَ على ذلك إلى أن توفى فى سنة ٩٥١هـ وكانت سنه مائة سنة أو أكثر وكان رحمه الله عالمًا صالحًا عابداً سليم الطبع حليم النفس معرضًا عن أحوال الدنيا.

٩- بيمارستانات أخرى

ببلاد الروم (الأناضول)

وقد أنشئت فى بلاد الروم بيمارستانات أخرى لم نقف على تاريخها بالشرح الكافى ونكتفى بذكر أسمائها وتواريخها وقد ذكرها الدكتور أحمد سهيل فى مؤتمر تاريخ الطب ببوخارست:

أ- بيمارستان قصطامونى أو بيمارستان على فرنانه أنشئ سنة ١٢٧٢م .

ب- بيمارستان علاء الدين قيقباد بقونيه أُنشئ سنة ١٢١٩م.

ج- دار الطب ببروسه أُنشئت سنة ١٣٣٩م.

د- بيمارستان للجذام بأدرنة أنشئ سنة ١٤٢١م.

هـ- بيمارستان بايزيد الثاني بأدرنة أنشى سنة ١٤٨٥ م ولعله البيمارستان السابق ذكره.

و- بيمارستان خاصكى سلطان باستنبول أنشئ سنة ١٥٣٩م.

ز- بيمارستان والده سلطان بمغنيزيه أنشئ سنة ١٥٥٤م.

ح- بيمارستان السلطان أحمد باستنبول أنشى سنة ١٦١٦م.

بيمارستانات المغــرب

١- بيمارستان تونس

فى تونس مـارسـتـان[١] بالقرب من سيدى محرز لايزال موجوداً ولكنه قد تغيرت معالمه . ويرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر الميلادى وذكر الفقيه العلامة الشيخ أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللؤلؤى المعروف **بالزركشى** [٢]: أن أمير المؤمنين أبا فارس عبد العزيز بن السلطان أبى العباس أحمد بن أبى عبدالله محمد بن السلطان أبى يحيى بن أبى بكر أحد ملوك الدولة الحفصية ، تولى تونس بعد وفاة والده الخليفة السلطان أبى العباس أحمد فى يوم الأربعاء ثالث شعبان سنة ٧٩٦ فأخذ بالحزم فى أموره وجعل فى كل خطة من يصلح بها فاستقامت الأمور بتونس فى أيامه كلها أحسن استقامة وأحدث فى أيامه بتونس حسنات دائمة فمنها .... ومنها إقامة الخزانة بجوفى جامع الزيتونة وحبس ما فيها وفى غيرها من الكتب فى العلوم الشرعية والعربية واللغة والطب والحساب والتاريخ والأدبيات وغير ذلك ، ومنها إحداث المارستان بتونس للضعفاء والغرباء وذوى العاهات من المسلمين وأوقف على ذلك أوقافًا كثيرة تقوم به .

ومن الأطباء الذين عملوا بيمارستان تونس:

١- **محمد الشريف الحسنى الزكراوى** [٣]: نسبة إلى جده أبو زكريا الفاسى نزيل تونس وبها توفى سنة ٨٧٤هـ وقد جاوز الخمسين، وكان أديبًا طبيبا لبيبا، ولى البيمارستان بتونس وأقرأ العقليات مع مشاركة فى الفقه واعتناء بالتاريخ

٢- بيمارستان مراكش

أو بيمارستان أمير المؤمنين المنصور أبى يوسف

قــال **عبد الواحد المراكشى**[٤] فى سياق كلامه عن أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على بن علوى الكومى من ملوك الموحدين بالمغرب. وبنى مدينة مراكش بيمارستانًا

١- Manuél d'Art musulman . par H. saladin p. 200 .

٢- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص٩٩-١٠٠-١٠٢ ، طبع تونس سنة ١٢٨٩ .

٣- الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع لابن حجر العسقلانى.

٤- المعجب فى تلخيص أخبار المغرب.

ما أظن أن فى الدنيا مثله ، وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع فى البلد، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه ، وأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح؛ وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياهًا كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادة على أربع برك فى وسط إحداها رخام أبيض ، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد عن الوصف ويأتى فوق النعت، وأجرى له ثلاثين دينارًا فى كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجًا عما جلب إليه من الأدوية ، وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال وأعدّ فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء ، فإذا نقه المريض فإن كان فقيرًا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما، يستقل ، وإن كان غنيًا دفع إليه ما له وتركته وسببه، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء ، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلا أن يستريح أو يموت. وكان فى كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى ويسأل عن أهل بيت أهل بيت ويقول: كيف حالكم ؟ وكيف القوّمة عليكم؟ إلى غير ذلك من السؤال ثم يخرج، لم يزل مستمرًا على هذا إلى أن مات رحمه الله فى شهر صفر سنة ٥٩٥هـ وله من العمر ٤٨ سنة ومدة ولايته ١٦ سنة وثمانية شهور.

الأطباء الذين خدموا فى هذا المارستان

١- **أبو اسحاق ابراهيم الدانى**: كانت له عناية بالغة بصناعة الطب وأصله من بجاية ونقل إلى الحضرة ، وكان أمير البيمارستان وطبيبة بالحضرة وكذلك ولداه ، وتوفى الدانى فى مراكش دولة المستنصر بن الناصر [١].

٢- **محمد بن قاسم**[٢] بن أبى بكر القرشى المالقى نزيل غرناطة قال ابن الخطيب : كان بارع الكتابة والنظم حسن النادرة عارفًا بالطب، ولى النظر على البيمارستان بفاس ومات وسط سنة ٧٥٧هـ. وله ٥٤ سنة.

١- عيون الأبناء فى طبقات الأطباء ج٢ ص٧٩ .

٢- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى.



شكل ٢٠- بيمارستان سيدى ابن عاشر بسلا

٣- بيمارستان سلا

لما قدم أبو العباس أحمد بن محمد بن عمر بن عاشر الأنصارى الأندلسى من بلاد الأندلس جعل إقامته بسلا، وذلك فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى بعد أن تنقل فى بلاد المغرب مثل فاس ومكناسة وشالة ، وأخذ ابن عاشر يعالج المرضى واشتهر اسمه بسيدي ابن عاشر الطبيب، وأنشئ بالقرب من قبره مارستان وتوفى ابن عاشر سنة ٧٦٤ أو سنة ٧٦٥ ويدفن فى التربة المسماة باسمه وقبته من أكبر القباب فى كل من سلا ورباط وفى سنة ١٢٤٧هـ (١٨٤٦م) جدد[١] السلطان مولاى عبد الرحمن بناء هذا المارستان.

وسلا مدينة بالمغرب الأقصى على ساحل المحيط الأطلنطى وقد اختارها ابن الخطيب[٢] مقامًا له وقد وصفها فى مقاماته بقوله «العقيلة المفضلة والبطيحة المخضلة والقاعدة المؤصلة والسورة المفصلة ذات الوسامة والنظارة والجامعة بين البداوة والحضارة معدن القطن والكتان والمدرسة والمارستان.

٤- بيمارستان سيدى فرج بفاس

جاء فى كتاب سلوة الأنفس [٣]: أنه بالقرب من سوق العطارين وسوق الحنّا بفاس، مكان يقيم به المرضى الذين بعقولهم مرض، وهم المجانين . ويسمى ذلك المكان سيدى فرج على أنه لم يدفن به أى شخص كان يسمى بهذا الاسم ، وليس به قبر، وإنما بنى هذا المكان أحد السلاطين ليضم مرضى المسلمين الذين لا ملجأ لهم أو مأوى يأوون إليه، ويسمى باب الفرج لأن المرضى كانوا يجدون فيه ما يفرج كربهم وقد حبست عليه الحبوس التى كانت تصرف غلتها عليه[٤].

وقد جلا الدكتور دومازل[٥] Dr Dumazel وصف هذا البيمارستان فقال: بناؤه قديم يرجع تأسيسه إلى عهد سلاطين بنى مرين وهم فى أوج عزهم وعظيمتهم يعانون على نشر العلوم

١- أخبرنى بذلك المسيو رينو Renaud مدير المعهد الفرنسى للتاريخ والعلوم بمراكش.

٢- الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ج٢ ص١١٢ طبع مصر.

٣- سلوة الأنفس ج٢ ص٢٧٦ .

٤- Michaux - Bellaire : description de la ville de Fez . Paris 1907 .

٥- Publications du Service de la Santé et de l'hygiéne publique , editées à l'occasion de l'exposition Calomicle de marseille on 1922 par Dr du Mazel.



شكل ٢١- بيمارستان سيدى فرج بفاس

وتجميل المدن. وبنى أحدهم وهو أبويعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق هذا المارستان لما تولى الملك سنة ٦٨٥هـ (١٢٨٦م) وعهد مؤسسه إدارته إلى أشهر الأطباء وأوقف عليه الحبوس الكثيرة من العقار للصرف عليه وحفظه . ولما عظم أمر البيمارستان واتسعت أعماله أدخل عليه السلطان أبو عنان الذى تولى الملك ٧٦٦هـ زيادات عظيمة.

وفى سنة ٩٠٠هـ اتخذ أهل الأندلس من المسلمين إقامتهم فى فاس ، فتوى رياسته طبيب من بني الأحمر يسمى فرج الخزرجى . ولذلك سمى بيمارستان فرج، فأصلح فيه وجعل الموسيقاريين يلحنون أمام المرضى. وليس فى مدخل البيمارستان شئ يستوقف النظر وهو فى سوق الحنا ويحيط به جدار أبيض وعليه باب عال مغطى بالحديد شأنه كسائر أبواب المدينة مقفل على الدوام ولا يفتح إلا قليلاً .

بيمارستانات الأندلس

١- بيمارستان غرناطة

قال الوزير لسان الدين بن الخطيب[١] فى كلامه عن أمير المسلمين بالأندلس محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن فرج بن يوسف بن نصر ، الذى تولى الملك بعد وفاة أبيه فى عام ٧٥٥هـ : ومن مواقف الصدقة والإحسان من خارق جهاد النفس بناء البيمارستان الأعظم ، حسنة هذه التخوم القصوى ، ومزية المدنية الفضلى، لم يهتد إليه غيره من الفتح الأول مع تقرير الضرورة وظهور الحاجة ، فأغرى به همة الدين ونفس التقوى فأبرزه موقف الأحداق ورحلة[٢] الأندلس ومدرك الحسنات فخامة بيت وتعدد مساكن ورحب ساحة ودرور مياه وصحة هواء ونقد خزائن ومتوضآت وانطلاق خيرات وحسن ترتيب ، أبر على مارستان مصر ببالساحة العريضة والأهوية الطيبة، وتدفق المياه من فورات الرمل وسود الصخر، وتمرج البحر وانسدال الأشجار . وقال سلادين [٣]: إن هذا الأثر المربع الزوايا لايبلغ من الاتساع والإحكام فى البناء مبلغ مارستان قلاوون بالقاهرة ، ولكنه كان مرتبًا فى بساطته أنيقًا فى تفصيله ، وكانت قاعاته البسيطة تدور حول باحة داخلية فى وسطها حوض عميق لقبول الماء من عينين كل عين منها عبارة عن أسدٍ جاث . ولما انتزعت غرناطة من يد العرب سنة ١٤٩٢م حول هذا البناء الصغير إلى دار ضرب السكة ثم أدخلت عليه تغيرات مختلفة شوهت معالمه ثم تهدم معظمه.

وذكر مارسيه[٤] كذلك: أن مارستان غرناطة حُوِّل إلى دار ضرب بعد سقوط غرناطة وحدثت فيه تغييرات مرات عديدة وتهدم ثلاثة أرباعه ، ولكنه في مظهره أبسط من معاصره بيمارستان قلاوون . ففى وجهته بعض النوافذ وفيها أقواس مزدوجة ، وفى الوسط باب وأسكفة يعلوهما كتابة تشبه أشرعة الفلك، ويدخل من الباب إلى ردهة مربعة الزوايا مستطيلة وفي وسطها حوض فيه أسدان جاثيان يشبهان مثيليهما في قصر الحمراء وينبع منهما الماء ، وحول الردهة أربعة أروقة ينفتح فيها أبواب طويلة ذات انحناء على شكل نعل الفرس وفى الزوايا سلاليم يدخل منها إلى الطابق الأول.

١- الإحاطة فى أخبار غرناطة ٢ـ ص٢٩ .

٢- كذا ولعلها «حلة الأندلس».

٣- Sladin : manuel d'art musulemann p. 200 .

٤- Y. Marçais : manuel d'art musuleman p. 559 .

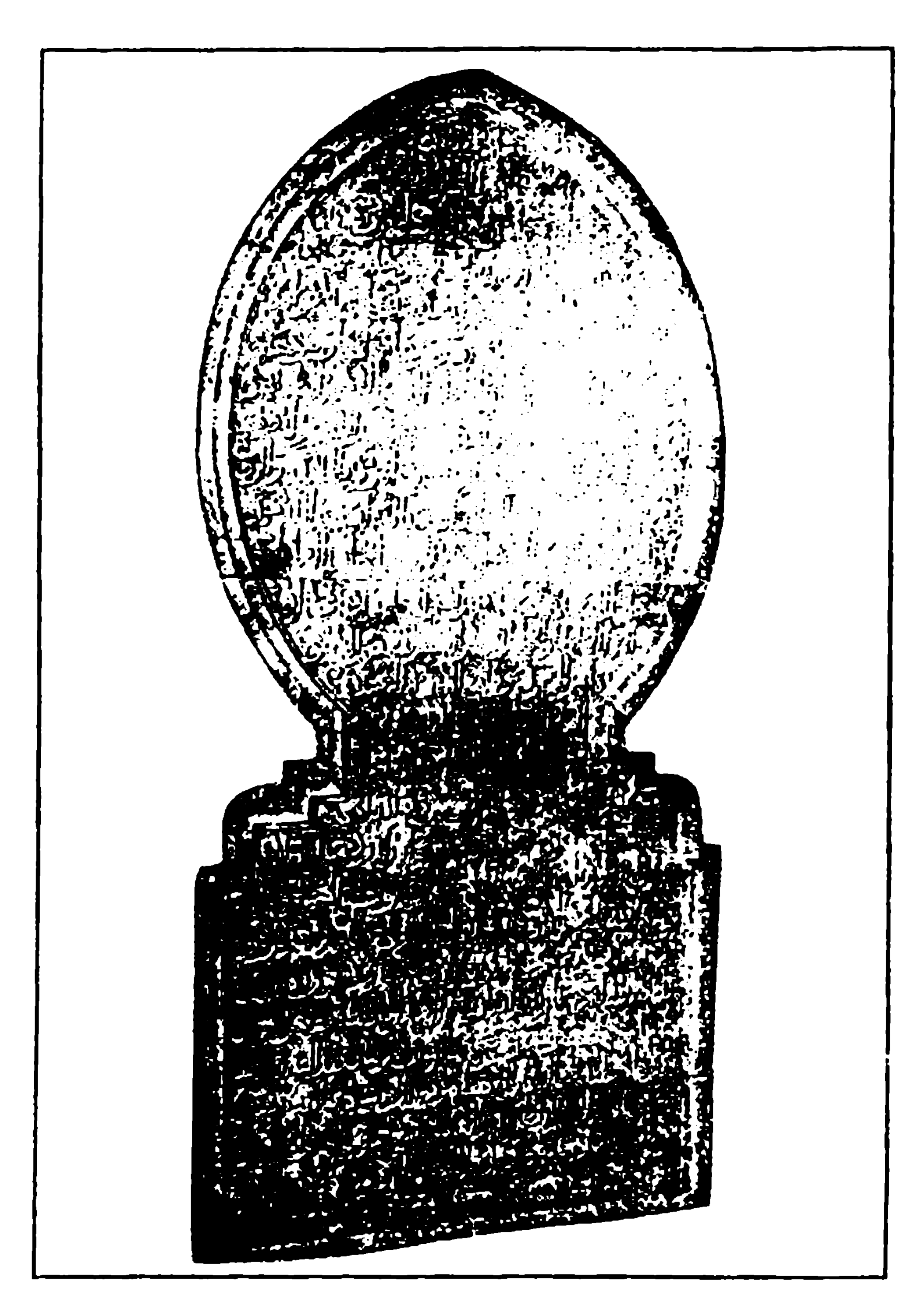
ونقل ليفى بروفنسال[١] نص ذكرى بناء السلطان محمد الخامس للبيمارستان سنة ٧٦٧-٧٦٨هـ وهو لوح من الرخام على شكل الباب مقنطر مركب من قطعتين ملتصقتين التصاقًا تامًا محفوظ منذ سنة ١٨٥٠م فى جناح من بستان قصر الحمراء ، نقل ليه من أحد بيوت غرناطة ، وعلى أحد وجهى هذا اللوح كتابة فى غاية الحفظ تملأ هذا الوجه وهى مكونة من ٢٦ سطرًا بالخط العادى الأندلسى (شكل ٢٢) وهذه الكتابة.

تخليد ذكرى مارستان بناه السلطان محمد الخامس من بنى نصر الغنى بالله خاصًا بمرضى غرناطة الوطنيين.

وهذا هو النص:

الحمدلله أمر ببناء هذا المارستان رحمة واسعة لضعفاء مرضى المسلمين ، وقربة نافعة إن شاء الله لرب العالمين وخلد حسنة ناطقة باللسان المبين ، وأجرى صدقة على مرّ الأعوام وتوالى السنين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، المولى الإمام السلطان الهمام الكبير الشهير الطاهر الظاهر ، أسعد قومه دولة وأمضاهم فى سبيل الله صولة، صاحب الفتوح والصنع الممنوح، والصدر المشروح، المؤيد بالملائكة والروح ناصر السنة، كهف الملة أمير المسلمين الغنى بالله أبو عبدالله محمد بن المولى الكبير الشهير السلطان الجليل الرفيع المجاهد العادل الحافل السعيد الشهير المقدس أمير المسلمين أبى الحجاج بن المولى السلطان الجليل الشهري المعظم المنصور هازم المشركين وقامع الكفرة المعتدين السعيد الشهيد الوليد بن نصر الأنصارى الخزرجى ، أنجح الله فى مرضاته أعماله، وبلغه من فضله العميم وثوابه الجسيم آماله، فاخترع به حسنة لم يسبق إليها من لدن دخل الإسلام هذه البلاد؛ واختص بها طراز فخر على عاتق حلة الجهاد. وقد أراد وجه الله بابتغاء الأجر والله ذو الفضل العظيم ، وقدم نورًا يسعى بين يديه ومن خلفه يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم. فكان ابتداء بنائه فى العشر الوسط من شهر المحرم من عام سبع وستين وسبعماية ٧٦٧هـ وتم ما قصد إليه ووقف الأوقاف عليه فى العشر الوسط من شوال من عام ثمانية وستين وسبعمائة ٧٦٨ والله لايضيع أجر العاملين ولايخيب سعى المحسنين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبين وآله وأصحابه أجمعين.

١- Inscription arabe d'Espagne par Levy Provençal p. 164 . 1931 .



شكل ٢٢- ذكرى إنشاء بيمارستان غرناطة

رقم الإيداع ١١٦٢١٨ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 322 - 168 - 7



ت: ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق